

عدد ممتاز
تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة تحفل بالتاريخ العربي

□ مطرقة باب، ذات نقوش عربية ــ المغرب ــ القرن الثامن عشر.



الغلاف الأول
□ الف ليلة وليلة، «مصدر متعة لا نهاية لها...» من كتاب
The World Of Islam.
by Bernard Lewis

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية تعنى بالتاريخ والتراث

الأعداد ٩٥ ــ ٩٨ ● أيلول ــ كانون الأول ١٩٨٦

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : **د. أنيس صايغ** المدير المسؤول : **محمد مشموشي**

قسم التوثيق والأبحاث : **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

المخرج الفني : **سالم زين العابدين**

الانتاج: **مطبعة المتوسط ش.م.م.**

التوزيع: **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.**

ثمن النسخة

لبنان	٢٠ ل.ل.	سوريا	٢٠ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- ● في لبنان: للأفراد ٢٠٠ ل.ل.
- ● للمؤسسات والدوائر الحكومية ٤٠٠ ل.ل.
- ● في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- ● للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- ● خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- ● للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- ● اشتراك تشجيعي ٢٠٠٠ ل.ل.
- ● تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

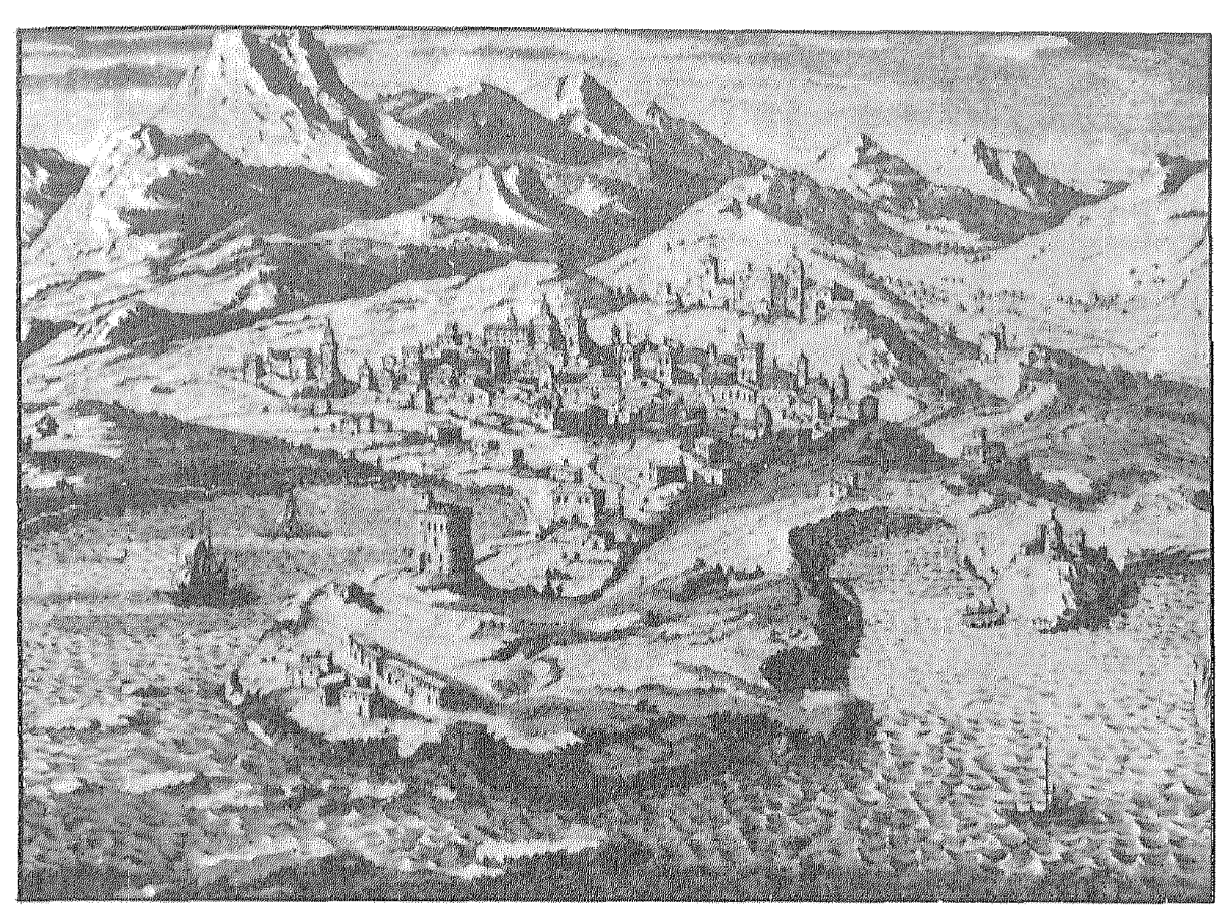
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 8, No. 95-98 ● Sep-Dec 1986

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



□ ساحل طرابلس والقلمون وأنفه، كما تخيله أحد الفنانين الأوروبيين.

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز

(رحلة النابلسي إلى لبنان)

(١١٠٥هـ - ١٦٩٣م)

تحقيق: أستاذ د. عمر عبد السلام تدمري

(الحلقة الأولى)

يُعتبر الشيخ «عبدالغني النابلسي»، المولود في دمشق سنة ١٠٥٠هـ / ١٦٤١م، والمُتَوَفَّى فيها سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م، من كبار رجالات التصوّف، ومن أشهر الرّحالة في عصره، ومن أكثر المؤلّفين نتاجاً، بحيث أرْبَتْ مؤلّفاته على المئة مصنّف، وقيل على المئتين، وقيل إنها بلغت ثلاثمئة بين رسالة وكتاب ومجلّدات.

ويهمّنا هنا، من مؤلّفاته، كُتُب الرحلات التي صنّفها، وخاصّة عن زيارته إلى «لبنان»، حيث نجد فيها كثيراً من المعلومات التاريخية والعمرانية والثقافية، وغير ذلك من المعلومات التي لا نجدها في المصادر التاريخية المتداوَلة.

وللنابلسي خمس رحلاتٍ:



أوّلها: رحلة إلى القسطنطينية دار الخلافة العثمانية، قام بها في سنة ١٠٧٥هـ /١٦٦٤م. ولم يصلنا عنها شيء مُدَوَّن.

والثانية: كانت إلى البقاع العزيز وجبل لبنان، في سنة ١١٠٠هـ /١٦٨٨م. وقد جمع أخبارها في كتاب سمّاه «حلّة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز»، وقام بتحقيقها ونشرها الدكتور صلاح الدين المنجّد (١٩٧٩).

والثالثة: زار فيها بيت المقدس ومدينة الخليل، سنة ١١٠١هـ /١٦٨٩م. ودوّن هذه الرحلة في كتاب سمّاه «الحضرة الأنسية في الرحلة القُدْسيّة»، طُبع في القاهرة (١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م).

والرابعة: هي الرحلة الكبرى، وسمّاها «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز»، وكانت في سنة ١١٠٥هـ /١٦٩٣م. زار فيها ساحل لبنان، وطُبعت مرّتين، الأولى في دمشق (١٢٩٩هـ)، والثانية في القاهرة (١٣٢٤هـ).

والخامسة: وهي رحلة خاصّة إلى طرابلس الشام في سنة ١١١٢هـ /١٧٠٠م. جمعها في كتاب سمّاه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسيّة» حقّقها ونشرها «هريبرت بوسّه» (بيروت ١٩٧١).

ورغم أنّ الرحلة الكبرى المعروفة بـ «الحقيقة والمجاز..» طبعت مرّتين، فإنّها نادرة الوجود في المكتبات العامة، حتى أن دار الكتب المصرية تفتقدها منذ سنوات طويلة[1]، ولذا أرجو أن يُقيّض لها من يقوم بتحقيقها ونشرها من جديد، لتصبح في متناول الباحثين ومحبّي كتب الرحلات.

ويسعدني أن أساعد في «تحقيق» نصّ هذه الرحلة المهمّة، في هذا الجزء الخاص بالمدن والقرى اللبنانية، معتمداً على النّصّ الذي نشره المؤرّخ «عيسى اسكندر المعلوف» ــ على حلقات ــ في مجلة «المعارف» التي كان يصدرها «وديع نقولا حنّا» في الشُوَيْفات، وذلك تحت عنوان «لبنان في أواخر القرن السابع عشر»[2]، وهنا يجدر أن أشير إلى أنّ «المعلوف» قام بحذف بعض العبارات أو الفقرات الاستطرادية، وأسقط بعض الأبيات الشعرية من النّصّ الأساس، مشيراً إلى ذلك بـ (...)، واكتفى بعرض الرحلة دون تحقيق، سوى بعض التعليقات اليسيرة جدّاً، سوف أشير إليها في مواضعها.

* * *

بدأ النابلسي رحلته بمبارحته دمشق يوم الخميس غرّة شهر المحرَّم أول شهور سنة ١١٠٥هـ /١٦٩٣م. من طريق برزة ومَنِين، إلى جبل المناخ (القلمون)، فحمص، فحماة، فأنطاكية، فاللاذقية، فطرطوس، فجون عكار، فطرابلس الشام، إلى أن دخل لبنان.

(المُنْيَة)

.. في الرابع والعشرين من محرَّم، يوم السبت، سرنا من طرسوس[3] إلى طرابلس، فوصلنا **المنية** عند غروب الشمس.

قال «ياقوت الحموي» في «المشترك»[٤]: المُنْيَة، بضمّ الميم، وسكون النون، وياء مفتوحة، إثنان وأربعون[٥] موضعاً، جميعها بمصر، غير واحدة وهي مُنْية عجب في الأندلس، ووجدنا على هامش كتاب «المشترك» المذكور، بخط بعض العلماء زيادة مواضعَ سبعة تُسَمَّى بالمُنْية، منها واحدة في مصر، والستّة في بلاد المغرب. وكلّهم لم يذكروا مُنْية طبريّة التي بالقرب من بيت المقدس، وبها يتمّ الخمسون. ولم يذكروا هذه المُنْيَة (مُنْية طرابلس)[٦]، وبها يصير الجمع: واحداً وخمسين موضعاً.

فدخلنا إلى قرية كبيرة واسعة ذات بساتين ومياه جارية، وفيها محلّتان، محلّة سُفْلى ومحلّة عُلْيا في ذَيْل جبل هناك[٧]. وهذه القرية جميعها جارية في وقف السادة المصريين[٨]، المشهور عندنا في الشام، وواقفه هو الملك قايتباي[٩]. فسألنا عن مزار نبيّ الله يوشع عليه السلام، فأخبرونا أنّه في باب المحلّة العليا، فصعدنا إلى أن دخلنا إلى مزاره، فوجدنا الباب مفتوحاً، وهناك خُدّام له ساكنون عنده، فاستقبلونا وأنزلونا عندهم بالقرب من ذلك المزار، في قصر هناك له شبابيك مطلّة على البساتين، فدخلنا إلى قبر يوشع[١٠] عليه السلام، فإذا هو في داخل مغارة هناك في ذيل ذلك الجبل، وأُوقِدَت هناك القناديل والشموع، فوجدنا ذلك القبر طوله نحو العشرة أذرُع، وارتفاعه نحو الذراعين، وداخله فارغ، وله طاقات حوله، وعلى القبر أنبوب من حجر، ذكروا لنا أنه إذا قلّت المياه في هذه القرية يجري منه الماء بقدرة الله تعالى. ورأينا في القبر حجراً مكتوباً عليه:

«هذا قبر العبد الفقير الشيخ يوشع، عمّره السلطان الملك المقتفي[١١] الصالحي بطرابلس في سنة أربعٍ وثمانين وستماية».

فتعجّبنا من هذه الكتابة وقلنا: كيف اشتهر عند أهل تلك القرية وغيرهم بأنه قبر يوشع النّبيّ، وقد كُتب عليه ما يُفهم منه أنه قبر رجل من الأولياء المشايخ الصالحين[١٢]، حتى رأينا الشيخ الإمام «عليّ بن أبي بكر الهَرَويّ» ذكر في كتابه «الزيارات»[١٣] أنّ في مدينة المَعَرَّة من أعمال حماة قِبْليّ البلد في جانب سورها قبر يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام، والصحيح أن يوشع بأرض نابلس[١٤]. ورأيناه ذكر بعد ذلك أنّ في قرية عَوَرْتا في طريق القدس من نابلس مغارة فيها قبر يوشع بن نون عليه السلام[١٥].

وقد نَظَمْنا حين الزيارة، غبّ[١٦] الاستنارة:

لا يا نبيَّ اللّهِ يا يوشع ... يا مَن غدا في قومه يشفع
ويا ابن نون وفتًى من هو الكليم ... موسى قدره الأرفع
بقريةٍ قد سُمِّيَتْ مُنْيَةً ... لأنّها مُنْيَة مَن يخشع

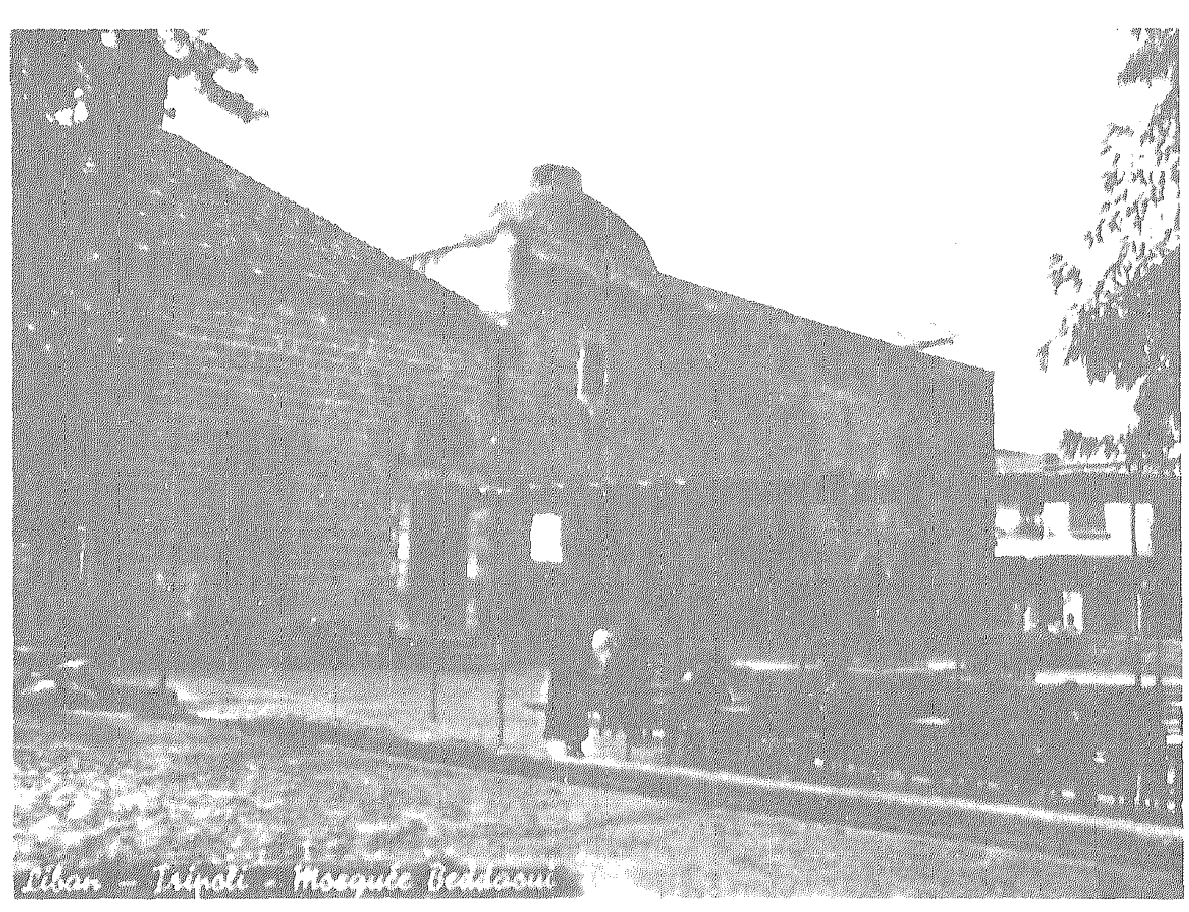
... وفيها قبر آخر يقال إنّه قبر عبده بلال، فزُرْناه... ثم بِتْنا في ذلك المكان على أتمّ الصَّفا والسرور، إلى أنْ طلع الصباح. وكان ذلك اليوم الأحد الخامس والعشرين من المحرَّم، فركبْنا وسرنا إلى جهة طرابلس.

(بِرْكة البدّاوي)

فمررْنا في الطريق على مكانٍ يُسمّى «بِرْكة البدّاوي»[١٧]، وهي بركة ماء كبيرة فيها أسماك كثيرة، وقد أُخبِرْنا أنّ سَمْكها لا يُصاد، وكلّ مَن صاده وأكل منه يمرض[١٨]، وذلك ببركة الشيخ البدّاوي المدفون هناك على حافة البركة في مَزارٍ له، وعليه قبّة عظيمة وشبابيك مطلّة على تلك البركة[١٩].

وقلنا في وصف ذلك المكان:

وبركة البدّاوي ... بمائها تُداوي
يسبح فيها سمك ... يصلح للتداوي
وهو كثير فيها ... لسرّها السماوي
مولاه قد حماه ... بعزّ شيخٍ ثاوي



□ جامع البداوي من بناء الأمير دمرداش وبركة السمك.

هناك في جامعه مقامه العلاوي
فإنّ من يصيده يمرض وهو الغاوي
وجرّبت مراراً جميع ذي الدعاوي
بها طرابلوس لجنّة تساوي[٢٠]

ثم إنّنا وجدنا قبالة تلك البركة جبلاً مرتفعاً عن الطريق، وعليه خيام الوزير المكرّم والمشير المفخّم، حضرة «علي باشا»[٢١] وهو يومئذٍ والي طرابلس المحروسة. وقد خرج من طرابلس وهو يريد قتال الطائفة الحمادية[٢٢]، فصارت جماعته وجنوده تنظر إلينا لمّا مررنا من ذلك المكان، فتوجّهنا إلى الاجتماع بحضرة ذلك الوزير قبل الدخول إلى طرابلس المحروسة، ودخلنا عليه فوجدناه في صيوانه العظيم، خلف تلك الستائر المحفوفة بالإجلال والتكريم. وقد قام فتلقّانا بالقبول والإقبال والاحترام والإجلال، وجلسنا عنده حصّة من الزمان نتحدّث معه بكمال المحبّة والإذعان. ووجدنا عنده رجالاً من الأروام المجاذيب، اسمه ابراهيم آغا[٢٣]، فجرت بيننا وبينه مكالمات إلهيّة وإشارات ربّانيّة، ثم إنّه بشّرنا بالحجّ الشريف قبل أن نتكلّم نحن بذلك. ثم إنّنا ذكرنا لحضرة الوزير المكرَّم أنّ مرادنا الحجّ في هذا العام، فتعجّب من مكاشفة ذلك المجذوب لنا بالقصد والمرام. ثم سألنا عن محلّ نزولنا في طرابلس المحروسة، فقلنا له: نحن الآن ما دخلنا إلى طرابلس، وليس لنا فيها منزل معيّن، فأمر بإنزالنا في السرايا[٢٤] نحن وجماعتنا في أيّ مكان شئنا منها. فأشار ذلك المجذوب إلى مكان فيها مرتفع، له شبابيك مطلّة يُرَى منها البحر وغيره، فاستحسن ذلك حضرة الوزير، وأمر أن

يذهب معنا جماعة إلى السرايا في داخل المدينة. فركبنا وتوجّهنا مع الإخوان، حتى مَرَرْنا في الطريق على مكانٍ ذكروا لنا أنّه دُفن فيه من أهل الصلاح رجل اسمه الشيخ عمر[٢٥]، وله كرامات وخوارق عادات مشهورة عندهم. فزرنا ذلك القبر وقرأنا له الفاتحة، ودَعَوْنا الله تعالى، ثم سرنا إلى أن دخلنا إلى مدينة طرابلس المحروسة.

(طرابلس الشام)

قال في «القاموس»[٢٦]: طرابُلُس بفتح الطاء وضمّ الباء واللّام، بلاد[٢٧] بالشام وبلاد[٢٧] بالمغرب، أو الشاميّة أَطْرابلس بالهمز، أو روميّة معناه ثلاث مدن (ا.هـ.)[٢٨]، يعني أنّها كلمة روميّة وليست بعربية.

وقال «ياقوت الحموي» في «المشترك»[٢٩]: أطرابلس موضعان (الأول) المدينة المشهورة على ساحل بحر الشام بين عكاء وأنطاكية، يُنسب إليها قوم من أهل العلم. (الثاني) أطرابلس مدينة في أول أرض إفريقية، يُنسَب إليها آخرون. وقد فرّق بعضهم بينهما فجعلوا التي بالشام بالهمز، والتي بالمغرب بغير همزة، إلّا أنّ «المتنبّي»[٣٠] خالف هذا، فقال يذكر الشاميّة:

....

وقصّرت كلّ مِصْرٍ عن طَرَابُلُس [٣١]

وقيل معنى طرابلس بالروميّة ثلاث مدن[٣٢].

وقد كان مفتي الحنيفية بطرابلس الشيخ الإمام، والحَبْر الهُمام، حسيب النسب، «هبة الله أفندي»[٣٣]، ولما بلغه وصولنا أرسل إلينا جماعة ليُنْزلنا عنده، فأخبرناهم أنّ حضرة الوزير المذكور أمر بنزولنا عنده في السرايا، واعتذرنا إليهم في ذلك.

ثم دخلنا المدينة فنزلنا في سرايا الوزير المذكور، وصعدنا إلى ذلك القصر الذي أشار إليه ذلك المجذوب، فوجدناه أحسن مكان في السرايا، فجلسنا هناك نحن ومن معنا من الإخوان. وعيّن لنا الوزير جميع ما نحتاج إليه مدّة إقامتنا عنده. ثم ورد علينا جماعات لأجل الزيارة من أهل البلاد، منهم الشيخ الفاضل أحمد ابن الشيخ خيرالدين[٣٤] إمام السرايا. فأنشدنا هذه الأبيات في مدح مدينة طرابلس الشام لبعضهم:

الشام في كلّ البسيطة عينها
لكن طرابلس هي الانسان

لم يجمعوا ما قد حواه ثغرها
ولرطَب لؤلؤ ثلجها لَمَعان

فالمرج والبحر الشهير ورملها
فيروزج وزبرجد مُرْجان[٣٥]

وأنشدَنا أيضاً لبعضهم:

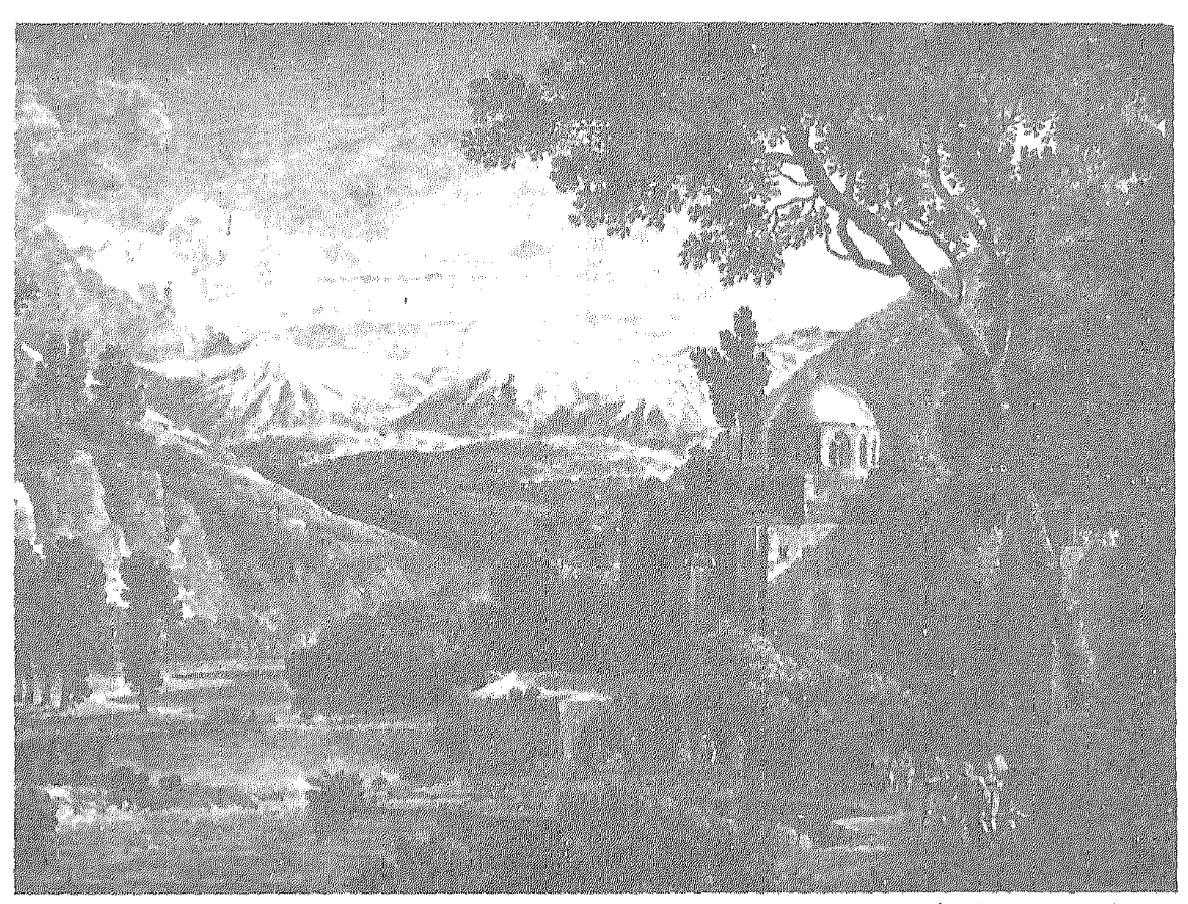
طرابلس الشام دَنَوْت منها
رأيت بها مقامَ الآمنينا

وقد صيغت محاسنها فجاءت
على التحرير كاملةً، يمينا[٣٦]

ثم زرنا قبر الشيخ محمد العجمي[٣٧].. وذهبنا إلى زاوية المَغَاربة[٣٨]، فزرنا بها قبر الشيخ عبدالواحد المغربي[٣٩]. ثم عدنا إلى المنزل فبتنا فيه.. حتى أصبح الصباح.. وكان ذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرَّم، فجلسنا في مكاننا.. فكان للناس علينا وُرُود وصُدُور... منهم السيد هبة الله أفندي مفتي الحنيفية فيها، فكان أوّل ما أنشدنا من لفظه هذا البيت، مخاطباً لنا به، ولعلّه تمثّل به:

سبقوك تاريخاً وأنت سبقتهم
فضلاً، فأنت السابق المسبوق

وكان والده المرحوم الشيخ.. السيد علي أفندي البصير[٤٠] مُفْتياً بالديار الطرابلسيّة، وقد أدركناه بالسّنّ ولم نجتمع به. وله: (نظم الدُرر والغُرَر) في فقه الحنيفية للمنلا خسرو بألفيْ بيت من بحر الرجْز، وله تصانيف أخرى... ومنهم الشيخ عبدالجليل الحنفي[٤١] المدرّس المعروف بابن الصّيّاد. ومنهم... الشيخ أحمد مفتي الشافعية[٤٢]... ومنهم الشيخ إبراهيم[٤٣] شيخ الخلوتية، وغيرهم من العلماء والأفاضل. وجرى بيننا وبينهم مسائل علميّة، ولطائف أدبيّة،



□ التكيّة المولوية ونهر ابو علي.

وأبحاث فقهيّة، إلى أنْ طال بنا ذلك المقام، وورد علينا الخاصّ والعام.

ثم بعد صلاة الظهر ذهبنا إلى زيارة قبرَيْ الأحمدَيْن[٤٤]: المغربي والرومي، فإنّ كلّ واحدٍ منهما اسمه أحمد، أمّا الأول فإنه كان عندنا أوّلاً في دمشق الشام، وجلس في الجامع الأموي سنين عديدة، وصدرت منه أحوال عجيبة، ثم ذهب إلى طرابلس... إلى أن مات بها. وأمّا الثاني فإنه كان من المجاذيب الصالحين، وكان من الأروام[٤٥]... وقد دُفِنا في مسجد هناك لطيف، ولهما خادم كان هو السبب في عمارة ذلك المكان، وهو رجل من الصالحين، وقد اجتمعنا به....

ثم ذهبنا إلى مسجد لطيف البناء[٤٦]، ظريف الفناء، فيه رواق مطلّ على نهرٍ جارٍ، فيه ماء سلسال عذْب رائق زُلال، يُسمَّى نهرَ الغُضْبان، وهو تارة ناقص وتارة ملآن. وذلك المسجد مكتَنَف بجسرين[٤٧] عاليين مبنيَّيْن بالحجارة، يدخل الداخل من كل جسر منهما في باب من أبواب المدينة إلى جهةٍ ذات عمارة. فقلنا في ذلك بلطيف الاشارة:

كنت بين الجسرين من فوق نهر
ماؤه العذْب كم له ظمآن
في رواق بمسجد نحن نرضى
أن نراه ونهره الغضبان

ثم عدنا إلى المنزل... إلى أن أسفر وجه ذلك الصباح، فأرسل يدعونا إلى منزله السيد «هبة الله» المفتي المتقدّم ذِكْره، فأرسلنا إليه على الارتجال... هذه القصيدة...، وهي قولنا:

سليل الأكرمين أولي المعالي
ومن فخرت به أهل الكمال

... الخ.

وذهبنا نحن وجماعتنا وبعض أهالي البلدة إلى جهة المينا بجانب البحر المالح، لأجل التنزّه

والتفرّج... ورأينا تلك الأبراج[٤٨] العالية التي على ذلك البحر الأخضر... ووجدنا هناك على يسارنا جبلاً ذكروا لنا أنّ اسمه جبل لبنان فيه مزار الأربعين[٤٩] من رجال الغيب، وفيه قبر مريم[٥٠]...

ثم بعد ذلك توجّهنا إلى جهة زاوية المولوية[٥١]، وهي قريبة من البلاد. فمررنا في الطريق على تربة الغرباء، وقد دُفن فيها العلاّمة الشيخ محمد المشهور بابن عبدالحق[٥٢]...

ثم مررنا في السوق على مزار... رجل من الصالحين يقال له شيخ عزّالدين[٥٣]. حتى وصلنا إلى تكيّة المولوية. وأقبلنا على ذلك الوادي السعيد والمروج النديّة، فإذا هو جنّة للأبصار، ونزهة للنُظّار، فجلسنا في مقعدٍ عالي، يطلع في كل زهرة في سمائه كوكب متلالي. وفي ذلك المقعد بركة من الماء لطيفة، وحول الأشجار عرائش الأعناب به مُطيفة، يجري إليها الماء من نهر هناك عالي في ذلك الجبل، يمرّ في الجهة العالية في تلك التكيّة. وفي أسفل الوادي خمسة أنهار جارية بين البساتين كسبائك الفضّة النقيّة.

وفي ذلك الوادي طواحين[٥٤] على تلك الأنهار دائرة، كأنّ قلوبها نُقَطٌ وهي عليه دائرة. حتى استقرّ بنا مجلس الإيناس، وقُدّمت لنا الضيافة....

ثم لما دخلَ وقت الزوال.. أجبنا دعوة أخينا السيد هبة الله.. وجلسنا في «قصر الرضى» المُطِلّ على نهر الغضبان، وطالعْنا في جملةٍ من كتبه اللطيفة، كطبقات الإمام الشعراني، وكتاب «الرياض النَّضِرَة في فضائل العشرة» للمحبّ الطبري، وشرح «البُرْدَة» للشيخ محمد ابن شيخ رضيّ الدين يوسف بن أبي اللُّطْف المقدسي، فإنّه شرح كبير عظيم. وشرح الإمام القُشَيْري لشيخ الاسلام القاضي زكريّا.

وحضر هناك عندنا جماعة من الفُضَلاء الكرام النبلاء، وجرى بيننا وبينهم أبحاث علمية، ومسائل فقهيّة، واصطلاحات حديثيّة، ومطارحات أدبية، ومساجلات شعرية.

ثم انقضى ذلك المجلس بالأنس التام، و... حتى أصبح الصباح، ذهبنا إلى الجامع الكبير[٥٥]، فطلب منّا الجماعة الحاضرون من طلبة العلم أن نقرأ لهم في ذلك الجامع شيئاً من أنواع الحديث النبويّ. وكان مع بعض جماعتنا كتابنا الذي سمّيناه «كنز حقّ المبين في أحاديث سيّد المرسلين»، فقُرىء علينا حصّة من أحاديثه، وتكلّمنا على ذلك بحسب الوقت. وقد حَضَرَنا جماعةٌ من أهل الفضل وغيرهم. ثم عقيب ذلك دعانا إلى داره... عبدالله[٥٦] أفندي، النائب عن قاضي القُضاة في بلدة طرابلس المحروسة، وهو من أعيان أكابر تلك البلاد، وشهرته بينهم بابن الصيّاد. فذهبنا نحن وجماعتنا إلى داره المعمورة، وفُزنا بمجالسة أخيه الشيخ «عبدالجليل». وحضر عندنا هناك جماعة من العلماء الأفاضل، وجرت بيننا وبينهم أبحاث علمية، ولطائف المسائل. ومكثنا عنده إلى وقت الظهر، ثم عدنا إلى منزلنا، حتى كان وقت العشيّ، فدخلت في السرايا إلى مكان لطيف، ومقعدٍ مُنيف، مُطِلّ على تلك النواحي والأطراف، ومحفوف بأنواع المهابة والألطاف. وكان مُعَدّاً لجلوس حضرة الباشا المكرّم، والوزير المعظّم، علي باشا. فقلنا في ذلك متعرّضين للإشارة إلى ما هنالك:

مجلس للّقا والائتلاف
قد علا مشرفاً على الأطراف
تحت عزّ معلّق بالثُّرَيّا
حملته العُلَى على الأكتاف
وعليه غمامة من وقار
وقد أظلَّتْه من هجير يوافي
... الخ.

ثم بتنا تلك الليلة، إلى أن أخمد الفجر أنفاس النّبراس. وكان ذلك اليوم الجمعة يوم الثلاثين غُرَّة صفر المبارك. فجلسنا في منزلنا المعلوم، فحضر عندنا جماعات من أهل الخصوص والعموم، حتى جِيء إلينا في ذلك الصباح بياسَمين أصفر، وياسَمين أحمر، وياسَمين بعض ورقه أحمر، والبعض أصفر، وهو في عِرْقٍ واحدٍ، وله رائحة زكيّة، ونفحة مسكيّة. وهذا النّوع من

الزهر يُسمّى في بلادنا بالشابّ الظريف.

ولنا في ذلك قولنا ارتجالاً:

ويــاســمــيــن أصــفــر
يــزهــو كــلَوْن الذَّهــبِ
وأحـمـر مـتَّـقِـد
كـالنّـار ذات اللَّهـبِ
وآخـر قـال لنـا
وذا مـن اللّون هـبـي
يـا حُسْنهـا من زهـرات
فـي اللّبـاس المـذهـبِ
مُـسْـتَـوْقِـفـاتٍ مـن رأى
عـن حسنهـا لم يـذهـبِ
يـقـول مَـن يَـشْـتَـمُّـهـا
شـمُّ الزهـور مـذهـبـي

ويوم السبت الحادي والثلاثون، وهو الثاني من صفر، فذهبنا إلى قلعة تلك البلاد مع جماعة من الإخوان، ورأينا على حاجب وجه ذلك الباب هذين البيتين، وهما قول بعضهم:

يا قلْعة حازت لا علـى مـنـظر
ما في البلاد جميعها لك ثانيـة
مَن حلّ فيك جاءه[٥٧] كلّ الهنـا
فالله يُعْطي ساكنيك العـافية[٥٨]

ثم دخلنا إلى داخل القلعة، وقد أقلعنا عن المُساءة والهموم أكمل قلعه. وتفرّجنا على الحمّام الذي هنـاك[٥٩]. ودخلنـا إلى ذلك الجامـع[٦٠]. ثم خرجنـا فقصدنـا التّكيّـة المولوية[٦١]، ومررنا على تلك المرجة الخضراء البهيّة. وزُرْنا مقام الخَضِر عليه السلام[٦٢]، ثم عطفنا على الروضة الغنّاء ذات الغصن النَّضِر، وجلسنا في وادي الزهور. وكان دعانا إلى ذلك المكان صديقنا حضرة الحاج نورالدين بشّه[٦٣]. فانطلق بلبل القريحة يتغنّى بهذه الأبيات، وهي قولنا:

ومـرجـة تجـري بهـا الأنـهـار
كـأنّـهـا الربـق والمـنـشـار
طلّت علـيـهـا قـلـعـة عـظـيـمـة
حـصـارهـا ليس له انحـصـار
والجـبـلان اكتـنـفـاهـا وهـمـا
تكـاد منهمـا تـضـي الأحـجـار
والمـاء عـذْبٌ رائـق مسلسـل
بـيـن الرُّبَـى لأنّـه هـدّار
بهـا النّسـيم لا يـزال ساريـاً
تميـل من خمـرتـه الأشـجـار
كـأنّـنـا في ربـق الشـام بهـا
وبـيـنـنـا كـأس الهنـا يُـدار
وادي الزهـور حبّـذا يـومٌ بـه
قـد أشـرقت مـا بيننـا الأنـوار
كـيـف و «نـور الديـن» كـان
داعيـاً بنا إليـه فـانقضت أوتـار

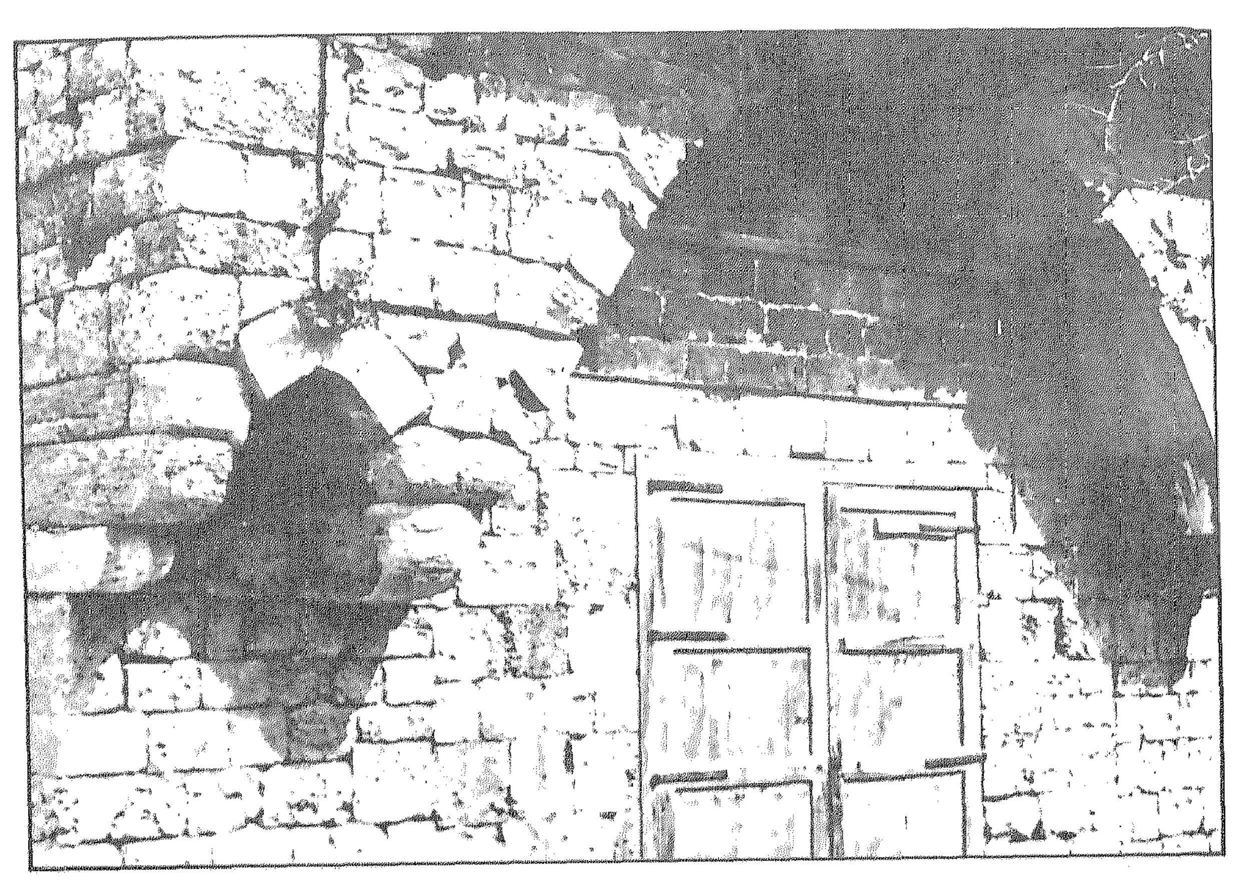
... الخ.

ثم ذهبنا إلى القناطر[٦٤] التي هناك، وهي بعيدة عن البلاد مقدار نصف ساعة، فرأيناها قناطر عظيمة عالية، وهي بين تلك الرياض ذات القطوف الدانية، متّصلة من الجبل إلى الجبل، يجري فيها الواصل إلى بلاد طرابلس الشافية من الخَبَل. وهي سبع قناطر يمشي عليها بعض الناس، فتسُرُّ الناظر والخاطر. وقد أنشدنا في ذلك العهد:

سقى الله عهـداً بالقنـاطر وافيـاً
طرابلس أهدت [به] الودّ صـافيا
فيا حبّذا مـاء جرى فـوقها وقـد
حـكـى دُرراً مـنـثـورة ولآليـا
بمرجٍ زَهَت منه الجوانب أخضر
ونهر كسيف صار بـالنبْت حاليـا
جلسنـا كما شـاء الإله بمجلسٍ
هناك عن الأكدار قدْ كان خـاليا
وهبّت نُسَيْمـاتٌ علينـا عشـيّـةٌ
فـأنعشت الأرواح تهدي الغـواليا
فللّه ذاك العهد ما كان في الربـى
الذّ وأهنـا منه مـا كـان بـاقيـا
قطعنا به زهر المنى من غصونه
ولا تقطف الأذواق إلّا الأمـانيـا

وقال الإمام الشيخ «حسن البوريني»[٦٥] في رحلته الطرابلسية.

«تأمّلت في المدينة المذكورة، فرأيتها في



□ البترون القديمة.

سفح جبل من جانب القلعة، لكنّها ممتدّة من وسط الجبل إلى التلّ الأحمر(٦٦) الذي هو آخر المدينة، وأوّل المرج الأخضر. والقلعة مرتفعة فوق المدينة تُشرف عليها وتنظر إليها. وهنا مياه معتلية على قناطر من أماكن بعيدة مرتفعة، وهي قناطر بناها البرنس، وهو ملك من ملوك النصارى، كان ملكاً في ولاية طرابلس، فجلب إليها الماء على القناطر العظيمة، وهي عالية، فلذلك تجد غالب أبنية طرابلس مشتملة على الماء ولو كانت عالية، رأيت في طبقتين سُلَّمَيْن عاليين وفوقهما الماء الجاري..». انتهى.

ثم عدنا إلى مكاننا، ومررنا في الطريق على مدرسة بناها بعض المتقدّمين من الأمجاد، وقد دُفن فيها ولدان للملك الظاهر(٦٧)، أحدهما سلامش، والآخر سعيد.

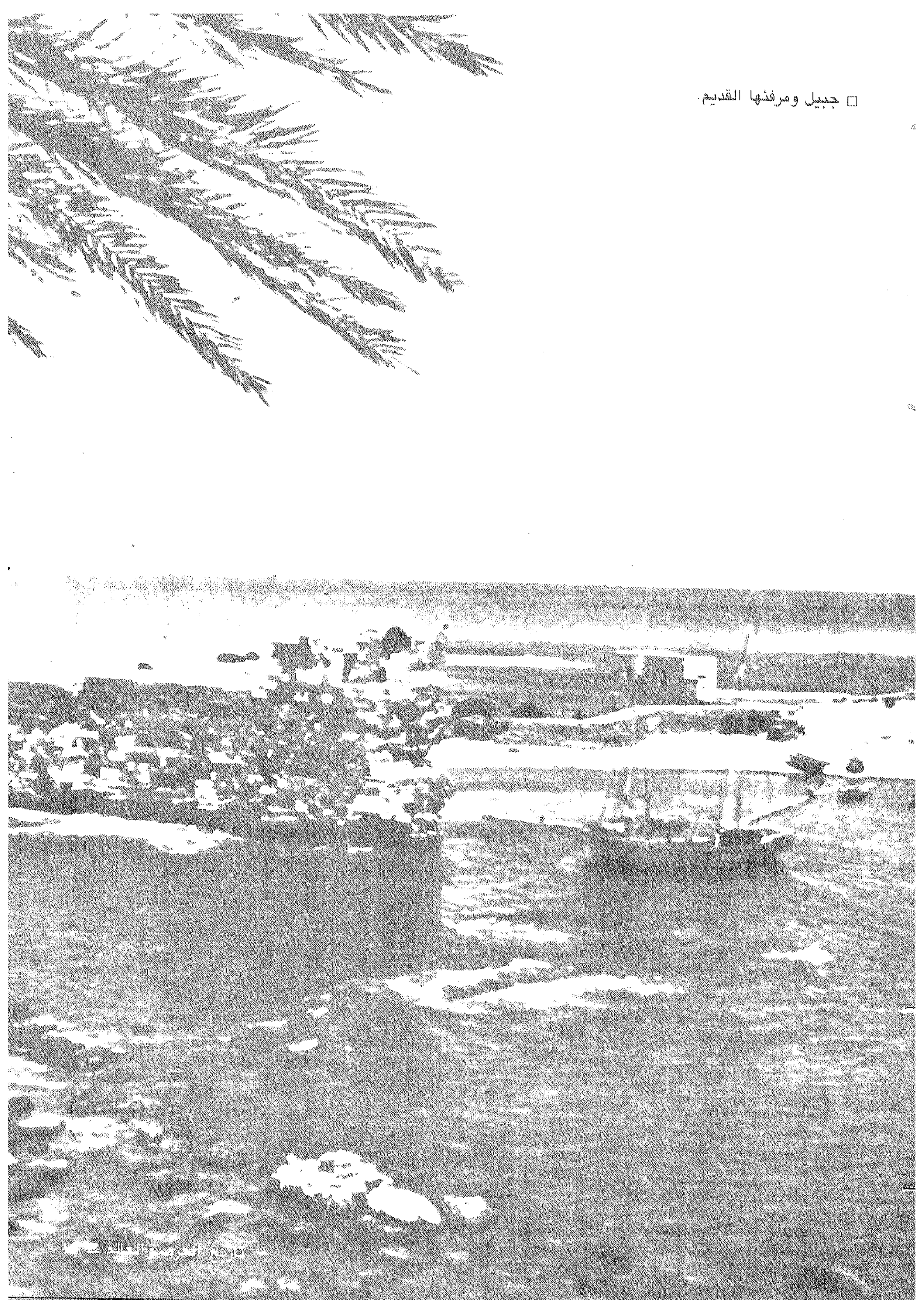
وبتْنا تلك الليلة إلى أنْ أصبح الصباح، وكان ذلك اليوم الأحد الثاني والثلاثين، وهو اليوم الثالث من صفر، فذهبنا إلى وداع حضرة الوزير علي باشا... فوصلنا إلى بركة البَدّاوي المتقدّم ذِكرها، واجتمعنا به هناك على حالةٍ يطيب نشرها، ثم جئنا إلى المنزل، وعَزَمنا على المسير من طرابلس المحروسة، فودّعْنا الجماعة والأصحاب، ثم ذهبنا في الطريق، وقد ذهب معنا لوداعنا من أهل البلاد كل رفيق.

(القَلَمون)

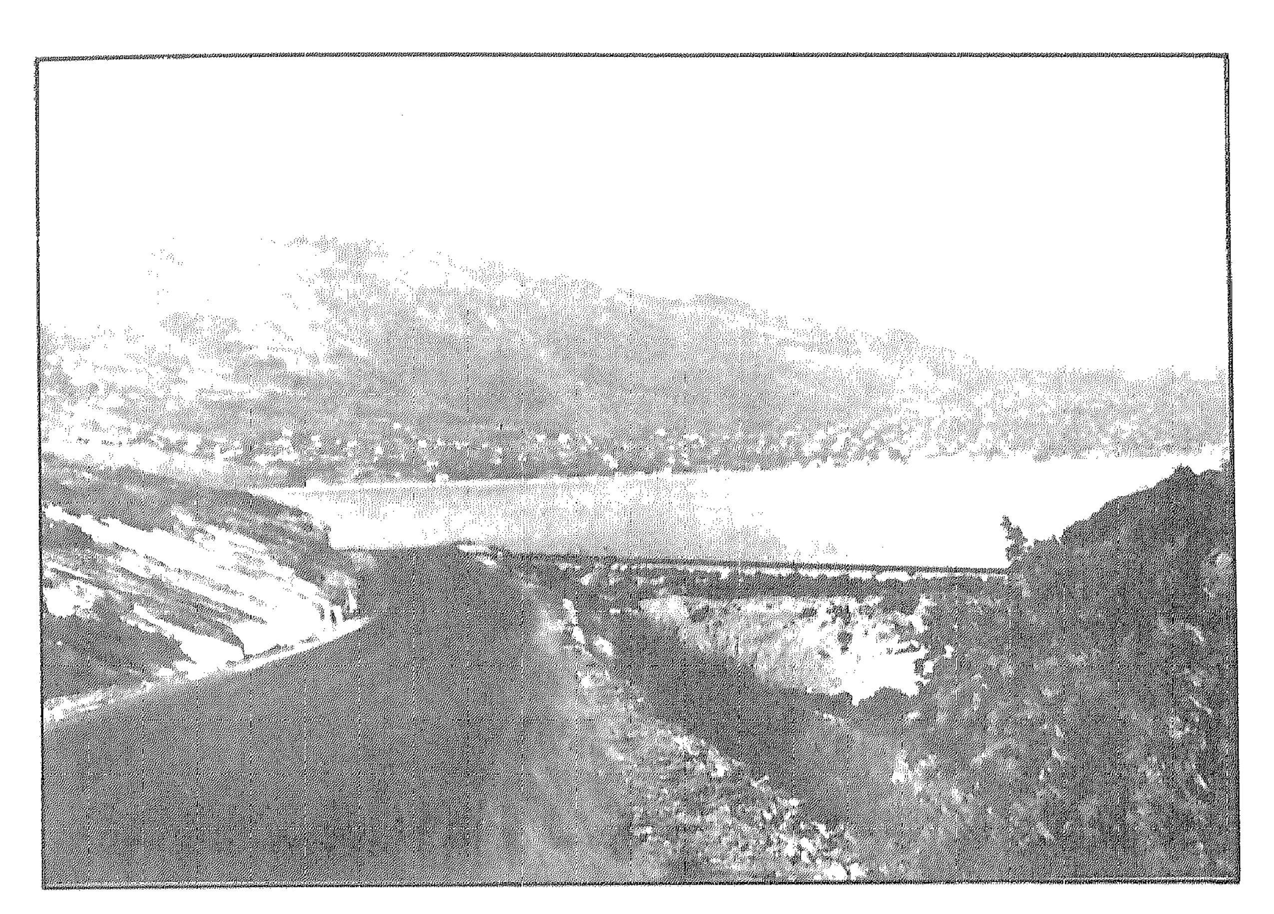
ثم لم نزل سائرين، إلى أن وصلنا إلى القلمون(٦٨)، فبتنا في القلمون ليلة، وذلك في الثالث من شهر صفر سنة ١١٠٥.

(البترون)

وفي صباح اليوم التالي، الإثنين، سرنا ووصلنا وقت الظهر البترون، بلدة على الساحل، كان فيها قلعة، وهي الآن خراب متهدمة البيوت والجدران.



□ جبيل ومرفئها القديم



□ الطريق الساحلي الذي يصل بين بيروت وطرابلس.

(جُبَيْـــل)

ثم ركبنا وسرنا إلى أن وصلنا إلى قلعة جُبَيل (مصغّرة)، وهي بلاد صغيرة ذات قلعة على ساحل البحر.

قال ياقوت في كتابه «المشترك»[٦٩]: «جُبَيل، بالتصغير» ستّة مواضع ذكرهـا، وذكر منهـا: جُبَيل: بلد من سواحل دمشق شرقي[٧٠] بيروت. (انتهى). فبتنا تلك الليلة هناك، عند باب القلعة في مقعـد لطيف، ومجلس منيف. حتى أسفر صباح يوم الثلاثاء، وهو اليوم الرابع والثلاثون خامس صفر. فركبنا وسرنا على بركة الله إلى جهة بيروت المحروسة.

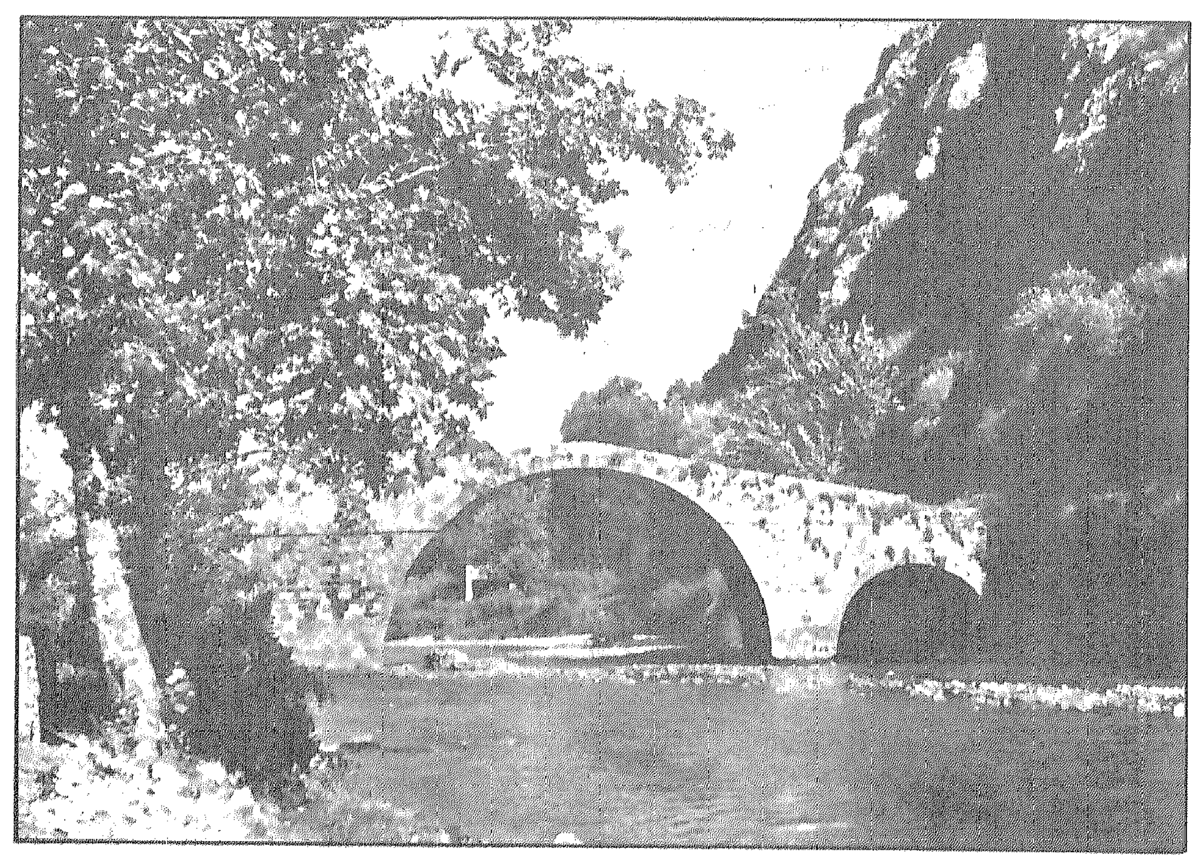
(نهر الكلب)

فمررنا في الطريق على نهر يُسمَّى نهر الكلب بين جبلين، كلّ منهما مرتفع سحيق، وهو نهر عظيم، وماؤه حُلْوٌ زُلال شفا للسقيم، يصبّ في البحر المالح، فيقابل وجهه البشوش ذلك الوجه المـالح. وعليـه جسـر متين[٧١]، بقنـاطر من الحجـارة اللطيفة التكـوين، وإنّما سُمّي بنهـر الكلب لأنّ الفرنج في الزمان الأول صوّروا هناك صورة كلب كبير من الحجر، وجعلوا فيه رصداً إذا جاء العدوّ ينبح عليه، فيسمعون ذلك النباح، فيتأهّبون لحرب العدوّ بأنواع السـلاح. فجاء بعض الناس فكسره وألقاه في ذلك النهر، فسُمّي بذلك نهر الكلب

قال ياقوت الحموي في «المشترك»[٧٢]: «نهر الكلْب، بسكون اللّام ــ كذا ضبطه الحازمي ــ بين بيـروت وصيداء من سـواحـل الشـام». (انتهى).

فنزلنا في القرب من ذلك النهر قُبَيل وقت الظهر، بحيث ننظر إلى دخول ذلك النهر في البحر.

ثم ركبنا وصعِدنا من تلك العَقَبَة الصَّعْبـة



□ نهر الكلب الجسر العربي.

الكؤود. وبذلْنا في التَّوَقّي من السقوط غاية المجهود، إلى أن زرنا مقام الخضِر(٧٣) عليه السلام، بالقرب من ذلك المكان، ومررنا على قبر أمّ حَرام(٧٤) ــ رضي الله عنها ــ وهي مدفونة في مقبرة بيروت. وقيل: هي مدفونة بجزيرة قبرس. والله أعلم.

وهي أمّ حرام بنت ملحان الأنصارية الصحابية خالة أَنَس بن مالك، ويقال لها «القُبَيْصاء»، وقيل «الرُميصاء». واسم ملحان: مالك بن خالد بن زيد بن حرام بن جُندب بن عامر بن غَنْم بن عَدِيّ بن النَّجّار. وحديثها في الصحيحين، وأبي داود، والنَّسائيّ، وابن ماجه.

فوقفنا هناك، ودَعَوْنا الله تعالى، وقرأنا لها الفاتحة. ●

الهوامش

(١) طلبت الاطّلاع عليها عدّة مرات أثناء دراستي في القاهرة في الستينات، وفي كل مرة كان الجواب أنها غير موجودة!

(٢) انظر العدد الخامس من السنة السادسة (١٩٢٣) من مجلّة «المعارف»، وما بعده. وبهذه المناسبة أشكر السيد سالم الزيني (الطرابلسيّ) الذي أطلعني على الأعداد التي نُشر هذا النصّ فيها.

(٣) هكذا، والصحيح «طرطوس»، وهي مدينة معروفة بساحل الشام (سورية).

(٤) هو كتاب «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» ــ نشره «غوتنغن» (١٨٤٦). انظر صفحة ٤٠٧ ــ ٤٠٩.

(٥) في المطبوع من «المشترك» ص ٤٠٧ «ثلاثة وأربعون موضعاً».

(٦) تبعد المنية نحو عشر كيلومترات من طرابلس شمالاً على ساحل البحر، وهي الآن بلدة كبيرة، تنتشر عمارتها بين البساتين في مساحة واسعة، ويقطنها نحو ثلاثين الف نسمة، أكثريّتهم من المسلمين. ولم يكن لهذه البلدة أيّ ذكر في التاريخ، ويبدأ ذِكرها اعتباراً من عصر المماليك حيث كانت في معظمها مجرّد بساتين موقوفة لجهة الحرمين

الشريفين في مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وليس فيها من البناء إلّا النذر اليسير. أمّا اسمها فهو عربيّ خالص، من «المُنَى» و «الأمنية»، فقد كانت بساتينها وحقولها الخضراء وثمارها المختلفة تُعتبر متنزّهاً لأهل طرابلس، وكانت أمنية الواحد منهم أن يكون له مُقام فيها، ولهذا أُطلِق عليها اسم «المُنْيَة»، ولا يُعْتَدّ بكل التفسيرات والاجتهادات التي تَجْهد في البحث عن الجذْر السرياني لهذا الاسم العربيّ الواضح.

(٧) هو جبل «تُرْبُل» المشرف عليها من جهة الشرق.

(٨) تؤكّد سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس هذه الحقيقة، ولا يزال قسم كبير من هذه الأوقاف حتى الآن لجهة الحرمين الشريفين.

(٩) هو سلطان دولة المماليك (٨٧٢ ــ ٩٠١هـ. / ١٤٦٧ ــ ١٤٩٦م.)، ويُرجّح أنّه وقف ذلك الوقف أثناء رحلته إلى طرابلس سنة ٨٨٢هـ./ ١٤٧٧م. وقد دخل المنية وهو في طريقه إلى بلاد الشام الشمالية. انظر رحلته المعروفة بـ «القول المستَظْرَف في سفر مولانا الملك الأشرف»، التي كتبها «ابن الجيعان»، وقمت بتحقيقها ونشرها ــ طبعة جرّوس برسّ ــ طرابلس ١٩٨٤.

(١٠) لا يزال هذا القبر مشهوراً في البلدة حتى الآن على أنه للنبيّ يوشع عليه السلام.

(١١) لعلّ في هذا الاسم تصحيف أو تحريف، فالسلطان المقصود حسب تاريخ الكتابة هو المنصور قلاوون وليس في ألقابه «المقتفي»، والتاريخ المدوَّن في القبر هو سنة ٦٨٤هـ./ ١٢٨٥م. أي قبل فتح طرابلس وتحريرها من الصليبيين بأربعة أعوام (٦٨٨هـ./ ١٢٨٩م.)، مما يؤكّد أنّ ضواحي المدينة وأرياضها كانت في حوزة المسلمين المماليك.

(١٢) لقد سبق أن أبدى السائح «برخارد» تعجّباً مماثلاً لتعجّب النابلسي قبل نحو أربعة قرون ونيّف، حيث زار القبر في سنة ٦٥١هـ./ ١٢٥٣م. فقال: «على بُعد فرسخين من طرابلس يوجد جبل الفُهود أو تُرْبُل المستدير في شكله والمعتدل في ارتفاعه على مسافة فرسخ من جبل لبنان، رأيت عند أسفله في ناحية الشمال كهفاً فيه معبد طوله ١٢ قدماً يأمُّه الشرقيون. وهم يقولون بأنّه قبر يوشع النبيّ، والذي لا أصدّق خبره أبداً، لأنّ سِفْر القُضاة في الفقرة الثانية والتاسعة يقول بأنّ يوشع دُفن في «تناث صار» التي تقع بالقرب من شِشم (أو سكيم) على سفح جبل افرايم. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ هذا القبر هو قبر كنعان بن حام بن نوح أو أحد من أبنائه الذين تبرهن الكتابات على أنهم عاشوا في تلك النواحي...». انظر

Burchard of Mount Sion II. 18-23 – 9 ed J.C.M. Laurent Peregrinatores medu aevi quatuor, Leipzig 1864. (Vicinity of Tripolis, A.D. 1253).

وانظر رحلته إلى طرابلس ونواحيها في كتابنا: «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ــ الجزء الأول ــ الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. (بيروت، طرابلس) مؤسّسة الرسالة ودار الإيمان ــ (ملحق رقم ٥ ــ ص ٦١٢ ــ ٦١٤).

(١٣) هو كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات» للهروي المتوفّى بحلب سنة ٦١١هـ./ ١٢١٥هـ. وقد حقّقته ونشرته جانين سورديل ــ طومين (دمشق ١٩٥٣).

(١٤) انظر: الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٧.

(١٥) انظر ص ٢٤ من المصدر نفسه.

(١٦) غبّ: كلمة شاع استعمالها في العصر العثماني بمعنى: فَوْر، أو بعد كذا مباشرة.

(١٧) ورد ذِكر هذه البركة باسم «بركة داوية» في كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسخاوي ــ ج ٢١٩/٣، ويظهر أنّ الماء الذي كان يصبّ في البركة يُحْدِث دَوِيّاً، فقيل لها «بركة داوية». وقد ذهب المؤرّخون المحدثون مذاهب شتّى في تفسير «البداوي»، وأصل هذه التسمية، فقيل هي تحريف لكلمة «بودوان» الملك، أو «دي بويّون» وهو اسم الكونت «غودفري» أحد قادة الحروب الصليبية، وقيل إنها من «البدوي»، وقيل غير ذلك. انظر مقالة للأب «جان موريس فيبه» رئيس قسم التاريخ في جامعة القدّيس يوسف (بيروت) بعنوان:

Un site près de Tripoli — Baddawi, Mélanges Allard — Nwiya — Beyrouth 1982.

وانظر له أيضاً مقالة بعنوان: «معبد الشهيد القدّيس ليونتيوس في طرابلس» نُشر في مجلّة «النور» ــ العدد الثاني (حزيران ١٩٨٣) ــ بيروت ــ ترجمة يوسف حجّار ــ ص ٤٥.

وانظر عن البركة وسمكها كتاب: «مشاهدات في لبنان» المأخوذ عن «سوريا اليوم» للويس لورته ــ تعريب كرم البستاني (بيروت ١٩٥١) ــ ص ٢٣، وكتاب «لبنان حضارة وجمال» لجوزف صدقي (بيروت ١٩٥٩) ــ ص ١٣١ و ١٣٢.

(١٨) سبقه إلى هذا القول «ابن أبـي الصفا المعروف بابن محاسن الدمشقي» في رحلته «المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية» التي حقّقها الدكتور محمد عدنان البخيت (بيروت ١٩٨١) ـــ ص ٥٩ حيث قال: «.. ثم سرنا وإلى بركة البدّاوي وصلنا، وهي بركة من عين ماء نابعة مملوءة من الأسماك التي على طول الزمان متناسلة متتابعة، إلّا أنها مانعة للاصطياد منها لأنّه قد جُرّب أن من اصطاد منها ولو سمكة وقع في مرض الحُمَّى وصار في هلكة».

(١٩) يقصد بذلك «زاوية الدمرداش» المعروفة الآن بجامع البدّاوي، وقد بناها الأمير «دمرداش المحمّدي الظاهري المعروف بالخاصّكي» الذي تولّى نيابة السلطنة بطرابلس مرّتين (٧٩٥ ـــ ٧٩٦هـ.)، و (٨٠٤ ـــ ٨٠٦هـ.)، حيث قيل: «إنّ زاويته بطرابلس على بركة داوية». انظر: الضوء اللامع للسخاوي ٣/٢١٩، وكتابنا: «تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك»، ص ٣٣٨ و ٣٣٩ (طرابلس ١٩٧٤)، وكتابنا: «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور» الجزء الثاني ـــ ص ٤٤ و ٤٥ رقم ٧٣ و ٨١ (بيروت ١٩٨١).

(٢٠) كانت بركة البدّاوي تُعتبر من أشهر المتنزّهات التي يقصدها الطرابلسيّون، وهي على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات شمالاً، وممّا يؤسف له أنّ السمك الأسطوريّ الذي كان يعجّ في البركة قد مات وانقرض منذ سنة ١٩٧٤ وأحدث ضجّة إعلاميّة في ذلك الوقت. ومياه البركة تصل من البحر عبر قناة وسط البساتين.

(٢١) هو «علي باشا اللّقّيس»، تولّى على طرابلس (١٦٩٢ ـــ ١٦٩٣) ثم نُقل إلى استامبول حيث عيّنه السلطان وزيراً (صدراً أعظم) عنده. (انظر تاريخ الأزمنة للدويهي ـــ ص ٣٧٩) وكان قبله على ولاية طرابلس «أرسلان باشا المطرجي» وعُزل في شهر رجب (١١٠٥هـ./ ١٦٩٢م.) ثم أعيد بعض ان انتقل اللّقّيس إلى الوزارة. (انظر: تاريخ حمص ـــ الجزء الثاني ـــ ص ٣٢٨ و ٣٢٩).

(٢٢) يعود احتكاك وُلاة طرابلس وأمرائها بآل حمادة إلى عهد دولة المماليك، ويبدأ التاريخ المدوّن للعلاقات بين الطرفين منذ سنة ٨٧١هـ./ ١٤٦٦م. (انظر كتاباً في التاريخ مجهول المؤلّف ـــ مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٦٣١ تاريخ ـــ ورقة ٦١ و ٦٣).

(٢٣)

(٢٤) كذا، والصحيح «السراي»، وكانت قديماً بقرب قلعة طرابلس.

(٢٥) يقصد المدرسة المعروفة بمدرسة القاضي عمر في سوق القمح، القريبة من بوّابة اللّبّانة، وقد تهدّمت هذه المدرسة خلال الأحداث في سنة ١٩٨٤ وكان عندها سبيل ماء فوقه لوحة عليها أربعة أبيات شِعر تؤرّخ لبنائه في ٣ رجب سنة ١٢٦٤هـ. وتقول الحكايات المحلّية أنّ القاضي كان وليّاً صالحاً، يزور الناس قبره في كل أول سبت من شهر رجب، ويصومون، ويقولون عنه أنه «قاضي الحاجات». (عن دفتر مخطوط جمعت فيه سماعات عن والدي رحمه الله).

(٢٦) هو كتاب «القاموس المحيط» للفيروزأبادي.

(٢٧) هكذا في الموضعين، والأصحّ «بلد».

(٢٨) انظر الجزء الثاني ـــ ص ٢٢٦ من القاموس المحيط.

(٢٩) انظر (ص ٢٥) من المشترك وضعاً والمفترق صقعاً.

(٣٠) الشاعر المشهور «أبو الطيّب أحمد بن الحسين الكوفي المتنبّي، صاحب الديوان. وُلد بالكوفة سنة ٣٠٦هـ. ودخل طرابلس مرتين، بين سنتي (٣٢٥ ـــ ٣٣٠هـ.) وفي سنة ٣٣٦هـ. وقُتل في سنة ٣٥٤هـ.

(٣١) هذا الشطر أوّله: «أكارمُ حسد الأرضَ السماءُ بهِمْ»، وهو من قصيدة أنشدها في طرابلس وهو في صباه (بين سنتي ٣٢٥ ـــ ٣٣٠هـ.) يمدح «عُبيدالله بن خراسان الطرابلسي» مطلعها:

أَظَبْيَةَ الوحش لولا ظَبْيةُ الأَنَسِ لَمَا غَدَوْتُ بِجَدٍّ في الهوى تَعِسِ

(انظر الديوان بتحقيق د. عبدالوهاب عزّام ـــ ص ١٦ ـــ طبعة القاهرة ١٩٤٤) ولنا: معجم الشعراء والأدباء في تاريخ لبنان ـــ مخطوط ـــ ترجمة المتنبّي ـــ فيمن اسمه «أحمد».

(٣٢) انظر دراستنا المفصّلة عن «اسم طرابلس وتطوّره» في كتابنا «تاريخ طرابلس» ـــ الجزء الأول ـــ الطبعة الثانية ـــ ص ٢٥ ـــ ٣٥.

(٣٣) هو «هبة الله بن علي البصير الحموي الطرابلسي»، اجتمع به النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس سنة ١١١٢هـ./ ١٧٠٠م. ووصفه بالعلّامة والبحر الفهّامة، وذكر من مؤلّفاته «بحور العين نظم الدرر والغُرَر في فقه الحنفية». (التحفة النابلسية ـــ ص ٥٢ و ٥٣ و ٥٩ و ٦١ ـــ ٦٨ و ٨٨) وله أيضاً: «بُغية الأريب بشرح حديث تحبيب النساء والطيب». (انظر: فهرست مخطوطات المصطلح أو الحديث الشريف ـــ الخزانة

التيمورية بدار الكتب المصرية ـــ الجزء الأول)، وانظر عنه كتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ـ القسم الثالث ـــ الجزء ١٦ ـــ رقم الترجمة ١٥١٨).

(٣٤) لم أقف على ترجمة له.

(٣٥) ورد البيتان الأوّلان في كتاب «المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية» لابن أبي الصفا المعروف بابن محاسن الدمشقي ـــ ص ٩٣، باختلاف بعض الألفاظ عمّا هنا. ولم يذكر اسم قائل الشعر أيضاً.
وفي هذا المعنى نَظَم حكمت شريف يكن في «تاريخ طرابلس» له، هذين البيتين:

طرابلس الفيحاء شامة قُطْرنا	مدى الدهر في خدّ البلاد غدت شامه
وجِلّقُ لمّا شبّهوها بعينها	فإنسانها كانت طرابلس شامه

(٣٦) لم أقف على قائل هذين البيتين.

(٣٧) يرد ذِكْر «مَزار وليّ الله السيد محمد العجمي قدّس الله سرّه العزيز» في سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس لسنة ١١٦٥هـ.، والمزار أو القبر داخل المدرسة المعروفة حتى الآن بالعجمية في محلّة المهاترة، وهي من بناء «محمد الطرابلسي المعروف بالسُكَّر» في سنة ٧٦٦هـ./ ١٣٦٥م. (انظر عنها كتابنا: تاريخ وآثار مساجد ومدارس في عصر المماليك ـــ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ ـــ طرابلس ١٩٧٤).

(٣٨) يقصد الجامع المعروف الآن بجامع السيد عبدالواحد المكناسي الذي بناه سنة ٧٠٥هـ./ ١٣٠٦م. وبجواره رواق يسكنه المغاربة حتى الآن. (انظر عن الجامع كتابنا: تاريخ وآثار.. ـــ ص ١٥٥ ـــ ١٥٨).

(٣٩) القبر المذكور لعبدالسلام المغربي المشيشي، وليس للشيخ عبدالواحد كما يقول النابلسي، إذ توفي عبدالواحد في صعيد مصر بعد سنة ٧٢٦هـ./ ١٣٢٦م. حيث رآه هناك ابن بطوطة في رحلته. (انظر مهذّب الرحلة ـــ ص ٥٢، وكتابنا: تاريخ وآثار ـــ ص ١٥٦).

(٤٠) قال عنه المُحِبّي: كان آية باهرة في الحفظ والإتقان. وُلد بحماه وقرأ بها، ثم رحل إلى طرابلس وعمره أربعون سنة وتوطّنها، وولي الإفتاء بها حتى توفي سنة ١٠٩٠هـ. ودُفن بجبّانة الغرباء ظاهر طرابلس. أي قبل زيارة النابلسي لطرابلس بنحو (١٥) عاماً. (انظر عنه: خلاصة الأثر للمحبّي ٣/٢٠١ و ٢٠٢، التحفة النابلسية ـــ ص ٥٢ و ٦٠ و ٦٣ و ٦٤، سجّل المحكمة الشرعية بطرابلس رقم ٢/١٦٠ لسنتي ١٠٧٨ و ١٠٧٩هـ.، كشف الظنون ١٢٠٠، إيضاح المكنون ١/٤٢٣ و ٢/٢٣٧، وهدية العارفين ١/٧٦٢ وفيه «علي بن عبدالله البصير الحاكمي الحموي»، تاريخ حماه للصابوني ١٤٩، مختصر تاريخ سورية للدبس ٢/١٩٢، تاريخ طرابلس لحكمت شريف يكن (مخطوط) ٢/١٣، معجم المؤلّفين لكحّالة ٥/٧٨ و ٧/٤٤ وفيه «عبدالبصير»، وانظر لنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ـــ المجلّد ١٤ ـــ ص ٣٠٤ ـــ ٣٠٨ رقم ٨٤٣).

(٤١) ورد في سجّلات المحكمة الشرعية بطرابلس لسنتي ١١٢٧ و ١١٢٨ ـــ ص ٣٤ .«عبدالجليل الحنفي»، الذي تولّى الخطابة في جامع محمود لطفي الزعيم المعروف حتى الآن بالمعلّق. كما ذكر النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس بعد سبع سنين «الشيخ عبدالجليل الشهير بابن سُنَيْن».(انظر: التحفة النابلسية ـــ ص ٥٢ و ٥٣ و ٨٨) فلعلّ الجميع واحد.
وهو غير «عبدالجليل السُنَيْني» الذي ذكره المرادي في «سلك الدرر» ـــ ج ٢/٢٣٨ وأرّخ وفاته بسنة ١١٠٢هـ. إلّا أن يكون التاريخ غلطاً.

(٤٢) لم أقف على ترجمة له.

(٤٣) ذكر النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس (التحفة النابلسية ـــ ص ٤٨) الشيخ إبراهيم النقشبندي الميقاتي، وهو «إبراهيم بن مصطفى بن عبدالحيّ الميقاتي الطرابلسي». ذكره الشيخ محمد رشيد لميقاتي في «نزهة الفكر في مناقب الشيخ محمد الجسر» ـــ ص ٩، وهو الذي ساق نسبه. وكان خطيباً في الجامع المنصوري الكبير. (انظر سجّل المحكمة الشرعية بطرابلس لسنة ١٠٨٨هـ. ـــ ص ١١٠).

(٤٤) يقصد القبرين اللذين كانا داخل المدرسة المعروفة بالأحمديّة، وهي الملاصقة للرواق الشمالي من جامع التوبة. وقد وردت إشارة إليها في سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس لسنة ١٠٧٨هـ./ ١٦٦٧م. حيث تسبّب فيضان النهر بسقوط قبّتها، وسُمّيت المدرسة بالتّكيّة.كما تعرّض سقفها للسقوط بعد فيضان النهر في أواخر سنة ١٩٥٥ حيث كان المخطّط لها أن تُزال نهائياً مع جامع التوبة لتقويم مجرى النهر، وبقيت مشعّثة حتى الآن. (انظر عنها كتابنا: تاريخ وآثار ـــ ص ١٤٥)، وذكرها ابن محاسن في «المنازل المحاسنية» ـــ ص ٨٢ ووصفها بـ «المصلّى» مشرف على النهر يشرح الصدر.

(٤٥) أي من الأتراك.

(٤٦) يقصد جامع الناصري المعروف حتى الآن بجامع التوبة، رواه الملك الناصر محمد بن قلاوون حول سنة ٧١٥هـ./ ١٣١٥م. وقد تعرّض للتجديد عدّة مرات لكثرة تعرّضه لفيضانات النهر المجاور، وكان آخرها مساء ١٧ كانون الأول ١٩٥٥ (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار.. ــ ص ١٣٥ ــ ١٥٤).

(٤٧) كان يقوم عند الجامع قبل فيضان ١٩٥٥ جسر واحد يعرف بجسر اللّحامة أو الجديد. وقد أزيل بعد تقويم مجرى النهر.

(٤٨) انظر عن أبراج طرابلس بساحل البحر كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ــ ج ٢/٢٥٩ ــ ٢٧٥، وكتابنا: نصوص مختارة من سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس، وسيصدر عن المؤسّسة الوطنية للمحفوظات ببيروت، وفيه ترتيب لمواقع وأسماء الأبراج من خلال الوثائق.

(٤٩) هو جبل الأربعين المعروف في ناحية الضّنيّة، وهو مشرف على بلدة بقاع صفرين، ويُعتبر الآن متنزّهاً للمصطافين من أهل طرابلس.

(٥٠) لم أقدر على مصدر يؤيّد هذه المعلومة.

(٥١) هي التكيّة المعروفة حتى الآن بالمولوية، في سفح قلعة طرابلس من جهة الشرق، على ضفّة النهر. بناها رجل يقال له صمصمجي علي حول سنة ١٠٢٨هـ. وتتمتّع بموقع فريد حيث المياه والخضرة والمناظر الخلّابة. وقد أُعجب بها الرحالة المسلمون والأجانب وكتبوا عنها كثيراً. (انظر عنها: المنازل المحاسنية ــ ص ٧٦، وكتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ــ ج ٢/٣٤٩ ــ ٣٥٤ وفيه مصادر أخرى).

(٥٢) كانت مقبرة الغرباء تقوم بظاهر طرابلس في الشمال الغربـي من محلّة الزهرية الآن، وقد أُزيلت بعد تقويم مجرى النهر.

أمّا الشيخ المذكور فهو «محمد بن محمود بن عبدالحق الحامدي الطرابلسي» الجدّ الأعلى لأسرة الحامدي المعروفة الآن، وكان خاتمة علمائها أستاذنا الشيخ عبدالحميد الحامدي المتوفى سنة ١٩٧٢ رحمه الله.

(٥٣) يقصد ضريح «عزّالدين أيبك الموصلي» نائب السلطنة بطرابلس، الذي يقوم حتى الآن بجوار حمّامه المشهور بحمّام عزّالدين، في محلّة باب الحديد. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار ــ ص ٢٦٨ وما بعدها، وكتابنا. تاريخ طرابلس السياسي ــ ج ٢/٢٨٨ و ٣٠٠).

(٥٤) كان على ضفّتي النهر نحو (١٢) طاحونة كبيرة وصغيرة، أزيلت بعد فيضان ١٩٥٥، منها طواحين من عصر المماليك.

(٥٥) المعروف بالمنصوري. بناه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، وتمّ بناؤه سنة ٦٩٣هـ./ ١٢٩٤م. وهو أكبر جوامع طرابلس. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار ٥٧ ــ ١٣٤).

(٥٦) هكذا، والصحيح هو «عبداللطيف» من بني سُنْيْن، وهو أخو الشيخ «عبدالجليل»، وقد ذكره النابلسي في رحلته الثانية (التحفة النابلسية ٤٩ و ٥٨ و ٨٨).

(٥٧) الأوْلى أن يقال (يجيئه) ليستقيم الوزن. (عيسى اسكندر المعلوف).

(٥٨) ليس للبيتين أثر الآن. ولم يذكرهما غير النابلسي.

(٥٩) يقصد حمّام «عزّالدين» الذي بناه نائب السلطنة عزّالدين أيبك المَوْصِليّ بين سنتي ٦٩٤ ــ ٦٩٨هـ./ ١٢٩٥ ــ ١٢٩٩م. (انظر كتابنا: تاريخ طرابلس ٢/٣٠٠).

(٦٠) يقصد جامع «البرطاسي» الذي بناه الأمير «شرف الدين عيسى بن عمر البرطاسي الكردي» حول سة ٧١٠هـ./ ١٣١٠م. (انظر عنه كتابنا: تاريخ وآثار مساجد طرابلس ــ ٢٠٧).

(٦١) تقع في الجنوب الشرقي من قلعة طرابلس، على ضفة النهر الغربية، بناها (صمصمجي علي) حول سنة ١٠٢٨هـ./ ١٦١٨م. (المنازل المحاسنية لابن محاسن ــ ص ٧٦). وانظر وصف الرحّالة لها كتابنا: تاريخ وآثار ــ ص ٥٢، ٥٣؛ وتاريخ طرابلس ٢/٣٤٩ ــ ٣٥٤ رقم ٨٤.

(٦٢) يقع على طريق المولوية في الشمال الغربـي منها، حسب سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس.

(٦٣) ذكره النابلسي في رحلته «التحفة النابلسية» باسم «نورالدين الطرابلسي»، وقد أخطأ المستشرق «هريبَرت بُوسه» في تحقيقه للرحلة، بإثبات الاسم «نورالدين بشر الطرابلسي» (راجع فهرس الاعلام ــ ص ١١٩) والصحيح «بشه» كما أثبتناه، وهذا ليس اسماً، بل هو اصطلاح تركي يستخدم مع الأسماء للتفخيم، وهو تصغير «باشا». وهو كثير الاستعمال في سجلّات المحكمة الشرعية، والوثائق العثمانية.

(٦٤) تُعرف بـ «قناطر البرنس»، وتعود إلى عهد الصليبيين. (انظر عنها: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ــ لابن عبدالظاهر ــ ص ٣٠٥، ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر ــ لشيخ الربوة ــ ص ٢٠٧، ودُرّة الأسلاك في

دولة الأتراك ــ لبدرالدين حبيب الحلبي ــ (مخطوط) ٢/٣٩١، وانظر كتابنا: تاريخ طرابلس ٢/٥٠٤ و ٥٠٦).

(٦٥) هو الحسن بن محمد البوريني، المتوفى سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م. له رحلة إلى طرابلس لم تُنْشَر حتى الآن، وهي في حكم المفقودة.

(٦٦) يقصد التلّ الذي تقوم فوقه الآن القهوة العليا.

(٦٧) هذا وَهْمٌ من النابلسي اخذ به العامّة من الطرابلسيين، فالمدرسة هي من بناء الأمير «تغري برمش الظاهري» سنة ٧٩٩هـ. (انظر كتابنا: تاريخ وآثار ــ ص ٣٠٤).

(٦٨) جنوبي طرابلس مسافة سبعة كيلومترات على ساحل البحر.

(٦٩) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ــ ص ٩٧.

(٧٠) الصحيح شماليّ بيروت، في منتصف الطريق ــ تقريباً ــ بينها وبين طرابلس.

(٧١) بناه الأمير «سيف الدين أيتمش البجاسي الجركسي» بين سنتي ٧٩٢ ــ ٨٠١هـ/ ١٣٩٠ ــ ١٣٩٩م. وهو صاحب البرج المعروف ببرج عزّالدين بساحل طرابلس. انظر:

Voyage en Syrie — Max van Berchem — V. 1 — P. 100 — Caire 1914.

(٧٢) ص ٤٢٧.

(٧٣) انظر عنه: تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت ــ للشيخ طه الولي ــ ص ٥١ وما بعدها.

(٧٤) هي الصحابيّة الجليلة «الغُمَيْصاء بنت مِلْحان» زوجة «عُبادة بن الصامت» رضي الله عنه. وقوله النابلسي هنا يتّفق مع قول «صالح بن يحيى» في: تاريخ بيروت ــ ص ١٤ من أنّ امّ حَرَام ماتت في بيروت بعد عودتها من قبرس. وهذا قول غير صحيح، فالمصادر القديمة تُجمع على انها تُوُفّيت في الجزيرة أثناء غزوة معاوية لها سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩م. (انظر: تاريخ خليفة بن خيّاط ــ ١٦٠، ربيع الأبرار للزمخشري ١/٢٤٠، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣١٨/٨، تاريخ دمشق (تراجم النساء) ــ تحقيق سكينة الشهابي ــ ٤٨٦ ــ ٤٩٦ ــ دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م).



ابن خلدون (١٣٣٢ ــ ١٤٠٦)

● مؤرخ وعالم اجتماع. ينتهي نسبه إلى وائل بن حجر من عرب اليمن. أقامت أسرته في تونس حيث تعلم بها. تنقل من بلاد المغرب ثم أقام بتلمسان بالجزائر. عاد إلى تونس، وانتقل إلى مصر، واتصل بسلطانها برقوق، فولاه قضاء المالكية. حج إلى مكة (١٣٨٧)، ورافق جيش المماليك الذي صد زحف تيمورلنك. ألف كتابه الشهير «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ولمقدمته أهمية كبيرة لاشتمالها على فصول في أصول العمران، والنظريات الاجتماعية والسياسية، وتصنيف العلوم. انتقد ابن خلدون أرسطو لأنه لم يهتم بعلم الاجتماع، وانتقد الفلاسفة المتقدمين لاهتمامهم بما وراء الطبيعة. ابتكر ابن خلدون المنهج التاريخي فقال أن الوقائع يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول، واعتبر ابن خلدون علم التاريخ فرعاً من الفلسفة، وجعل له موضوعاً هو الحياة الاجتماعية، وما يتصل بها من حضارة مادية وعقلية للجماعة التي تتطور من البداوة إلى الحضارة. سبق عصره ومفكري العرب والغرب، وأثر في ما بعد في أوجست كونت ــ تلميذ سان سيمون ــ وهربرت سبنسر من قادة الفكر الغربي في القرن التاسع عشر. ولا زال أثره واضحاً في الجامعات الغربية، وقد ألف جورج داڤي عميد جامعة السوربون (١٩٥٠) أطروحته عن ابن خلدون. كما عالجها كذلك طه حسين في أطروحته (١٩٣٠) ولا يزال هذا الأمر ممتداً عند الفلاسفة الماديين وعلماء الاجتماع المعاصرين (كوفلبيه وجورج جورفتش أستاذي الاجتماع في السوربون).

معالم الحضارة العربية

د. نقولا زيادة



□ آلة لقياس كمية الدم المراقة من المريض.

يعرض الدكتور نقولا زيادة في دراسته هذه، التي نقدم الجزء الأول منها، لمعالم الحضارة العربية من حيث تطورها وخصائصها، وتفاعلها مع الحضارات التي كانت قائمة في حينه، ومن ثم انتقالها إلى أوروبا والتأثير فيها.

وهو، في ذلك، يلقي الضوء على حقبة مشرقة ومشرفة من تاريخنا العربي، أرست دعائمها حضارة عظيمة تجلت في ميادين الفن والأدب وعلوم الطب والبناء والفلك والفلسفة... وكانت الأساس الأول والمكين لما نشهد اليوم من تطور وتقدم.

ويأمل الدكتور زيادة أن يزود قراء «تاريخ العرب والعالم» بشيء حول اللغة العربية في مساقها التاريخي.

تطور الحضارة العربية وخصائصها

مع الفتوح العربية رسمت الامبراطورية الإسلامية حدوداً واسعة لها امتدت من أواسط آسيا وحوض السند شرقاً إلى شمال إسبانيا والمحيط الأطلسي غرباً. وانتقل العرب إلى محيطهم الجديد ونقلوا معهم مثلهم العليا التي جاء بها الإسلام، ولغتهم الحية الناضجة التي نزل بها القرآن الكريم، ونشاطهم وحيويتهم وعواطفهم. ومزجوا ذلك بأدب الفرس وعلم اليونان والهند وتشريع الرومان، فخرج للعالم، من ذلك كله، هذه المدينة الإسلامية العربية التي انتشرت بدورها في ديارهم وخارج ديارهم.

وحري بنا، قبل أن نبدأ بالتعرف إلى معالم هذه الحضارة وتبين خصائصها، أن نلم إلمامة سريعة بنشوئها وتطورها.

كانت القضايا الأولى التي انصرف العرب إليها، أيام الخلفاء الراشدين وبني أمية، تتعلق بالدرجة الأولى بإدارة هذه البلاد الواسعة التي تولوا أمرها. ذلك انهم لم يكونوا أصحاب خبرة بالإدارة على هذا النطاق الواسع. لذلك أخذوا بالاهتداء بهدي القرآن الكريم والحديث الشريف في ما يتعلق بالعدل والمثل الأخلاقية، وسمحوا لأنفسهم بأن يفيدوا من تجارب من سبقهم من الأمم. فمن ذلك أنهم تركوا للولاة أن يصدروا من الأوامر ما يصون الأمن والنظام ويحفظ حياة الناس وأموالهم، وتركوا للقضاة أن يقيموا العدل والقسطاس. وظلت سجلات الدولة المالية مثلاً تكتب بالفارسية في العراق واليونانية في ديار الشام والقبطية في مصر. كما ظل الناس على استعمال النقود البيزنطية في مصر وديار الشام.

فلما استقر للعرب الأمر ووجدوا من يستطيع أن يدون هذه القيود باللغة العربية فعلوا ذلك في أيام عبدالملك وأولاده. وسكوا النقود الذهبية العربية الإسلامية. وبذلك جعلوا للامبراطورية العربية نظاماً نقدياً خاصاً كان له أثر كبير في تدعيم التطور الاقتصادي الجديد.

ومع أن الأمويين كانوا حريصين على العناية بالإدارة وإتمام الفتوح فإنهم لم يغفلوا العلوم. فقد عني الأمير الأموي خالد بن يزيد، على سبيل المثال، بالكيمياء وما إليها. لكن انتقال الملك العربي إلى العباسيين سنة ١٣٢هـ (٧٥٠) وإنشاء بغداد بعد ذلك بمدة قصيرة، هو الذي فتح أمام العرب مجال الاتصال العلمي والفلسفي والأدبي بما عند الأمم التي سبقتهم والجماعات المعاصرة لهم. إذ أنهم اندفعوا نحو التعرف إلى التراث الحضاري بأكمله. وكانت الترجمة السبيل الأول إلى ذلك. ففي أيام أبي جعفر المنصور بدأ نقل الطب والفلك إلى اللغة العربية. وقد كانت الترجمة في بدء أمرها فردية فيختار المترجم ما يلذ له وينقله بتشجيع من أولي الأمر. لكن الأمر لم يلبث أن اتخذ شكلاً آخر أيام الرشيد والأمين والمأمون. ففي هذه الفترة القصيرة، الممتدة من سنة ١٧٠ إلى ٢١٨، أصبحت الترجمة عملاً رسمياً منظماً. وكان



□ مجموعة علماء يدرسون عوالم الفلك.

المترجمون، بادىء ذي بدء، من النصارى المقيمين في الامبراطورية العربية. وكانت الترجمة من اليونانية إلى السريانية ثم من السريانية إلى العربية، لكنها لم تلبث أن تحولت من اليونانية إلى العربية رأساً.

فمدرسة حنين بن إسحق وابنه وابن أخيه وبعض تلاميذهم، عنيت بالتراث الطبي اليوناني بنوع خاص، فتم على يدها نقل مؤلفات غالينوس وأبقراط وديسقوروس إلى العربية. لكن عمل هذه المدرسة لم يقتصر على ذلك إذ أن المترجمين منها نقلوا بعض أعمال أفلاطون وأرسطو أيضاً. وقد أنشأ المأمون دار الحكمة لتكون مركزاً للترجمة والبحث وولى حنين بن إسحق رئاستها.

وكانت ثمة مدرسة ثانية للترجمة وهي التي اتبعت طريق يحيى بن عدي، فانصرفت إلى الفلسفة، فنقلت الكثير من مؤلفات أفلاطون

وأرسطو وأفلوطين. والمدرسة الثالثة هي التي يمثلها ثابت بن قرة والتي يعود إليها الفضل في نقل المؤلفات الرياضية والفلكية اليونانية. وحري بالذكر أنه قبل انتهاء القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) كان العرب قد تعرفوا إلى أهم المؤلفات اليونانية بحيث أن ابن أبي أصيبعة أورد ذكر ما لا يقل عن مئة كتاب نقلت عن اليونانية في تلك الفترة.

ومع أن بغداد ترجمت الكثير، فإنها لم تكن المركز الوحيد لذلك. فقد نقلت كتب أخرى في مراكز العلم في العالم الإسلامي، نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، فرغانة وبخارى ونيسابور والبصرة والكوفة والموصل وحلب ودمشق والقدس والقاهرة والقيروان وتونس وتلمسان ومراكش وفاس وقرطبة وطليطلة.

ودور الترجمة لم يطل أمده على ما رأينا. فقد كانت حيوية العرب والمسلمين قوية، لذلك لم يلبثوا أن أخذوا أنفسهم بالكتابة في المواضيع المختلفة ــ في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة، كما أن العلوم الإسلامية الصرفة، وهي التي كانت العناية بها قد بدأت قبلاً، أخذت سبيلها إلى النضج. فكان التفسير والحديث والفقه والكلام. ونضيف إلى ذلك الأدب والتاريخ.

ولنذكر أيضاً أن العرب استمروا في خدمة العلم والفكر قروناً طويلة. لذلك تمكنوا من إضافة الكثير الكثير إلى ما أخذوه، بحيث أنهم ابتكروا أشياء كثيرة ضمت إلى كنز المعرفة البشرية.

وحضارة، على هذا الاتساع رقعة، والامتداد زمناً، كانت لها خصائص لا بد أن تذكر قبل الانتقال إلى التفاصيل.

أولى هذه الخصائص، أن هذه الحضارة إسلامية الروح والصيغة. فالإسلام هو الذي حفز سكان الامبراطورية، على اختلاف نحلهم وتباين مذاهبهم، على العمل المستمر في سبيل العلم والفلسفة والتشريع وما إلى ذلك. ونحن إذا تذكرنا أن الشريعة الإسلامية هي التي كانت أساس المعاملات والأحكام والعدل، وتذكرنا اهتمام العاملين بها، وجدنا أن هذه كانت من أكبر الخدمات التي تمت على أيدي العرب لا بالنسبة إلى أهل الامبراطورية وسكانها فحسب، بل بالنسبة إلى العالم الحديث أيضاً.

والأمر الثاني هو أن الحضارة كانت عربية التعبير. فقد حمل العرب معهم لغتهم، ولم يلبثوا أن نقلوا العلوم والفلسفات اليونانية والهندية والفارسية إلى العربية. وانتشرت العربية مع القرآن الكريم. وكانت لقرون طويلة اللغة الوحيدة التي كتب فيها شيء يستحق القراءة. وعبقرية الحضارة العربية من عبقرية لغتها.

والأمر الثالث هو أن هذه الحضارة كانت ديناميكية واسعة الأفق والنظرة. فنحن إذا أخذنا بغداد وجوارها وجدنا أن المشتغلين بشؤون العلم والفكر والدين كانوا ينطلقون في آفاق لا تحد، وكانوا يبحثون قضايا متنوعة تتعلق بالكون على عظمته والإنسان والعلاقة بينه وبين الخالق. كما كانوا ينظرون في شؤون الناس وتخطيط المدن وأمور الأسواق.

والحضارة العربية متكاملة من حيث اهتماماتها ونظرتها. فقد تناولت جميع القضايا في خطوط متوازية ومستويات متقاربة، لأن الإسلام لم يفرق بين الدين والدنيا. فكان من الطبيعي أن تكون النظرة شاملة، والعناصر التي تتكون منها هذه الحضارة متآلفة يكمل واحدها الآخر، ويتم عمل الباحث الواحد عمل المفكر الآخر.

صحيح أن الفلسفة كانت شغل عدد قليل من أهل الفكر، والكلام كان يعنى به قلة من الناس. ولكن هذا من طبيعة الأشياء. ففي عصور التاريخ جميعها كانت هذه الأشياء مقصورة على عدد قليل من الناس. لكن المهم أن سبيل الحصول عليها كان متيسراً لكل من أراد وسمت به همته إلى الإفادة من ذلك.

يجدر بنا أن نعنى بظاهرة هامة من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية. وهي نظرة أهل الفكر والعلماء إلى وحدة العالم الإسلامي. فمنذ القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) هبت على الامبراطورية العربية الإسلامية الواسعة رياح التفرقة السياسية: فانقسمت إلى دويلات وقامت بينها حروب وخصومات، وزالت دول وقامت أخرى، كما انعقدت محالفات ومعاهدات. ومع ذلك فإن الأديب والعالم والفقيه والمحدث والمفسر والشاعر، لم يشعر واحدهم قط بغربة في أي من أجزاء هذا العالم الواسع. كان يتنقل فيه من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد ومن مدينة إلى

مدينة ومن بلاط إلى بلاط حاسباً نفسه جزءاً من كل أينما حلّ، لأنه كان يرى أن الذي يربط أصلاً بين أجزاء هذا العالم الواسع هو الإسلام. فهو العروة الوثقى يمتن العلاقات ويقوي الروابط بين هؤلاء الأفراد أينما حلوا. فهذا ابن بطوطة مثلاً يتنقل بين طنجة في المغرب الأقصى وأواسط آسيا فلا تهمه الحزازات والخلافات التي كانت تهب على البلاد في القرن الثامن للهجرة (القرن الرابع عشر للميلاد). وهذا ابن خلدون يهجر بلاده في شمال إفريقيا ويستقر بمصر، فيعين في مناصب القضاء والتدريس. ومثل هذين مئات من حملة العلم ونقلته.

أشرنا من قبل إلى أن الحضارة العربية كانت متكاملة النظرة. ونضيف الآن أنها كانت متكاملة في الأمور العملية. فالرقعة الواسعة كانت تغل أنواع الزروع المختلفة وتنتج المصنوعات المتنوعة وتنقل المتاجر بين أجزائها باستمرار. وليس المهم ذلك فحسب، ولكن المهم هو أن الصانع والتاجر كانا موضع اهتمام أولي الأمر. وليس أدلّ على ذلك من وجود نظام الحسبة في الأسواق الإسلامية. فالمحتسب كان عليه أن يمنع الأذى عن الناس فيحول دون الغش ويراعي صحة الكيل والميزان ويراقب الأسعار ويمنع الاحتكار. وكان العمال، في أماكن كثيرة، ينضوون جماعات تحت لواء مؤسسات تهتم بهم وتنظم بعض أمورهم.

وعندما نذكر الأمور التي نقلها العالم عن العرب نجد أنها لم تقتصر على معرفة علمية هنا وهناك أو صناعة في هذه الناحية أو تلك، ولكن ثمة أموراً متنوعة ناتجة عن هذا التكامل في الحضارة العربية الإسلامية، التكامل بين النظرة المجردة والواقع العملي.

والحضارة العربية كانت حضارة «مدينة». ففي المدينة نشأت وفيها تطورت واتخذت شكلها الأصيل ومنها انتشرت. والمؤسسات الحضارية هي مؤسسات مدينة قلباً وقالباً.



المدينة العربية

ما أكثر ما مَصَّرَ العربُ من المدن وأنشأوا من البلدان في تاريخهم الطويل وفي الرقعة الواسعة التي نمت فيها شخصيتهم العربية الاسلامية. وقد جاء بناء المدن واختطاطها أمراً طبيعياً بعد احتلال البلاد وفتح الأقطار. وكانت البصرة والكوفة وواسط والفسطاط والقيروان من أول المدن التي أنشأها العرب. وكانت هذه، أول أمرها، معسكرات للجند ومراكز للادارة. لكنها لم تلبث أن أصبحت أسواقاً ومراكز للعلم.

وقد اتخذت كل دولة كبرى قامت في العالم العربي عاصمة خاصة بها. فدمشق اتخذها الأمويون عاصمة، وبنى العباسيون بغداد للغرض نفسه. ومثل ذلك يقال عن القاهرة وتونس ومراكش وفاس وقرطبة. على أن نوازع الحضارة واتساع الملك وقيام الصناعة وانتشار التجارة أدى إلى نمو عدد كبير من المدن لم تكن عواصم، ولكنها كانت تعج بأصحاب الأعمال وأهل العلم. واختيار الأماكن لبناء هذه المدن كان مرتبطاً أصلاً بإمكاناتها الاقتصادية.

ولم يكن لتخطيط المدن عند العرب قواعد موحدة. فكان ذلك يتوقف على ما سبق وألفه الناس في منطقة معينة. فالبصرة كانت خمسة أخماس، لكل قبيلة خمس. لكن بناء بغداد والقاهرة عني به المؤسسون عناية خاصة. فكانت بغداد مدورة يتوسطها المسجد الجامع وقصر الخليفة. والقاهرة اختطت بحيث تنزل القبائل التي جاءت مع جوهر الصقلي كل في مستقر لها. وكان الجامع الأزهر وقصر الخليفة أيضاً قلب المدينة. وكل مدينة كانت تدور بها الأسوار المنيعة، خاصة إذا كان الخطر قريباً منها. إلا أنه سرعان ما كانت المدينة تضيق بسكانها فينتشرون خارج الأسوار في الضواحي القريبة، وعلى الأخص إذا استتب الأمن وساد النظام في البلاد.

وبحكم نمو هذه المدن كان يهبطها من السكان تدريجاً من كل صنف وجنس ولون ومذهب.

فلا حرج على الناس ولا منع ولا تحديد. فالبصرة بلغ عدد سكانها سنة خمسين للهجرة، اي بعد إنشائها بجيل واحد تقريباً، نحو ثلاثمئة ألف.

والمدينة العربية كانت مركز الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية: فيها قامت المدارس ونشأت الجامعات وعقدت مجالس الأدب والمناظرة. وفيها نضجت الحياة العقلية. وفيها اختلف الناس شيعاً. ومن هذه المدن انتقلت هذه الأمور إلى الريف فأثرت بعض الشيء، لكن المدينة ظلت الأصل.

ونحن إذا أمعنا النظر في المدينة العربية وجدنا أن كلًا منها كان فيها مسجد جامع واحد على الأقل وقصر لصاحب الأمر وأسواق يمتري منها الناس حاجاتهم ومعاهد للعلم يؤمها الطلبة وأسوار تدور بهذا كله وقلعة تقوم في ناحية منها للدفاع إذا جد الجد.

والذي يعنينا الساعة من عناصر المدينة بشكل خاص هو أسواقها ودور العلم فيها.

وقد كانت أسواق المدن تتأثر، في شكلها وتنظيمها وتنسيقها وموقعها وسلعها، بالإقليم الذي تقوم فيه المدينة. فقد بقيت أسواق حلب ودمشق على قدمها. ولكن لما بنى المنصور بغداد صير الأسواق في كل جانب منها. إلا أنه لم يلبث أن أخرج الأسواق الكبيرة إلى خارج السور، تيسيراً للناس. وكانت الدكاكين في أسواق مصر وغرب آسيا تمتد على طول الشارع في جانبيه. أما المألوف في المدن الفارسية فكان جمع الدكاكين في مكان واحد. ومن الملاحظ، على كل حال، أن الأسواق غالباً ما تحيط بالمسجد الجامع وخاصة أسواق الوراقين والبزازين وما إلى ذلك. أما أسواق الجلود وما إليها فكانت بعيدة عن مجتمعات الناس.

والغالب على الأسواق أن تسقف وتظلل. فقد روى ابن جبير أن أسواق منبج فسيحة، وسككها متسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً، وأعالي أسواقها مسقوفة. وكانت الأسواق تسمى بما يباع أو يصنع فيها أو بالنسبة إلى منشئها. فسوق أسد بالكوفة سميت باسم أسد بن عبدالله القسري. وكان في الاسكندرية سوق الخشب وفي أصفهان سوق الصرافين وسوق الأرز في عكاء وكذلك أسواق للجوهريين والدباغين والصيادلة.

ومع أن البيع بالمقايضة كان معروفاً في أجزاء مختلفة من العالم العربي، فالواقع أن العرب، إبان ازدهار اقتصادهم، كانوا يلجأون إلى الاقتصاد النقدي. وكان المبيع بالجملة يتم عادة في القيساريات. ومن أكبر القيساريات المعروفة قيسارية البز في حلب في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)، وقيسارية مراكش.

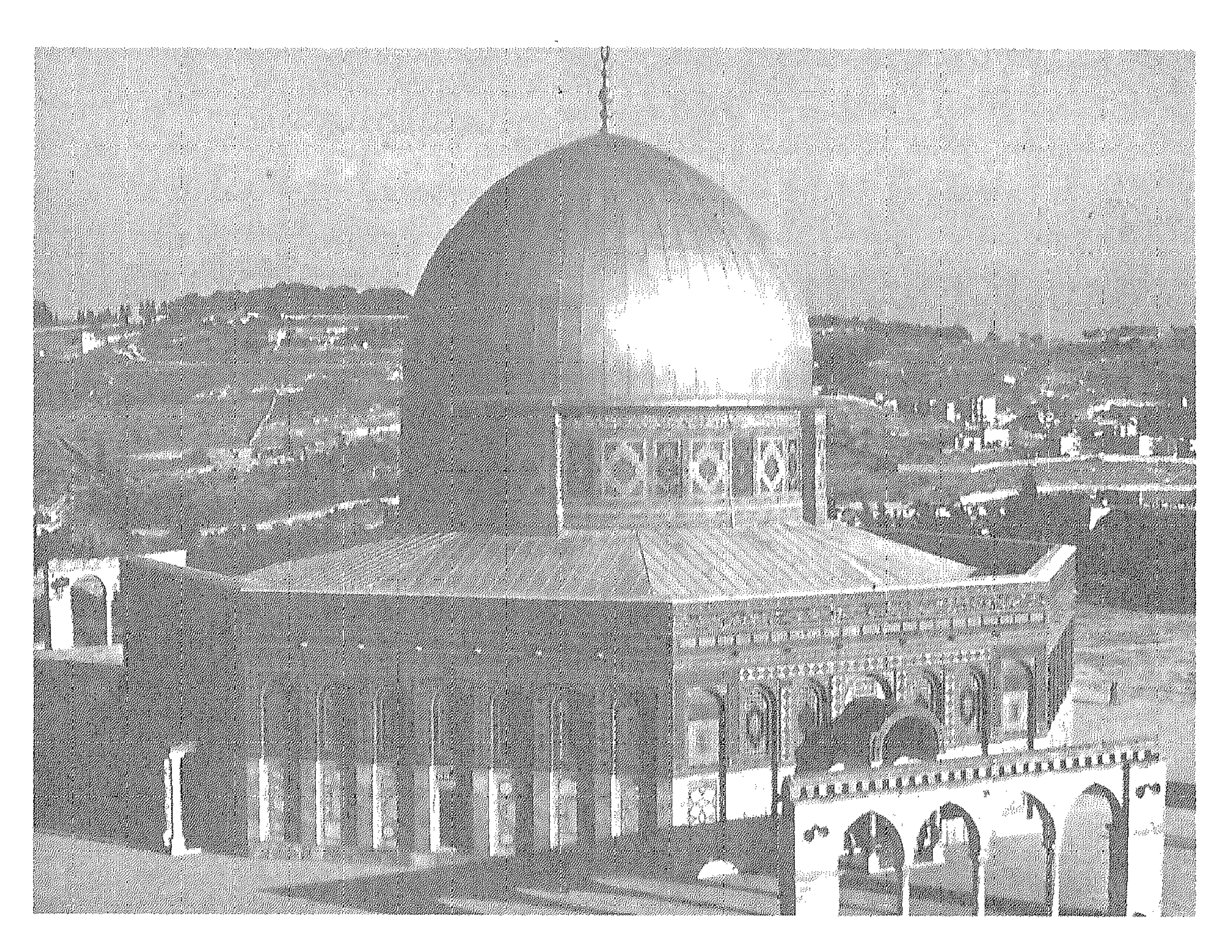
ودور العلم، على اختلاف أنواعها، كانت من العناصر الرئيسية في تكوين المدينة في الإسلام. وقد كان المسجد أول دار للعلم والتعليم والتربية في الإسلام، ومع أنه حافظ على هذه الصفة ولا يزال في كثير من الأماكن، فإن التطور الذي أصاب الحياة العلمية والعقلية عند العرب اضطرهم إلى الانتقال إلى أبنية خاصة للعلم. وقد تركزت دور العلم في عواصم العرب الكبرى مثل بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وفاس، لكن كثيراً من عواصم الدول الإسلامية الصغرى شرقاً وغرباً كانت مراكز هامة للعلم مثل فرغانة وبخارى وغزنة ونيسابور والقدس والقيروان وغرناطة واشبيلية ومراكش.

في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) أخذ الناس ببناء دور خاصة للعلم والتعليم. لكن القرن التالي شهد نشوء المدرسة الرسمية. بدأ بذلك نظام الملك الوزير السلجوقي فأنشأ المدرسة النظامية في بغداد ولم تلبث هذه أن انتشرت غرباً حتى وصلت فاس ومراكش.

والمدرسة النظامية تمثل دوراً خاصاً في المدرسة الإسلامية من حيث إشراف الدولة عليها. فقد كانت نفقاتها من الخزانة الرسمية، كما كان اختيار أساتذتها ومدرسيها بيد الخليفة أو من يتولى الأمر في البلد.

في سنة ٦٣١هـ (١٢٣٤م) أنشأ الخليفة العباسي المستنصر بالله المدرسة المستنصرية ببغداد. وقد فاقت كل ما سبقها.

والظاهر أن المدرسة المستنصرية سلمت من يد هولاكو لما احتل بغداد ودمرها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). فقد رآها ابن بطوطة بعد ذلك بنحو مائة عام ووصفها بقوله: «وفي آخر سوق الثلاثاء المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى



□ المسجد الاقصى احد روائع البناء الإسلامي.

أمير المؤمنين المستنصر بالله... وبها لكل مذهب إيوان... (   ) جلوس المدرّس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد عليه المدرّس وعليه السكينة والوقار. لابساً ثياب السواد معتماً وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة».

ويقول ابن الفرات: أن كل أنواع الكتب المختلفة كانت موجودة في مكتبة المدرسة المستنصرية.

وكان للقاهرة نصيب في حفظ التراث العلمي العربي الإسلامي مثل نصيب بغداد. إن لم يزد عليه. فقد كان هنا الأزهر، أقدم جامعات العالم الموجودة الآن. أنشىء الأزهر سنة ٣٧٨هـ (٩٧٢م) لنشر الدعوة الشيعية. لكنه لم يلبث، بعد زوال الخلافة الفاطمية، أن أصبح مركزاً للدراسات الفقهية واللغوية فيه أربع مدارس لكل من المذاهب الأربعة واحدة. ومع أن الأزهر معروف عنه أنه جامعة دينية قبل كل شيء، فعندنا رواية عن عبداللطيف البغدادي أنه حاضر في الطب في الأزهر في القرن السابع الهجري.

وقد ازدهرت دور العلم في الأندلس في عهد العرب، فقد كانت مكتبة صاحب الأندلس في القرن الرابع الهجري يتألف فهرسها من أربع وأربعين كراسة، في كل منها عشرون ورقة ولم يكن بها سوى أسماء الكتب. ومع أننا لا نعرف إلا الشيء اليسير عن جامعة قرطبة التي بلغت شأوها في زمن عبدالرحمن الناصر والحكم، فهذا اليسير الذي وصل إلينا يدلنا على الدور الذي لعبته في توجيه الحياة الفكرية في الأندلس، وتهيئة الجو العلمي للترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأوروبية التي تمت في إسبانيا في القرون التي تلت ذلك. وكان طلابها يعدّون بالآلاف ويفدون إليها من إفريقيا وإسبانيا وبقية أوروبا. ولم يقتصر التعليم فيها على العلوم الدينية

واللغوية، بل تناول مواضيع الطب والرياضيات والفلسفة، وفروعاً أخرى من العلم. وكان من كبار أساتذتها أبو بكر ابن معاوية والقالي صاحب الأمالي وابن القوطية...

وقد أنشئت جامعة أخرى كبيرة في غرناطة في أواسط القرن الثامن الهجري وكان يوسف الناصري أوّل من درّس بها.

ومن طريف أخبار دور العلم في إسبانيا ما وصل إلينا عن جامعة طليطلة التي أنشأها ليون الحكيم في القرن الثالث عشر الميلادي. فقد بنى مدرسة وعين رئيساً لها أبا بكر الريقوتي من أعلم أهل زمانه، فكان يحاضر طلابه في أرض مملكة قشتالة الإسبانية في جميع أنواع العلوم باللغة العربية. وهذه المدرسة ظهرت فيها أول جماعة من التراجمة الذين نقلوا من العربية إلى اللاتينية وغيرها علوم أهل الأندلس وخصوصاً الفلك. فهذه الجامعة العربية اللاتينية كانت حجراً أساسياً في نشر الحركة العلمية في إسبانيا ومن ثم في أوروبا.

ودور العلم الإسلامية كانت في الغالب غنية لأن بانيها كان يقف عليها الأرض أو العقار أو جزءاً من ضريبة المدينة، فقد كانت حصن الأكراد في لبنان موقوفاً دخلها على المدارس.

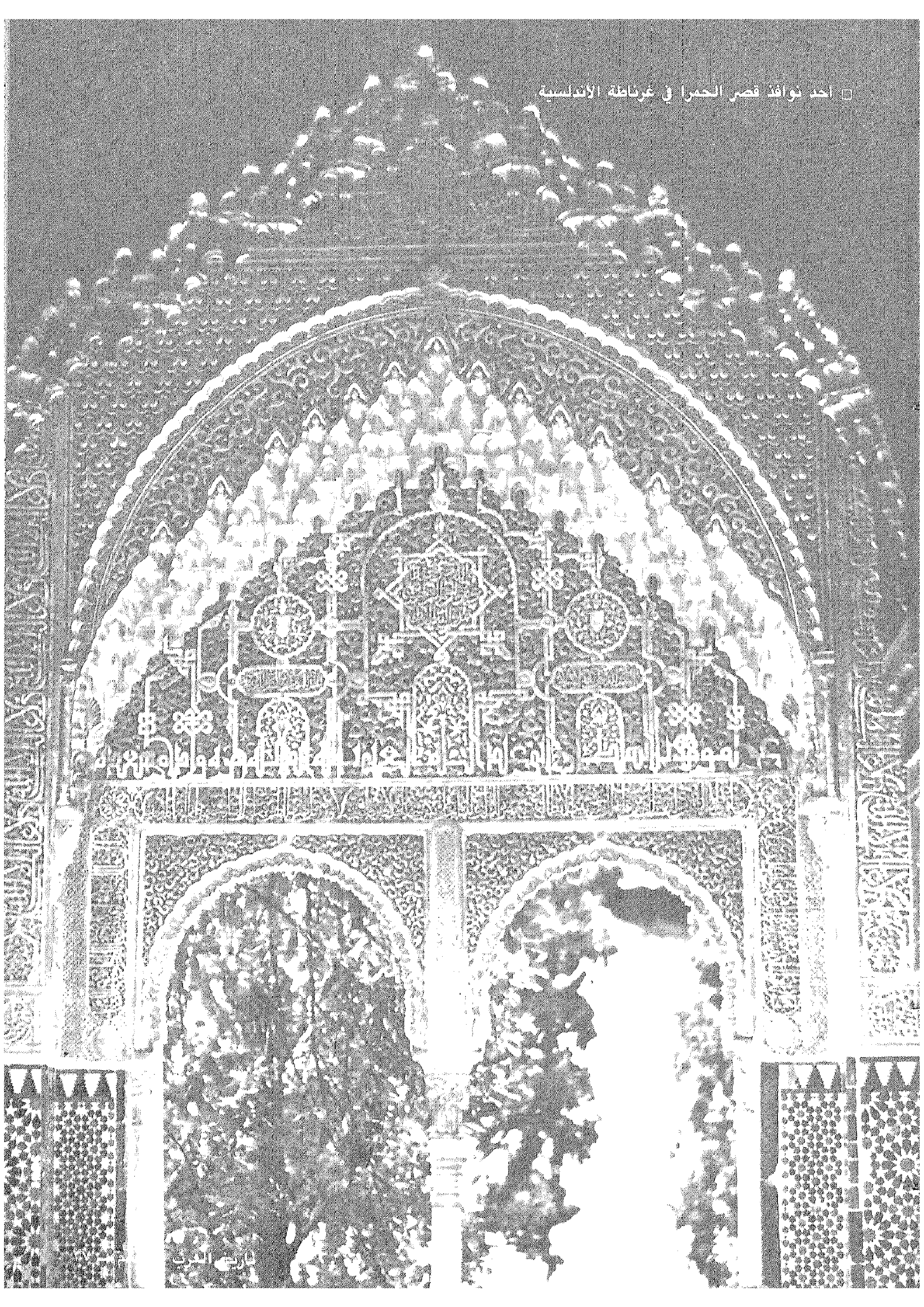
وقد حفظ لنا المؤرّخون أخبار دور العلم والمدارس ونحن إذا ضممنا ما ذكروه إلى بعضه البعض وجدنا أنها قاربت الأربعمائة عدداً. فقد كان في القدس مثلاً أربع وأربعون مدرسة، وفي بغداد أربعون وتجاوزت مدارس دمشق المائة. وقد كان في دمشق في القرن السادس الهجري مثلاً ثلاث مدارس فنية اثنتان للطب وواحدة للهندسة وكان في حلب مدرسة للطب.

وكانت المدارس الحكومية تعطى فيها للأساتذة مرتبات ثابتة، لكن بعض العلماء كان يرفض أخذ الأجر ثمناً للتعليم، فقد امتنع النووي في القرن الثامن أن يأخذ رزقاً لتدريسه في المدرسة الأشرفية. وكان بعض العلماء يورق ويأكل من كسب يده. إلا أن التعليم صار على توالي الأيام مهنة يعيش منها المشتغلون بها. وقد أورد الجاحظ أن النحوي العروضي كان يكتفي بستين درهماً أجرة للتعليم في الشهر. أما مؤدّبو الأمراء فلم يرضوا بأقل من ألف درهم كيحيى بن ثعلب. وكان قائد لعبدالله بن طاهر مؤدّب رزقه في الشهر سبعون ديناراً، وذلك في القرن الثالث الهجري. وكان ابن دريد في القرن الرابع الهجري يتناول أربعين ديناراً في الشهر.

العمارة والفنون

إذا كان الشعر تعبيراً عن نبضات القلب عند العرب، وإذا كان الفقه والشرع تعبيراً عن قدراتهم الادارية، وإذا كانت الفلسفة والرياضيات تعبيراً عن مقدرتهم على إدراك أبعاد الانسان والكون، ففن العمارة هو التعبير عن التناسق والاتساق في حياتهم عامة. فالقوم الذين تمت على أيديهم هذه الآثار الجميلة، بناء وزخرفة، الممتدة من الشرق إلى الغرب، ما كانت لتتم لو لم يتح للذين بنوها أن يدركوا الكثير من أسباب التناسب بين الأطوال والأعراض والأقواس والألوان والزخارف. فلا يوضع شيء إلا في موضعه. وقد نقل العرب عن سابقيهم ومعاصريهم العلوم والآراء ثم ضموها إلى بعضها وصنفوها وجعلوها علومهم وآراءهم وأضافوا إليها. ومثل ذلك يقال في البناء والفنون الأخرى. فقد تعلموا ممن عاصرهم واستعانوا بالبنائين والفنانين الذين وجدوا في امبراطوريتهم الواسعة، ثم خلقوا من ذلك كله فناً خاصاً بهم له ميزاته وخصائصه وآثاره.

وكان من الطبيعي أن تتجه عناية العرب المسلمين بادىء ذي بدء إلى بناء المساجد. فذلك أمر لا غنى عنه للسكان. وكان من الطبيعي أيضاً أن تكون المساجد الأولى، على الغالب، بسيطة. فالوقت القصير والمعرفة القليلة ما كانتا لتسمحا بغير ذلك على نحو ما نعرف عن مساجد البصرة والكوفة وواسط الأولى. لكن هذا لم يطل. فإن المصادر والقدرات الفنية التي أصبحت في



□ احد نوافذ قصر الحمرا في غرناطة الأندلسية

متناول العرب مكنت لهم من الانتقال إلى البناء الجميل الأنيق المزخرف بسرعة. وهذا الجامع الأموي في دمشق، وقبة الصخرة في القدس، وقد بنيا في العهد الأموي، من أجمل الآثار العربية إطلاقاً. ولا يقتصر الأمر على أنهما جميلان ولكن قيمتهما، فيما نرى، أنهما يدلان على أن العرب لم يلبثوا أن ظهروا على مسرح التاريخ، حتى سمت همتهم إلى الكبير الضخم الطموح من المشاريع، بعد تردد دام فترة قصيرة.

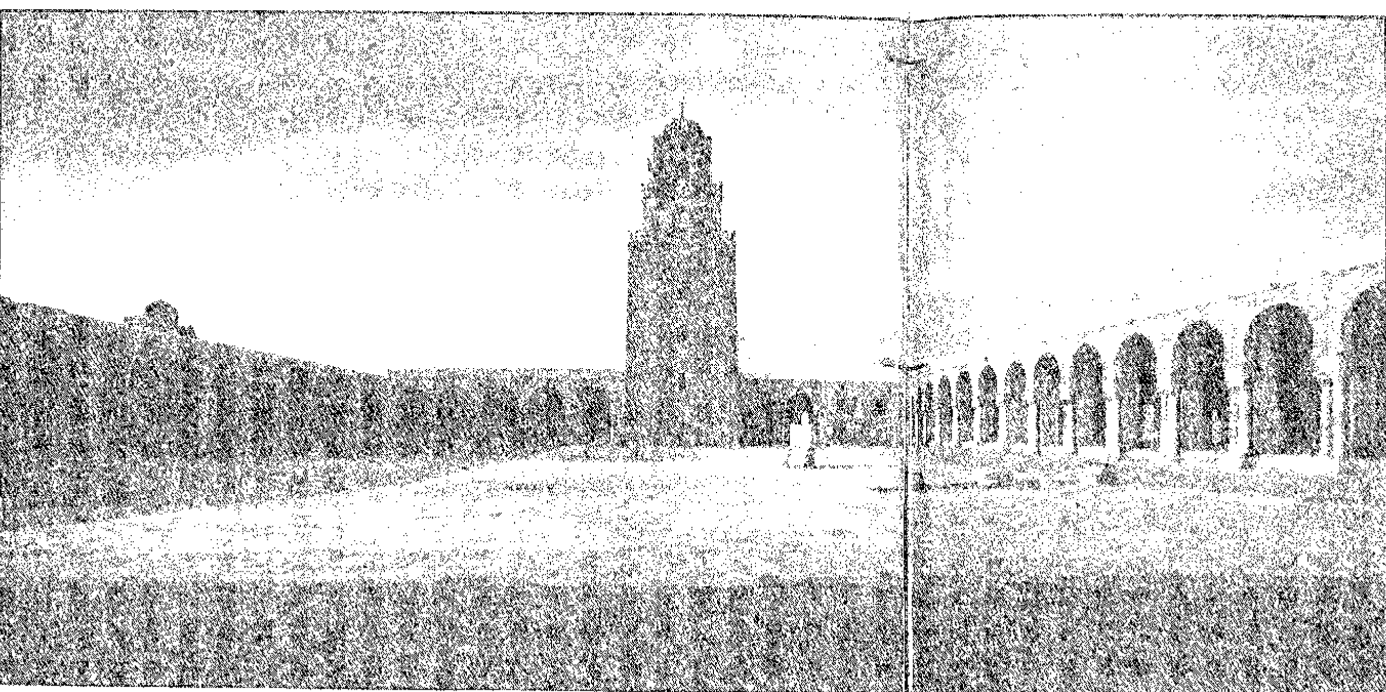
ويتضح استخدام العرب للقدرات الفنية المختلفة مثلاً في أنهم نقلوا القبة عن المشرق أساساً لسقف الأبنية الرئيسية، بينما غلب السطح الداخلي للقبة من الفن القوطي. كما أننا نجد أن العرب نوعوا في استعمال الأقواس بحيث أنها أصبحت علماً على الأبنية العربية الأصيلة.

ومما يؤسف له أن الأبنية العباسية الأولى التي أقيمت في بغداد وما إليها لم يبق منها شيء، وذلك بسبب اعتماد البنائين على الآجر والطوب في البناء. لكن أكثر ما أقامه العرب من أبنية أو ما شيد بتأثيرهم لا يزال قائماً إلى الآن، يتمتع برؤيته الرحالة ومؤرخو الفنون.

ولم يفت في عضد الفنان العربي أن تصوير الأشكال الإنسانية ورسمها كان محظوراً، إذ أن ذلك لم يقعده عن الاهتداء إلى البديل. فقد عوض عن ذلك بالتنويع في الزخرفة. ذلك أنه جمع الرسوم الهندسية المتكررة والمركبة في تموجات ومنحنيات متداخلة متشابكة، فكان له منها تعويضاً عما فاته. وعمد إلى الرسوم المرتبطة ببعض الأزهار والأشجار، وخاصة ما كان فيه منها تناسق هندسي، خطي أو تموجي، فأضافها إلى زخارفه. وأخيراً جعل من الكتابة العربية، بما لحروفها من المرونة والطواعية، أساساً لفن زخرفي جميل. فكان للفنان العربي من التموجات والأشجار والكتابة عناصر لما ضمت إلى بعضها البعض يسرت له أن ينتج زخرفة عربية خالصة هي التي تطبع الكثير من الآثار القائمة إلى الآن بطابعها.

وأكثر الأبنية التي وصلت إلينا وأوسعها انتشاراً هي الأبنية الدينية وفي مقدمتها المساجد المنتشرة من إسبانيا إلى الهند. وأشهرها، إذا أخذناها بالترتيب التاريخي، المسجد الأقصى وقبة الصخرة في القدس والجامع الأموي في دمشق ومسجد القيروان وجامع عمرو بن العاص في القاهرة وجوامع قرطبة واشبيلية وجامع القرويين في فاس وجامع الكتبية في مراكش والحمراء في غرناطة ومساجد القاهرة المملوكية.

ومما يدخل في عداد الأبنية الدينية الربط والأضرحة. ومما يقترب منها غاية وانتفاعاً المدارس. وقد كانت هذه أماكن يقيم فيها الطلبة. ومن أجمل المدارس العربية إطلاقاً المدرسة البوعنانية التي بناها السلطان بوعنان المريني في فاس. فأنت إذا دخلتها ووقفت في صحنها، وتطلعت إلى ما فيها من حفر ونقش في الافريز أو في السقف، ملك ذلك عليك لبّك. فإذا انتقلت من الصحن إلى القاعات المجاورة الملاصقة له وجدت أن الاتقان يزداد، والبراعة تتجسم بحيث لا يترك الأمر زيادة لمستزيد. فالخشب المحفور



□ الجانب الشمالي من ساحة جامع القيروان في تونس.

والخطوط المتداخلة والآيات القرآنية الأنيقة الكتابة تضع أمامك فناً متكاملاً جميلاً تجد فيه جماع ما أتقنه العرب في فن المعمار والحفر والفنون الصغرى.

على أن العرب عنوا بأنواع أخرى من الأبنية ومن أهمها الأسوار والأبراج والقلاع والحصون للدفاع والقصور للإقامة والإدارة.

وقد كانت القصور تتسع مع تطور الدولة. فالقصور الأموية صغيرة في الغالب، إذا قيست بقصور العباسيين التي نعرف أخبارها من الوصّاف لأن أكثرها زال. وهذه نفسها أقل فخامة وضخامة وزخرفاً من التي أقامها حكام الأندلس كالزاهرة والزهراء. ومع ذلك فلكل من هذه القصور صفاتها الخاصة. ومن حسن حظنا أن الأمويين بنوا كثيراً من القصور على أطراف بادية الشام، وقد بقي الكثير من هذه القصور، بشكل أو بآخر، إلى الآن. وفي الأردن وحدها عشرة من هذه القصور معروفة. ولعل قصر هشام بن عبدالملك الواقع إلى الشمال من مدينة أريحا في غور الأردن من أعظمها إن لم يكن أعظمها. وقد كشف هذا القصر في الثلاثينات من القرن الحالي وكان هذا الكشف أمراً هاماً في الوصول إلى نموذج ممتاز للقصور الأموية، وزخرفتها بالفسيفساء.

وما كان يمكن لبناء، مهما اتسقت قسماته وتناسقت مقاساته، أن ترتاح إليه العين وتطمئن إليه النفس، إذا لم يكن زخرفه متسقاً مع بنائه. ومع أن التصوير والحفر كانا محظورين على الفنانين، فإن عبقريتهم، كما ذكرنا، تفتقت عن أشياء آية في الدقة والأناقة. وقد استعمل النحاتون الحجر والخشب والمعدن والجبس لذلك، وكان حفرهم يقوم على التموجات والأشجار

□ المحراب الرئيسي لمسجد جامعة السلطان حسن في القاهرة والمشهور بزخرفته الرائعة

والكتابة كعناصر أساسية، فكانت لهم من ذلك أفاريز جميلة تدور بالمسجد أو غيره من البناء، وكانت المنابر والمحاريب تزين المساجد، كما كانت النوافذ والأبواب، حتى في بعض المنازل الخاصة، مزينة بنقوش دقيقة محفورة في الخشب. ولعلّ «مشربيات» النوافذ الخشبية من أجمل ما أنتج الصناع في ديار العرب. وما أكثر ما كانت أبواب المساجد والقصور توشى بالحديد أو الصلب المحفور والمحلى بالذهب أو الفضة.

ويبدو أنه مع الزمن كان ثمة بعض التساهل في تصوير قليل في داخل القصور وما إلى ذلك. فنحن نجد أن القصور العباسية المتأخرة كان فيها، على رواية المؤرخين، رسوم متنوعة، ومثل ذلك يقال عن بعض القصور الأندلسية. والكثير من التصوير الذي عرفه العرب كان أساسه الفسيفساء.

ولا بد من الإشارة إلى نوع من الزخرفة كان للعرب فيه يد طولى. وهو زخرفة الكتب. فقد كان للكتاب عند العربي قيمة كبيرة، ولذلك لما اعتمد زخرفته أتقن تلك الزخرفة. وكانت هذه دقيقة صغيرة الحكم فكانت «منينمات». استعملت فيها الكتابة وبعض الصور، واستخدمت فيها الأصبغة المستخرجة من المعادن. وكانت أنفس الزخارف، كتابة وألواناً، هي التي استعملت لزخرفة القرآن الكريم.

وما دمنا نتحدث عن الفنون المختلفة، فلنختم هذا الحديث بشيء عن الموسيقى العربية. ويبدو أن العرب بدأوا في الموسيقى من السلم الشرقي وهو الصيني أصلاً المفرس سبيلاً. ومع تجاربهم أقاموا السلم الطبيعي، واهتدوا إلى أمور جديدة في الموسيقى آلة وعزفاً. ففي الآلات أضافوا أو حسنوا الرباب والقيثارة ذات الأوتار الستة والعود والقانون والمزمار والطبول والدفوف. وقد كان إيثارهم للعود واضحاً في تاريخ الموسيقى عملاً ونظراً.

ومن كبار الذين عرفونا بالموسيقى العربية الفارابي. والفارابي فيلسوف عالم، وعنايته بالموسيقى هي أصلاً عناية بالرياضيات. وقد عاش الرجل في القرن الرابع (العاشر) ووضع كتابه «الموسيقى الكبير». وفي النظريات التي قدمها أسقط مفاهيم المدرسة الفيتاغورية لموسيقى الكواكب وتناسق الأجرام السماوية. «وهو من أوائل الموسيقيين الذين قدموا التفسير المادي لظاهرة النغمة التي تأتي من اهتزازات الهواء والتي تزداد شدتها أو تقل بحسب طول الموجة». وبذلك وضع القواعد الأساسية لتركيب الآلات الموسيقية. وللعرب يعود الفضل في إدخال فكرة الوزن في الموسيقى. وزرياب، المغني العراقي الذي انتقل إلى قرطبة، هو الذي أضاف الوتر الخامس للعود، وهو الذي خلق تعليم الأغنية على قواعد علمية ثابتة.

من هذا الذي استعرضناه، على إيجازه، يمكننا أن نقول إن الحياة الفنية عند العرب كانت متكاملة في نواحيها المختلفة. وإن الاتساق والتناسب والاتقان الزخرفي كانت أساسها، سواء في ذلك البناء الضخم أو الصغير وما فيه من زخرف، والنافذة والباب والكتاب والعود.

الطب والمستشفيات

بدأت عناية العرب، بعد إنشاء دولتهم الكبرى، في عهد الأمويين. فقد أخرج المؤرخون أسماء ثلاثة أو أربعة اشتهروا بالطب في أيامهم أشهرهم عيسى بن الحكم مؤلف «الكناش الكبير» وهو رسالة في فن الطب يعرض فيه مؤلفه علاجاً لنزيف الشرايين. ولما اتصل العرب بالطب اليوناني، نقلاً وترجمة، في أيام العباسيين أخذوا بدرسه وجمع عناصره وتصنيفها، ثم بدأوا هم أنفسهم بالاضافة إليها، حتى ليصح القول بأن علم الطب في العصور الوسطى كان حكراً للعرب. وكانوا في ذلك عمليين، بالإضافة إلى عنايتهم بالأمور النظرية. فقد اهتموا مثلاً بالتقيح وعلاجه والطب السريري والجراحة والعقاقير النباتية والتخدير بالأبخرة الأثيلية وصناعة الأسنان وجراحة العين. كما أنهم عنوا عناية خاصة بالمستشفيات بحيث يقول أحد مؤرخي علم الطب من الإفرنجة: «إن تنظيم

المستشفيات هو أحد المستحدثات الجميلة للثقافة الإسلامية.

وفي تاريخ الطب العربي أسماء كثيرة لامعة ظهرت في المشرق والمغرب أهمها ربن والرازي وعلي بن العباس وابن سينا وابن النفيس في المشرق وأبو القاسم وابن زهر وأبو عمران وابن البيطار في المغرب.

وربن الطبري من أهل القرن الثالث (التاسع) وقد وضع عدداً من الكتب أهمها «فردوس الحكمة» في معرفة ألوان الأمراض وعلم الأجنة وهيئة الأجسام الحية وتركيبها والسموم. والرازي الذي تتلمذ على ربن هو من أكثر أطباء العرب غزارة وأصالة. وقد درس الكيمياء والسيمياء ببغداد. وأكثر كتبه ذيوعاً هو «مقالة في الجدري والحصبة» وهو كتاب يقوم على الملاحظة المباشرة والمعاينة السريرية. وفي كتبه الأخرى تعرض الرازي لأمراض الحصى في الكلى والمثانة ومرض النقرس والروماتزم. وله مؤلفان مشهوران أيضاً هما «المنصوري» و «الحاوي». والأول موجز في الطب في عشر مقالات، أما الحاوي فيعالج فروع الطب جميعها في عشرين مجلداً بحيث يمكن اعتباره موسوعة طبية. «وقد اتفق أحسن الحكام على الاعتراف بأن الرازي تفوق على جميع أطباء العرب كمجرب وسريري، وأنه يعد من بين أعظم أطباء جميع العصور بمهارته وموهبته» وبملاحظاته السريرية وتشخيصه للأمراض ووصف العلاج الناجع للمرض.

أما علي بن العباس، وهو من أهل القرن الخامس، فقد عمل في أيام عضد الدولة ابن بويه ووضع كتابه «الملكي»، الذي يوجز الطب في مجلد واحد. ومما يجدر ذكره أن ابن العباس نقد المؤلفين الذين سبقوه في الكتابة في الطب. فأبقراط كان في نظره شديد الإيجاز، وجالينوس مسرفاً في الإسهاب. ويقول إن الرازي كان مفرطاً في الإسهاب في كتابه «الحاوي». وقد أخذ ابن العباس نفسه بتجنب أخطاء هؤلاء جميعاً، فوقف موقفاً متوسطاً من الإيجاز والإسهاب يضاف إلى هذا أنه كان منظماً ومنسقاً في تفكيره وتعبيره. وقد أوصى تلاميذه بوجوب التردد على المستشفى. ومما روي عنه أنه قال: «ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأساتذة من حذاق الأطباء، كثير التفقد لأحوالهم، والأعراض الظاهرة فيهم».

والشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا كان جامع الثقافة العربية الإسلامية في شخصه. فقد قرأ فروع العلم والفلسفة والفقه، ووضع كتابه الأول في الطب وهو في الواحدة والعشرين من عمره. ولسنا هنا بمعرض التحدث عن مؤلفاته التي تجاوزت المئة، ولذلك يجب الاكتفاء بذكر «كتاب الشفاء» الذي كان موسوعة لفروع العلم بما في ذلك الطب، وكتاب «القانون» وهو كتابه الرئيسي في الطب. والكتاب يعالج وظائف الأعضاء والصحة والعلاج والصيدلة. وقد قيد فيه ما لا يقل عن ٧٦٠ عقيرة أوضح استعمالها في العلاج. وكان ابن سينا يشخص كثيراً من الأمراض عن طريق جس نبض المريض.

وقد عاش ابن النفيس في مصر في القرن السابع (الثالث عشر) وهو من شراح ابن سينا. لكن قيمة ابن النفيس ترجع إلى أنه اكتشف الدورة الدموية الصغيرة، ووصف، بشكل عام، الدورة الدموية العامة.

ونحن إذا انتقلنا من المشرق إلى المغرب وجدنا عدداً من كبار الأطباء في مقدمتهم أبو القاسم الزهراوي القرطبي من أهل القرن الرابع (العاشر) الذي كان طبيباً لعبدالرحمن الثالث.

وقد أنجبت اشبيلية أسرة ابن زهر التي اشتهر ستة أجيال منها بالطب، كان أبعدهم صيتاً ابن زهر الذي عاش في القرن السادس (الثاني عشر) وابن زهر هذا هو الذي كشف عن حشرة الجرب. ولعلّه أول من وصف ما يسمى سرطان المعدة. وقد طلب منه صديقه الفيلسوف ابن رشد أن يضع كتاباً في الطب فوضع كتاب «التيسير». وابن زهر من رواد الطب التجريبي.

وقد ظهر في أيام ابن رشد في قرطبة الطبيب العالم الفيلسوف أبو عمران. وهو من تلاميذ ابن رشد وابن طفيل. وقد قال فيه ابن سناء الملك:



□ رأس من الجص من قصر خربة المفجر بالقرب من أريحا. النصف الأول من القرن الثامن ميلادي ــ الثاني الهجري.

أرى طب جالينوس للجسم وحده
وطب أبي عمران للعقل والجسم
فلو أنه طب الزمان بعلمه
لأبراه من داء الجهالة بالعلم

ومن أهل القرن السابع (الثالث عشر) ابن البيطار من مالقة. وابن البيطار لم يكن طبيباً لكنه كان ضليعاً في علم النبات. وكان من ثم حريصاً على التعرف إلى خصائص النباتات من حيث استعمالها عقيرة. وله كتابان هامان في هذه المواضيع أحدهما المفردات وقد دون فيه ما عرفه عن النباتات نتيجة رحلات طويلة قام بها في الشرق وبلاد الإغريق فضلاً عن الأندلس. وكتابه الثاني هو «الجامع» الذي ذكر فيه أربعمئة نوع من النباتات والأغذية والعقاقير وقد وصفها وصنفها بحسب خصائصها العلاجية. وإلى العرب يرجع الفضل في إضافة نباتات متعددة إلى العقاقير مثل العنبر الداكن والكافور والقرنفل والمر، وبعض المعادن مثل الزئبق كما أنهم أدخلوا تحضيرات جديدة أفادوا منها في العلاج مثل الشراب المسكر والمستحلب وماء الورد والملح.

أشرنا من قبل إلى عناية العرب بالمستشفيات وكانوا يسمونها البيمارستانات. وقد ظهرت المستشفيات في أيام هارون الرشيد أوائل عهد الدولة العباسية، ولعلها عرفت حتى قبل ذلك. وكانت هذه تستعمل لمعالجة المرضى كما كانت مكاناً يتدرب فيه طلاب صناعة الطب على تشخيص الأمراض والعلاج. وكانت هذه البيمارستانات غنية إذ كان مؤسسوها يقفون عليها الأموال والضياع للإنفاق عليها. وكانت مفتوحة للجميع، الأغنياء والفقراء على السواء. وكانت ثمة محال لإعداد الأشربة ومطابخ للطعام وغرفة للقراءة. والوجبات كانت تقدم بانتظام. وكان في كل مستشفى تقريباً قسم خاص بالنساء، كما كان في بعض هذه المؤسسات جناح خاص بالمصابين بالأمراض العقلية.

ولعلّ أشهر مستشفى عرفه العالم العربي الإسلامي هو المستشفى الذي كان بدمشق



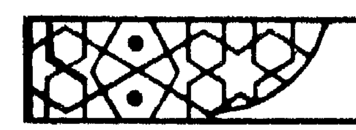
□ تخت موسيقي ٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م.

والذي أصلحه نورالدين زنكي، ولذلك عرف باسمه. وقد قال عنه الرحالة المغربي ابن جبير من أهل القرن السادس (الثاني عشر) إنه كانت جرايته في اليوم نحو خمسة عشر ديناراً، وكان له قومة بأيديهم القيود المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. وكان الأطباء يبكرون إليه كل يوم لتفقد المرضى والأمر بإعداد ما يصلح لهم من الأدوية والغذاء، كل بحسب حاجته.

إلا أنه يجب أن لا يغرب عن البال أن كل مدينة في ديار العرب والإسلام كان فيها مستشفى أو أكثر.

ونود، لهذه المناسبة، أن ننقل وصفاً لمستشفى مدينة مراكش الذي بناه المنصور الموحدي من قلم صاحب المعجب إذ قال:

«وبنى بمدينة مراكش مارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخيَّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض. ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والاكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركه وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل كل بيت، يقول: كيف حالكم وكيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات، رحمه الله».



تعرف العرب إلى ما كان عند اليونان وغيرهم ونقلوا عنهم علومهم من رياضيات وفلك وطبيعة. وواجه العرب المسلمون آراء دينية وثنية وموحدة، وثقافات اسطورية وعقلية وفلسفات متنوعة. وكانت نتيجة هذا كله ان اخذ العقل العربـي يتفاعل مع هذه المعطيات الجديدة ومع نفسه في ميادين العلم والفلسفة. وترتب على هذا التفاعل أن عكف العرب على تدوين ما اهتدوا إليه في العلم وما خامر نفوسهم من آراء جديدة.

وأولئك الذين أسهموا في هذه الميادين الواسعة طيلة تلك القرون العديدة يعدون بالمئات وآثارهم الكتابية التي وصلتنا تتجاوز المئات عدّاً. وكل ما يمكن أن يصنع الآن هو أن تذكر بعض القضايا التي دارت حولها جهود أهل العلم والفلسفة في عالم الفكر العربـي. وحري بالذكر أن الإسهام في التعلم والكتابة والتفكير لم يكن قط حكراً على فئة معينة أو على رقعة خاصة. فالأسماء التي تطالعنا جاءت من جميع أنحاء العالم العربـي ومن جميع فئاته، بقطع النظر عن العرق أو الأصل أو الدين. فتلقي العلم والاشتغال به كان أوضح نواحي المساواة في حياة المجتمع العربـي.

ولا يغيبن عن البال أن المعرفة في تلك العصور كانت وحدة، ولم تتجزأ تخصصاً كما هي الحال اليوم. لذلك فإننا نجد الاسم الواحد يذكر في غير مجال من مجالاتها. فابن سينا كان طبيباً وعالماً طبيعياً وفيلسوفاً. والفارابـي كان رياضياً وفيلسوفاً. والغزالي كان عالماً فقيهاً وكلامياً وصوفياً. ومثل ذلك يقال عن الكثيرين.

ولنذكر على سبيل المثال جماعة من أهل المعرفة العلمية. وأول ما يطالعنا جابر بن حيان واضع أسس الكيمياء عند العرب. وفي هذا المجال تمكن الكيمياويون العرب، عن طريق التجربة والملاحظة، من اختراع آلة للتقطير وحللوا عدداً من المواد، وميزوا بين القلويات والأحماض وعينوا خواصها.

وفي عالم الرياضيات يبدو بنو شاكر، الإخوة الثلاثة، وكأنهم أصحاب الخطوة الأولى. ثم يأتي الخوارزمي، من أهل القرن الثالث، فيضع رسالة في النظام العشري. وحساب الجبر والمقابلة مقترن باسم محمد بن موسى الخوارزمي الذي وضع حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات من الدرجة الثانية. والبيروني الرياضي (القرن الرابع / العاشر) يعتبر منشىء حساب المثلثات. كما وضع حسن المراكشي الجداول الأولى للجيوب ولأقواس الجيوب وللأقواس المتماسة في القرن السابع (الثالث عشر). وكشف البتاني رجوع نقطتي الاعتدال وميل مستوى الفلك. وكان الأسطرلاب الموضوع الرئيسي للزرقاني الطليطلي الذي عاش في القرن الخامس (الحادي عشر) والذي برهن عن انتقال البعد الأقصى للشمس بالقياس إلى النجوم.

والكندي الفيلسوف له بحوث في الطبيعة تتعلق بالقوانين التي تخضع لها الأثقال من حيث جذبها وسرعتها، والظواهر الضوئية. ويظل اسم ابن الهيثم البصري الأصل القاهري الموطن ومن أهل القرنين الرابع والخامس (العاشر والحادي عشر) أكبر اسم في علم الطبيعة عند العرب إذ أنه هو الذي طور البصريات وأوضح طبيعة العين من الناحية الفيزيولوجية. كما يظل اسم أبـي الريحان البيروني الذي عاش في بلاط الفزنويين والذي كتب في القرن الخامس (الحادي عشر) مقترناً بكروية الأرض وأفضل الأزياج والأوزان النوعية، هذا فضلاً عن كتابته في التاريخ والجغرافيا وأخبار المجتمع.

فإذا نحن انتقلنا من العلوم إلى رحاب الفلسفة وجدنا عدداً كبيراً من الأسماء. لكننا بدل أن نعدد الأسماء ومآتي أصحابها، آثرنا أن نختار قضية واحدة من قضايا الفكر التي عرض لها الفلاسفة العرب المسلمون وندير الحديث حولها. وهي قضية الإنسان وما يتعلق به خلقاً وحياة ونظاماً وثواباً وعقاباً فرداً وجماعة. ويمكن القول إجمالاً أن النظرات المختلفة اتخذت محاور أربعة هي: محور الوحي ومحور الفيض ومحور

التصوف والمحور العضـوي أو التولد الذاتي. فالوحي يقول بأن الله خلق الكون وما فيه، بما في ذلك الإنسان، من العدم، لأنه قادر على كل شيء. والإنسان إنما خلق ليعبد الله وليسير في الحياة سيرة فاضلة.

عـلى أن المفكرين الذين اتصلوا بمـا كان لليونان وما أُثِر عنهم حاولوا التوفيق بين الوحي والمنطق. والذي هو جدير بالذكر أن بعض هؤلاء تعرفوا إلى الأفلاطونية الجديدة، وقد حسبوها آراء أفلاطون وما هي بآرائه، فقبلوا بنظرتها إلى الإنسان. وفي مقدمة هؤلاء أبو نصر الفارابـي المتوفي سنة ٣٣٩ للهجرة (٩٥٠ للميلاد). فقد أعجب هذا الفيلسوف بنظرية الفيض التي جاء بها أفلوطين، وحسب أنها تحل جميع المسائل التي يثيرها الوحي حلاً منطقياً. فأخذ الفارابـي بنظرية الكائن الأول الذي يفيض منه كائن ثان ومن هذا يفيض ثالث ورابع وهكذا حتى يبلغ الحادي عشر وهو الذي يسميه الفارابـي العقل الفعال. وهذا العقل يهب عالَـمَ العناصر مختلفَ الصور التي تظهر فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان. وهكذا يُخْلَقُ الإنسان. وسعادة النفس البشرية إنما هي في إدراكها الحقائق الأزلية التي يحملها العقل الفعال.

وينتقل الفارابـي من هذه النقطة إلى القول بأن هذه الفلسفة الفيضية لها جانب تطبيقي، وهو تكوين المجتمع البشري القائم على أسس العدالة والفضيلة.

والإنسان بالذات، في رأي الفارابـي، ملتقى العناصر مع العقل. والقلب هو العضو الرئيسي في الإنسان وفيه مركز الإحساس والمخيلة والشهوة. والمخ، وهو عضو بارد ورطب بـطبيعته، فـإن وظيفته تلطيف الحرارة وتـوزيعها. وللإنسـان، بجانب العقل، إرادة حـرة، وظيفتها تحصيـل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة. والسعادة البشرية هي في أن تبلغ النفس درجة الكمال.

ولا يستطيع الإنسان، على ما يقول الفارابـي، أن يبلغ أفضل كمالاته إلا في المجتمع. والخير الأفضل والكمال الأقصى ينال في المدينة الفاضلة، التي يتعاون الأفراد فيها لتحقيق الحياة المثلى والحفاظ عليها.

وقد قبل الشيخ الرئيس ابن سينا، المتوفى سنـة ٤٢٨ للهجرة (١٠٣٧ للميـلاد)، فلسفة الفارابـي الفيضية، وقال بأن النفس جوهر قائم بذاته. والنفس عنـده لا تقبل الفسـاد أصلاً. والنفس الفضلى هي الكاملة في العلم والعمل.

وثمة محاولة أخرى للتقريب بين الشريعـة والفلسفـة هي تلك التي قام بهـا ابن رشـد فيلسوف المغرب الإسلامي والمتوفى في أواخـر القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد). ويهمنا من ابن رشد قوله بأن الإنسان، كي يعتبر إنساناً مؤمناً، يتحتم عليه الإقرارُ بوجود الله والإقرارُ بالنبوات والإقرارُ بالسعادة والشقاء في الآخرة. وهذه الأمور كلها يمكن إثباتها منطقياً.

أما النظرة الصوفية إلى الإنسان فهي منوعة، بحيث أنه من الصحيح أن يقال إن هناك نظرات صوفية تكاد تتفق مع عدد القائلين بها. لكن، يمكنُ لنا إجمال القول بأن فئة من الصوفيين كانت تقول «إن المعرفة الحقيقية بالله ليست العلم بوحدانيته التي يؤمن بها المؤمنون جميعاً، كما أنها ليست من علوم البرهان والنظر التي هي علوم الحكماء والمتكلمين والبلغاء، ولكنها معرفة صفاتِ الوحدانية التي هي لأولياء الله خاصة، لأنهم هم يشاهدون الله بقلوبهم. فيكشفُ لهم ما لا يكشفه لغيرهم من عباده».

يضـاف إلى ذلك أن الصوفيـة يـرون أن الإنسان الكامل هو علة وجود العالم والحافظ له، والقطب الذي تدور حوله أفلاك الوجود. خلقه الله عـلى صورتـه أنمـوذجـاً من الذات الإلهيـة. «والصوفيون يقولون بوحدة الوجود».

على أنه حري بالذكر أن التصوف عاد إلى حظيرة الإسلام السني على يد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية (١١١١ ميلادية). ففي رأيه العبد عبد والرب رب ولن يصير أحدهما الآخر البتة. والنفس الإنسانية يزداد استعدادها لمعرفة الله، بقدر ما يتحقق فيها من صفات الكمـال الإلهية. وهذا لا يتاح إلا للذين تحققوا معنى التوحيد في حال تجهدهم الصوفي.

وأخيـراً فهنـاك رأي ابن طفيـل في خلق الإنسان. عاش ابن طفيل في القرن السـادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكتابه حي بن يقظان كان شيئـاً خاصـاً في الفكر العـربـي

الإسلامي. والرواية التي نقلها الفيلسوف عن ولادة حي بن يقظان هي أنهم قالوا أن بطناً من أرض تلك الجزيرة النائية تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام، حتى امتزج فيها الحار بالبارد، والرطبُ باليابس، امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً، فتعلقت بها الروح التي هي من أمر الله تعالى، وتشبثت بها تشبثاً يعسر انفصالها عنها عند الحس وعند العقل، إذ تبين أن هذه الروحَ دائمة الفيضان من عند الله، وأنها بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم.

وأخذت القوى النفسية المختلفة تظهر رويداً. فيرتقي حي بن يقظان من عالم الحس إلى عالم المعرفة والحقيقة. وهكذا فإن ابن طفيل يقبل مبدئياً بالفيض، لكنه يفسر الخلق أو الولادة تفسيراً عضوياً ناشئاً عن التولد الذاتي. على أن ذلك لم يحرر الإنسان من الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب.

ونود أن نشير هنا إلى أن تنوع النظرة في الإسلام إلى الإنسان التي عرضنا لجزء يسير منها الآن كانت دليلاً على يقظة أهل الفكر والفلاسفة واهتمامهم بما جربه واختبره الآخرون قبلهم بقطع النظر عن خطأ ما ذهب إليه الأقدمون أو صوابه.

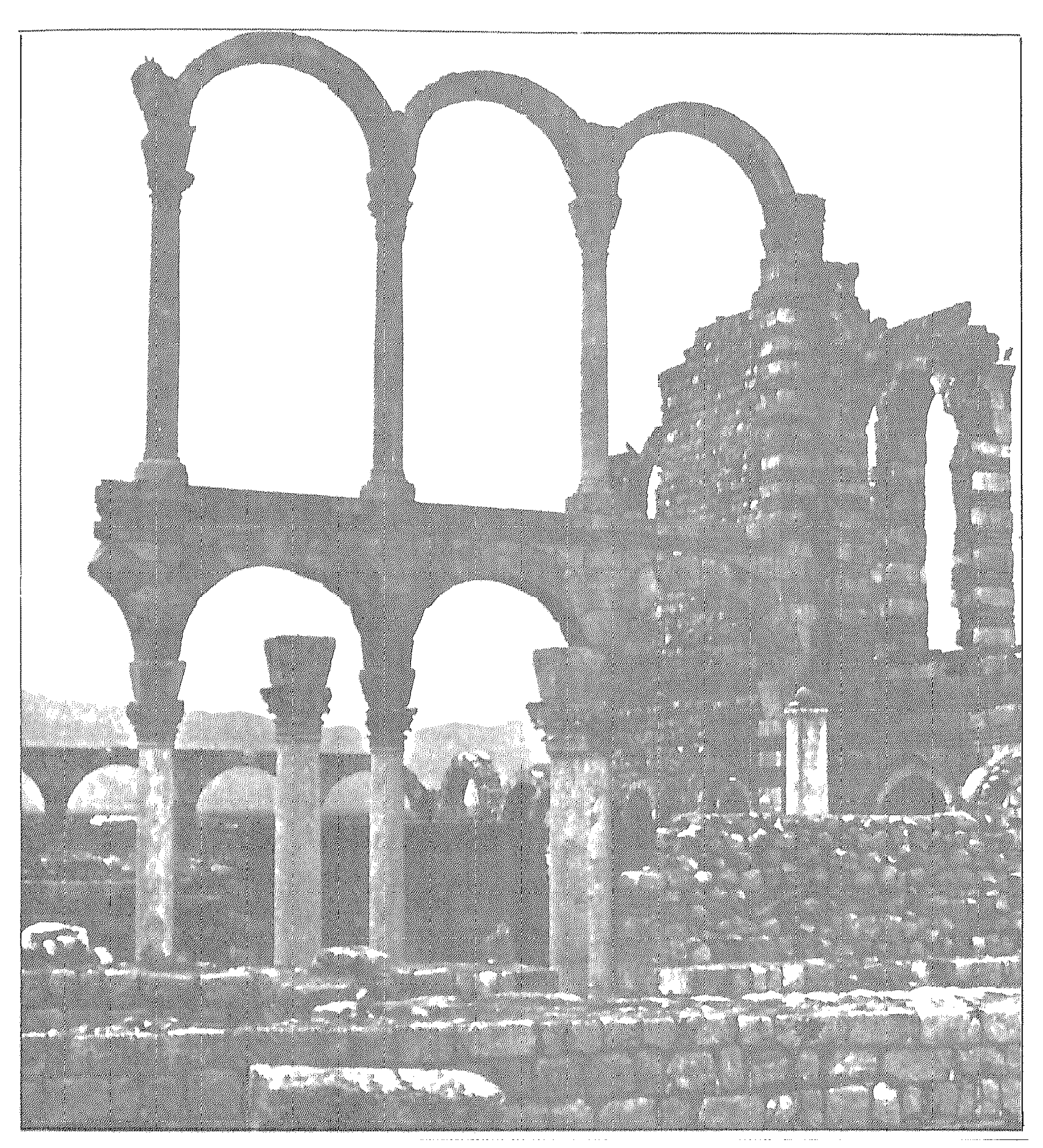
الحضارة العربية وأوروبا

كان الاتصال بين العرب وأوروبا، في القرون الأولى من العصور الوسطى، مقصوراً على تبادل تجاري محدود. ذلك بأن أوروبا كان اقتصادها زراعياً وكانت قدرتها الشرائية محدودة. فكان التبادل التجاري يتناول من السلع حداً أدنى. لكن هذا الاتصال أخذ في الازدياد تدريجاً في القرنين الرابع والخامس (العاشر والحادي عشر). فقد اتسعت ميادينه أولاً، وتنوعت أساليبه ثانياً، فمن الجهة الواحدة قامت في أوروبا، وخاصة في إيطاليا، مدن تعنى بالصناعة والتجارة. وهذه أصبحت أسواقاً لسلع كثيرة تنقل من بلاد الشام ومصر وإفريقيا والمغرب إلى أوروبا. ومن الجهة الثانية أخذت إسبانيا، ممثلة في الامارات الشمالية التي لم يستول عليها العرب تماماً، في استعادة أجزاء من الأندلس منتزعة إياها من العرب ومن جهة ثالثة انتشر النورمان في إيطاليا وغيرها من أجزاء البحر المتوسط وأخذوا باحتلال صقلية التي كانت قد خضعت للعرب مدة من الزمن. يضاف إلى ذلك أن أوروبا وجهت جهدها، في أواخر القرن الخامس (الحادي عشر)، إلى ديار الشام ومصر تحاول احتلالها فيما عرف باسم الحملات الصليبية فإذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار وجدنا أنه بين العلاقات التجارية والحملات العسكرية أصبح الاتصال قوياً.

وهذا الاتصال أتاح لأوروبا أن تتعرف إلى نواحٍ من الحضارة العربية لم تكن تعرفها من قبل إلا لماماً. فلما تذوقت ما فيها من خير وعلم ومعرفة أخذت نفسها بالعبِّ من مناهل التراث العربي الحضاري بشكل قوي. وكما حدث للعرب لما نقلوا تراث الأمم القديمة فانتشوا به وبدأوا سيرهم الطويل في السلم الحضاري، فقد أخذت أوروبا من العرب ما عندهم فانتشت به وبدأت سيرها الطويل في السلم الحضاري.

وإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على مجالات الاتصال الثلاثة: إسبانيا وصقليا وديار الشام أيام الحروب الصليبية وجدنا أن كلاً منها يتميز بنوع خاص من التراث العربي الذي انتقل عبره إلى أوروبا، كما أن أساليب الانتقال اختلفت. فالمجال الإسباني كان، على وجه العموم، سبيلاً لنقل أمهات الكتب العربية الفلسفية والعلمية إلى أوروبا. والمجال الصقلي كان السبيل لنقل أمور عملية أهمها الطب والفنون بينما كان المجال الشامي سبيلاً لنقل الكثير من العادات والصناعات إلى أوروبا.

فقد جاء احتلال الإسبان لطليطلة في أواخر القرن الخامس (الحادي عشر) ففتح باب الاتصال بالفكر العربي أمام أوروبا على مصراعيه. وأثار في الكثيرين من الأوروبيين الرغبة الملحة في أن ينقلوا ما كان عند العرب.



□ عنجر، إحدى القصور الأموية، التي تعكس حياة الترف التي عاشها اولئك الخلفاء. وتعود للقرن الثاني ـــ الثالث هجري الثامن ـــ التاسع ميلادي.

فقد أخذ الطلاب يحجون إلى طليطلة ليتعلموا ما كانوا يسمونه أيامها فنون العرب. وكان في طليعة هؤلاء الزوار ادلارد من مدينة باث بإنكلترا، وهو رياضي فيلسوف، وفي الوقت نفسه انتقل بطرس الفونس من إسبانيا إلى إنكلترا ليكون طبيباً لملكها. وقد نقل هذان كتباً في الفلك والرياضيات من العربية إلى اللاتينية، وهي لغة العلم يومها، وبذلك يسرا للبحوث العربية في هذين العلمين أن تنتقل إلى الأوروبيين رأساً. ولحق بادلارد جيرار الكريموني الذي قام بنقل كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي من العربية إلى اللاتينية أيضاً.

ويبدو أن إقبال مثل هؤلاء العلماء على زيارة طليطلة حمل الملك الفونس الحكيم، الذي كان يحكمها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للميلاد، على أن ينشىء فيها أكاديمية للترجمة،

على غرار ما صنع الرشيد والمأمون ببغداد قبل ذلك بأربعة قرون ويزيد. وقد ولى الفونس رئاسة هذه المؤسسة أبا بكر الريقوتي العالم العربي المسلم. فكان يجمع فيها المترجمين من العربية إلى الإسبانية واللاتينية. وقد استمر عمل هذه الأكاديمية نحو قرنين من الزمان. وقد كان من أكبر المترجمين فيها ريمون مارتن الذي حذق اللغة العربية وما احتوته من علم، فنقل إلى اللاتينية عدداً من الكتب بينها ملخص لكتاب تهافت الفلاسفة للغزالي. وبتأثير مدرسة طليطلة هذه قام ريمون كلّ بإنشاء مدرسة لتعليم العربية في ميرامار في جزيرة ميورقة سنة ١٢٧٦م.

ليس من الممكن أن نعرض في هذه العجالة إلى جميع الذين عنوا بنقل الكتب العربية إلى اللاتينية أو الإسبانية أو غيرهما. ذلك بأن عددهم كبير جداً. ويكفي أن نذكر، بالإضافة إلى من أشرنا إليهم، يوحنا الاشبيلي وروبرت ويعقوب البندقي ومرقس الطليطلي وميخائيل الايقوسي وهرمن الألماني والملك الفونس الحكيم نفسه، ونيقولا الصقلي. وقد قاربت الكتب المترجمة الأربعمئة كتاب عداً. وجيرار الكريموني، وهو أوسع المترجمين باعاً وأكثرهم تنويعاً نقل اثنين وسبعين كتاباً من العربية إلى اللاتينية، وهي مفصلة من حيث العدد: ثلاثة في المنطق وتسعة عشر في الفلسفة واثنان وعشرون في الرياضيات والفلك وتسعة في التنجيم وتسعة عشر في الطب.

ونحن إذا أحصينا الكتب التي نقلت من

□ نقود تعود لعصور مختلفة، أموية، عباسية، بويهية، وفاطمية.



العربية من حيث موضوعاتها وجدنا أن هؤلاء المترجمين لم يتركوا كتاباً حرياً بالترجمة إلا نقلوه. بحيث يمكن القول بأنه لم يكد يهل القرن الرابع عشر الميلادي (القرن السابع الهجري) حتى كانت أوروبا قد حصلت على التراث العلمي العربي فلسفة وفلكاً ورياضيات وطباً وجغرافية. وكان كثيرون من أهل العلم في أوروبا قد أخذوا أنفسهم بالنقل المباشر من اليونانية إلى اللاتينية وغيرها. وبذلك اكتمل للأوروبيين الحصول على التراث الفكري العالمي الكلاسيكي والعربي الإسلامي.

فإذا انتقلنا إلى صقلية وجدنا نوعاً آخر من النقل عن العرب إلى أوروبا. ذلك بأن النورمان، لما احتلوا صقلية، لم يقضوا على الحياة العربية فيها. بل ظلت للعرب نشاطاتهم الاقتصادية والعلمية ونالوا على أيدي الملك روجار وخليفته وليم تشجيعاً كبيراً. ويكفي أن نعرف أن الشريف الإدريسي العالم الجغرافي المشهور عاش في بلاط روجار ووضع كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وصنع الكرة الأرضية الفضية بناء على تشجيع من الملك نفسه.

على أن الناحية العلمية الخاصة التي انتقلت إلى أوروبا عن طريق صقلية هي الطب. وقد تم ذلك، بادىء ذي بدء، على يد قسطنطين الإفريقي، وهو تونسي الأصل. فقد كانت ثمة جامعة في سالرنو بإيطاليا، وقد تأثر تعليم الطب فيها بما كان العرب يقومون به في صقلية. وفي القرن الخامس (الحادي عشر) انتقل قسطنطين إلى سالرنو حيث قضى سنوات وهو ينقل كتب الطب من العربية إلى اللاتينية، وكان قد درس الطب على أيدي أطباء تونس. واستخلص قسطنطين من جميع المؤلفين العرب ما كان يمكن أن يكون مفيداً لطبيب. فهو بحق مجدد التآليف الطبية في الغرب.

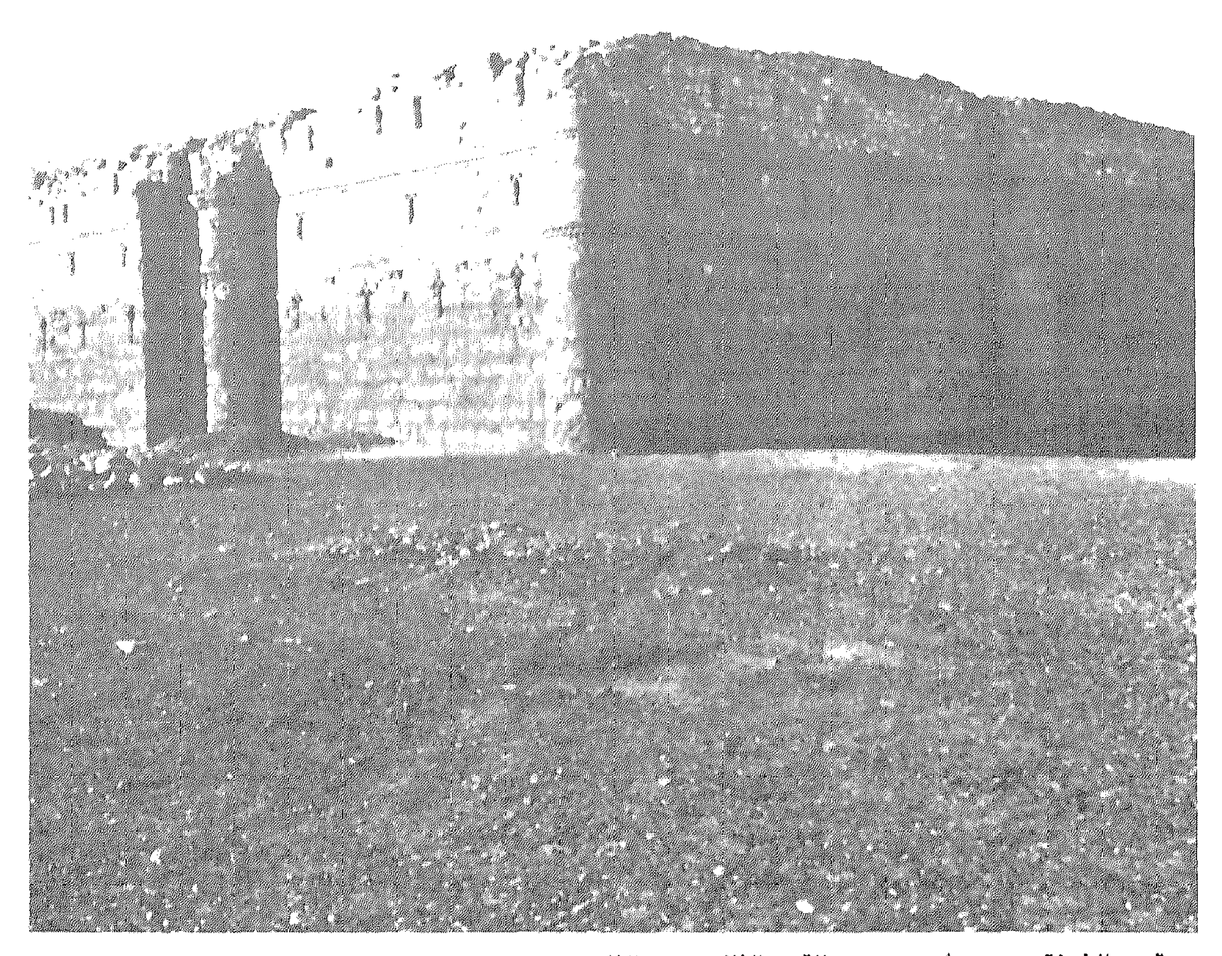
وكما حدث في سالرنو حدث في مونبلييه. فقد انتقل إليها بعض من تعلم الطب في سالرنو أو في تونس ليقوم بتدريسه هناك. وقد كان بين المتخرجين من هذه الجامعة أرمنغو الذي كان طبيباً لفيليب ملك أراغون وللبابا كلمنت الخامس. فلما تعلم العربية نقل الأرجوزة في الطب لابن سينا مع شرح ابن رشد لها إلى اللاتينية.

ومن صقلية انتقلت إلى إيطاليا صناعة المرايا والقيشاني.

وخلال القرنين اللذين كان الأوروبيون فيهما يتصلون باستمرار مع العرب في ديار الشام أثناء الحروب الصليبية كان الفريقان ينقل الواحد منهما عن الآخر ما قد يعجبه. وكان من الطبيعي ان يكون نقل الأوروبيين عن العرب أكثر نوعاً وكماً لأن العرب كانوا أعلى كعباً في الحضارة وأرسخ قدماً في المعرفة. على أن الذي أخذه الأوروبيون كان أكثر ارتباطاً بالحياة العامة. فالذي نعرفه أن الأوروبيين نقلوا كتابين أو ثلاثة عن العرب إلى اللاتينية في تلك الفترة كلها. أما في المجالات الأخرى فقد نقل هؤلاء القادمون عن سكان تلك الجهات صناعة السكر بعصره من قصب السكر وتجفيفه، وزراعة الأرز والليمون والذرة والبطيخ والسمسم، وأخذوا عنهم صناعة الأقمشة خاصة الدمقس والموصلين، وتعلموا منهم استعمال الدروع في القتال، وقلدوهم في استعمال بعض آلات الحرب. كما نلاحظ انتقال أنواع من الأطعمة إلى أوروبا عن طريق الصليبيين وخاصة استعمال الأفاوية والبهارات. وإذا تذكرنا أن الأوروبيين الذين اشتركوا في الحروب الصليبية كان عددهم كثيراً، وأنهم انتقلوا إلى ديار الشام من جميع أنحاء أوروبا الوسطى والغربية، فقد كان أثرهم أوسع انتشاراً من آثار أولئك الذين نقلوا العلوم والفلسفة، وإن لم يكن له العمق الذي كان لأهل المعرفة العلمية والفلسفية.

على أنه لا يجوز لنا أن نحسب أن انتقال الحضارة العربية إلى الغرب اقتصر على هذه المجالات وعلى هذه الفترات. ذلك أن النقل متى بدأ، والاتصال متى أخذ طريقه إلى القوم، لا سبيل إلى وقفه أو تحديده. ففي كل اتصال، مهما صغر شأنه، وفي كل مجال، مهما ضاق طريقه، لا بد من تأثر وتأثير. والغني يعطي، والثري يهدي، والعارف يرشد، والمعلم يعلم.

ولعلنا لو أردنا أن نجمل أثر الفكر العربي في أوروبا لاستطعنا أن نقول بأن الشرارة الأولى التي انطلقت في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى إنما حدثت بسبب ما أخذ الأوروبيون عن العرب. ويكفي أن نعرف أن رجلاً مثل توما



□ قصر الخرنق، حصن أموي يعود للقرن الثاني هـ ــ الثامن ميلادي.

الاكويني تعرف إلى أرسطو عن طريق ابن رشد الفيلسوف العربي الإسباني المغربي. وأن بعض الذين انصرفوا إلى التوفيق بين الوحي والعقل في أوروبا أفادوا من معالجة مفكري الإسلام لمثل هذه القضية. وعلم الكلام الإسلامي أثر بعض التأثير في نشوء المذاهب المدرسية في أوروبا.

ولا شك أنه يمكن تعداد أمور كثيرة في الحياة تأثر بها الأوروبيون بالعرب، وأن مثل هذا التعداد لا سبيل لحصره. لكن يجوز أن نمر بهذا الحديث من دون ذكر عدد من المفردات اللغوية المعروفة في اللغات الأجنبية والتي انتقلت إلى الغرب عن طريق العرب. وكل من هذه المفردات لها دلالة حضارية، مثل: السكر والكحول والاكسير والأرابسك لطراز الفن الزخرفي والجبر ومثل ذلك كثير.

وفي الفن ــ العمارة والفنون الصغرى ــ تأثرت أوروبا بالكثير مما كان عند العرب. وما أكثر ما زخرف البناؤون الأبنية الفخمة، الدينية والعامة، بالكتابات العربية المحتوية على آيات كريمة.

ومن الصعب على أي كان أن يتصور كيف كان يمكن لأوروبا أن تسير قدماً في مطلع نهضتها لو أن العرب لم ينقلوا عن الصين أشياء ثلاثة ويستعملوها ويعطوها لأوروبا بدورهم وهي: البارود والبوصلة والورق؟ هل يمكن تصور قلع الصخور الكبيرة للبناء من دون البارود؟ وكيف كان للأوروبيين أن يمخروا عباب المحيط الأطلسي لولا البوصلة! وكيف كانت الترجمة والنقل والنسخ تتم لولا الورق الذي كانت مناطق كثيرة في العالم العربي تصنعه من قرطبة غرباً إلى العراق شرقاً. ●

هوفمنستال وألف ليلة

مجدي يوسف



دوّن الشاعر النمسوي الكبير هوجو فون هوفمنستال (Hugo von Hofmannsthal) (١٨٧٤ ــ ١٩٢٩) مقالة عن ألف ليلة وليلة قدم بها أول ترجمة ألمانية كاملة لهذا الأثر الشرقي العالمي، وهي التي أنجزها المستشرق الغني عن التعريف «إنو ليتمان» (Enno Littmann) ونشرتها دار «إنزل» (Insel-Verlag) عام ١٩٢٣. ولقد لفت نظري تناقض واضح بين بنية أقاصيص ألف ليلة وليلة كما تعرف عليها ووصفها لنا الأديب النمسوي في تقديمه المذكور[1] وبنية إحدى قصصه التي كان قد ألفها في مطلع شبابه ولم يتجاوز آنذاك الواحد والعشرين من العمر ــ في ١٨٩٥ ــ واختار لها عنواناً يشير مباشرة إلى الليالي وهو: «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة»[2] (Das Märchen der 672. Nacht.).



يصف هوفمنستال في تلك المقالة التمهيدية ألف ليلة وليلة فيقول عنها «إنها أساطير فوق أساطير تذهب حتى الشقاوة والعبث، وهي مغامرات وملح تمضي حتى الهزل والقباحة، ثم هي حوار معقود من ألغاز وأمثال وحكايات ذات مغزى ومرمز تدور بالمرء حتى يلهث. غير أنه في غمار هذا الكل لا تصير الشقاوة شقية، ولا القباحة دنية، ولا طول النفس باعثاً على التعب»... «ننتقل من ذروة الدنيا لأحقر من فيها، من الخليفة للحلاق، ومن الصياد الفقير لتاجر الأمراء، وإذ بإنسانية تحيط بنا وترفعنا على موجة خفيفة عريضة، وبينما نحن بين أشباح، بين سحرة وعفاريت نحس وكأننا لم نبرح دورنا. إن واقعية لا غنى عنها تصور لنا النافورة والقاعة الرائعة يكسوها بلاط باهر وأم اللصوص العجوز يشغى رأسها بالقمل»... «هنا أجسر طاقات الفكر وأشد نزوات الحس في تداخل متعاشق، في وحدة واحدة»(٣). فإلى أي حد يتفق أو يتعارض هذا الوصف الذي يعكس ألف ليلة وليلة مع بناء قصة هوفمنستال التي دعاها:

«أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة؟»

تدور قصة هوفمنستال حول شخصية ابن تاجر موسر توفي أبواه وخلفا له ثروة طائلة تكفل له من العيش رغداً كبيراً، غير أنه ما أن بلغ الخامسة والعشرين من العمر حتى سأم حياة المجتمع، فأمر بغلق معظم غرف داره وأخلى طرف خدمه جميعاً ما عدا أربعاً منهم «عزّ عليه تعلقهم به وجوهر عنصرهم»(٤). ولما كانت لم تعد تراوده رغبة في صحبة الأصحاب ولا في رفقة امرأة مهما كانت على حظ منّ الجمال فقد انطوى عل نفسه وآثر الانعزال عن الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. إلا أنه لم يهب مع ذلك مواجهة الآخرين بل كثيراً ما كان يجول وحيداً في الحدائق والمنتزهات العامة يتأمل في صمت وجوه الأشخاص. كما أنه لم يقصر في اعتنائه بنظافة بدنه ولا بجمال يديه وزينة داره. وأصبح يواتيه اهتمام دفين بالسجاد المعقود، وفاخر الحرير والنسيج، والثريات، والأحواض المعدنية البراقة، ومختلف الأواني الخزفية على نحو غريب الشأن لم يألفه من قبل. ومن هنا «بدأ يرى بالتدريج كيف تعيش الحياة بكافة أشكالها وألوانها في أوانيه ومقتنياته. وجعل يتبين في الزخارف المتعانقة صورة سحرية لتعانق أعاجيب العالم»... «ويتعرف على الخصام الدائر بين ثقل العواميد ومقاومة الأرض الصلبة، وعلى تطلع كل مياه إلى العلا، ثم انحدارها، وعلى غبطة الحركة وجلال الراحة، وعلى الرقص وحال الموت»... «وعلى لون البحر الهائج ولمعان هدوئه، وعلى القمر والأجرام، والكرة الصوفية وحلقات التصوف بأجنحة السيرافيم النامية على جانبيها. حتى لقد انتشى بهذا الجمال الرائع ذي المغزى العميق طويلاً...».

«غير أنه كان يحس عدمية كل هذه الأشياء مثلما يحس جمالها؛ ولم تفارقه فكرة الموت على المدى الطويل بل كثيراً ما كانت تباغته وسط أناس يضحكون ويعجون، وكثيراً ما كانت تواتيه في الليل، وأثناء تناول الطعام».

«ولما كان لا يعاني مرضاً فقد كانت لا تأتيه فكرة (الموت) في صورة مرعبة مخيفة، وإنما في حلة مهيبة جليلة. وكانت تلح عليه أكثر ما تلح كلما انتشى بفكر جميل، أو بصورة شبابه الحسن ووحدة روحه. إذ كثيراً ما كان ابن التاجر يستمد اعتداداً كبيراً بذاته من خلال النظر إلى المرآة، أو التطلع إلى أبيات الشعراء، أو استعراض ما له من ثروة وفطنة. وما كانت تؤثر فيه الأمثال الدارجة ذات الطابع المتجهم. فقد كان يقول: «قدماك تسير بك إلى حيث تموت»، وكان يرى نفسه في حسن ملك تاه أثناء الصيد وسط غابة مجهولة وراح يخطو تحت أشجار عجيبة الشأن تجاه مصير رائع غريب. وكان يقول: «إذا ما تم بناء الدار، حل الموت»، وإذ به يرى المنية تصعد حثيثاً وهي مثقلة بغنائم الحياة فوق جسر القصر أو تلك الدار الحديثة القيام، بينما تحمل الجسر أسود مجنحة».

«وكان ابن التاجر يظن أنه يعيش في خلوة تامة مع نفسه، إلا أن خدمه الأربعة كانوا يحيطون به كالكلاب من كل جانب. ومع أنه كان لا يتحدث إليهم إلا في النادر فإن شعوراً ما كان يواتيه بأنهم يتفانون في خدمته. بل أنه راح يفكر في شأنهم بين حين وحين»(٥).

كانت مدبرة شئون داره امرأة عجوز،

أرضعته ابنتها المتوفية حين كان في المهد. وقد حرص ابن التاجر على أن يحتفظ بها في داره، فقد كانت تذكره بصوت أمه وعهد طفولته الحبيب.

وقد استحضرت هذه العجوز إلى الدار، بعد استئذان ابن التاجر، قريبة لها في الخامسة عشرة من عمرها. إلا أن هذه الفتاة كانت على حداثة سنها شديدة الانطواء على نفسها، تذعر من ابن التاجر كلما رأته وتتجنب نظراته. ومع هذا فما إنفكت المرأة العجوز تؤكد لرب الدار أن قريبتها تفضل الإقامة في بيته.

أما أحب الخدم إلى نفس ابن التاجر فكان ذاك الذي تعرف عليه للمرة الأولى في حفل عشاء بدار مبعوث ملك فارس في المدينة. فقد أقبل على خدمته في كثير من الاهتمام والاحتشام والرعاية والاتضاع حتى أنه لفت نظر ابن التاجر إليه أكثر مما فعلت أحاديث سائر المدعوين. وكم كانت غبطة ابن التاجر حين صادف في الطريق ذاك الخادم الذي اتجه إليه وحيّاه في وقار، ثم عرض عليه أن يعمل في خدمته. عندئذ قبله لتوّه وأصر على ألا يقدم له الطعام شخص سواه. وقد بلغ هذا الخادم من التعلق بسيده والتفاني على راحته أنه لم يشأ أن يترك الدار في ساعات المساء رغم السماح له بالترويح عن نفسه في تلك الأوقات. وهكذا صار ابن التاجر يزيد بمرور الوقت إعجاباً به وتقديراً لتفانيه.

ولأن انفرد هذا الخادم بتقديم الطعام لسيد الدار فقد كانت تحمل صحون الفاكهة والحلوى وصيفة لا تزيد على الصغيرة سوى عامين أو ثلاثة من العمر. وكانت على نصيب وافر من الحسن والجمال يتمثل في شفتيها وجفنيها، أما حركات جسدها وانثناءاته فكانت تبدو لابن التاجر وكأنها لغة مبهمة لعالم مستغلق مليء بالأعاجيب. وإن تكن فتنة هذه الفتاة قد حرّكت فيه إحساساً صوفياً إلى الجمال إلا أنها لم تشعل في جوانحه أدنى رغبة أو شهوة حسية.

وإذ أتى الصيف بحرارته القائظة فقد نزح ابن التاجر برفقة خدمه الأربعة إلى مقره الصيفي الذي اختاره على سفوح الجبال حيث دور الموسرين والأعيان. وهناك بينما كان يجلس في حديقته يطالع أسفار الحروب والغزوات كان

□ الفروسية صفة أساسية لأبطال قصص ألف ليلة وليلة.

يشعر أن عيون خدمه مسلطة عليه، بل تتنفس من داخل صدره مما دفعه إلى التفكير في نفسه على نحو مرهق لا طائل من ورائه.

وفي تلك الأيام جاءته رسالة من مجهول يحمل فيها حملة مسعورة على خادمه الأمين ويتهمه باقتراف جريمة شنعاء في دار سيده السابق مبعوث ملك الفرس. وقد زاد صاحب الخطاب على ذلك بسيل من التهديدات الموجهة لخادم ابن التاجر وإن لم يشر، ولو من بعيد، إلى نوع الجريمة التي يتهم بها التابع الأمين ولا ما الهدف من خطابه ذي اللهجة الحادة. وما أن جعل ابن التاجر يقلب الأمر في رأسه حتى اشتغل غضباً ولم يطق مجرد فكرة الاستغناء عن أحد من خدمه الأربعة، وهم الذين التحموا به حتى صاروا جزءاً من كيانه بحكم العادة وبحكم قوى أخرى خفية عليه. ومن ثم فقد شعر بالتهديد ينتقل إليه شخصياً وكأنما يطلب إليه أن يخرج على نفسه وأن ينكر عليها كل محبب إليها. هكذا قرر أن يمضي من بيته الصيفي إلى المدينة حيث يقيم المبعوث الفارسي

بهدف أن يستعلم هناك على ما يوضح له هذه القصة المغلقة التي أثارته وأزعجته. ولم يعلم خادم بنيته ولا بوصول الخطاب ومحتواه.

ولكنه عندما بلغ المدينة كانت الدنيا عصراً ولم يجد في دار الدبلوماسي الفارسي أحداً يستطيع التحدث إليه بشأن الموضوع الذي حضر من أجله، فقرر أن يعاود المحاولة في اليوم التالي على أن يأتي في ساعة أفضل من النهار.

ولما كانت داره التي في المدينة مغلقة، وجميع خدمه في بيته الصيفي بالجبل، فقد صار عليه أن يبحث عن مأوى يقضي فيه ليلته وكأنه وافد غريب. وكالغريب أيضاً راح يستكشف شوارع المدينة الرئيسية مع أنه كان يعرفها من قبل، حتى بلغ شاطىء نهر صغير جفت مياهه في تلك الفترة من العام. ثم ازدحمت في رأسه الأفكار وهو يسير وإذ به يجد نفسه في درب تسكنه المومسات بحي من أحياء الفقراء. وقد جعل يمضي في شوارع هذا الحي الذي لم يدر عنه شيئاً من قبل حتى صادف حانوت صائغ متواضع لم يلفت نظره إلى معروضات نافذته

سوى حلية قديمة ذكرته بمديرة منزله العجوز. فأراد أن يبتاعها لها ووطأ الحانوت على هذا الأساس. إلا أن صائغ الفقراء حين رآه وعلى سماته وهندامه علامات الثراء حاول أن يعرض عليه سائر سلعه ومجوهراته عسى أن يبتاع المزيد منها. فما كان من ابن التاجر إلا أن زاد فاشترى سلسلة ذهبية ليهديها وصيفته الحسناء التي تقدم له أطباق الفاكهة والحلوى أثناء تناوله الطعام. ولم يبد بعد ذلك أي استعداد في البقاء بالحانوت. وبينما الصائغ يطوي له الحليتين في ورق حريري ناعم وقع بصر ابن التاجر من خلال النافذة الوحيدة في الدكان على حديقة خلفية فيها بيتين لحفظ النباتات. وهنا شاعت في نفسه رغبة ما في أن يشهد ما في هذين المشتلين من نبات. فعاونه الصائغ على تلبية مطلبه وتركه يجول وحده في الحديقة التي بدت وكأنها مهجورة. إلا أن ابن التاجر ما لبث أن تبين فيها بعد فترة قصيرة وجه طفلة في الرابعة من العمر يحملق فيه بغضب وحنق من وراء زجاج أحد المشتلين. وقد بعث ذلك في نفسه ذعراً كبيراً لا سيما وأن ملامح الطفلة الصغيرة كانت على شبه كبير بسمات الفتاة الشديدة الانطواء ذات الخمسة عشر عاماً. فتحرك لتوه يريد ولوج المشتل كي يرى تلك الطفلة التي راحت تعوقه بيديها الضعيفتين عن الدخول فما أفلحت. كانت قسمات وجهها تعبر عن حقد دفين موجه إليه مما زاده قلقاً على قلق. وكي ينفض الذعر الكئيب عن نفسه راح يتحسس شعر الصغيرة يريد أن يربت على رأسها كما يفعل الأصدقاء، ولكنه ما لبث أن خطرت له استجابة بنت الخمسة عشر عاماً حين عاملها بنفس المنهاج في داره وكيف أدى ذلك معها إلى عكس ما كان يتمناه. فسحب يده من على رأس ذات الأربعة أعوام وحاول أن يسترضيها ببعض قطع النقود الفضية التي تبقّت معه، إذ كان لها رنين حسب أنه يرضي رغبة الطفلة في اللعب. ولكن الصغيرة قذفت بالنقود تحت قدميه وانصرفت من المشتل غاضبة. وقد ظل يرتعد قليلاً بعد أن ذهبت راجياً ألا تعود. فإذا ما تأكد من أنها غادرت الحديقة حاول بدوره أن يغادر المشتل. ولكن الطفلة كانت قد أغلقت الباب من الخارج. ولم ينفع طرقه على

الزجاج فتيلاً. وأخيراً عثر على مخرج خلفي أدى به إلى الطريق العام بعد أن اضطر أن يسير على لوح معلق في الهواء وأن يواجه خطر الموت المحدق في بقعة مهجورة كئيبة. ولكن الطريق العام كانت مجرد زقاق ضيق قبيح بلغه ابن التاجر بعد أن نال منه التعب والارهاق كل منال. وراح يمضي من درب إلى درب وهو يعتقد انه يسير في اتجاه يؤدي به إلى حي الأغنياء، فقد كانت به رغبة عاتية في الاستلقاء فوق مضجع مريح والذهاب في نوم عميق. ولكنه بدلاً من ذلك مر بثكنات الجنود. وأيقظته من أحلامه أصواتهم تناديه وإن لم يدرك ما تعنيه وإذ به يلتفت إلى فناء الثكنة وقد نزلت عليه خطوط الغسق فبدا في غلالة حزينة. وكانت ترتص في أحد جوانب الفناء خيول ترقد من تحتها جنود تغسل لها حوافرها. وكانت وجوه الجنود مصفرة وعيونهم متعبة، أما الخيول فكانت تبدو على عيونها المتكورة علامات الضيق والتبرم. وكان الحصان الأخير في الصف أكثرها حنقاً وأشدها رغبة في العدوان. بينما استلقى من تحته جندي هزيل غائر الوجنتين يجفف له حوافره وذاك يحاول أن يعضه في كتفه. فإذ رأى ابن التاجر هذا المشهد رق قلبه للجندي المسكين ورغب في الترويح عنه بهدية ولو كانت من النقود. وراح يبحث في جيوبه عن بعض العملات الفضية ولكنه سرعان ما تبين أنه كان قد عرض آخرها على الطفلة في المشتل وإن فقدت في الأرض بعد أن قذفت بها في ازدراء. فتذكر أنه لا زالت لديه بعض القطع الذهبية من المال وأراد أن يخرج إحداها فسقطت من جيبه حلية المرأة العجوز تحت حوافر الحصان. إلا أنه ما أن طأطأ يريد التقاطها حتى تلقى ضربة قوية في مؤخرة ظهره من حافر الحصان. وإذ راح يصرخ ويئن من الألم فقد نهض بعض الجنود في تكاسل وحملوه من كتفيه وساقيه إلى غرفة من غرفهم المتواضعة التي يخيم عليها الظلام أكثر مما يخترقها النور، وهناك وضعوه فوق مخدع حديدي وطيء وانصرفوا ليتركوه وحده مع هلع الموت الذي كان أقسى عليه من آلام جسده بمراحل. عندئذ راح يلعن خدمه الأربعة الذين ساقوه إلى هذه النهاية: تابعه الذي جاء بسببه إلى المدينة، ومدبرة داره التي أدت به إلى وطوء حانوت الصائغ، والفتاة الحسناء التي أراد أن يبتاع لها السلسلة الذهبية فأدى به إلى المقام إلى الحديقة المهجورة، وذات الخمسة عشر عاماً إذ شابه وجهها الغضوب ملامح الطفلة الصغيرة في المشتل الذي ما استطاع أن يغادره إلا بعد لأي ومخاطرة أدت به في نهاية المطاف إلى زقاق حقير ثم إلى التأرجح تحت حوافر الحصان.

«وفي مرارة شديدة راح ينظر شذراً إلى حياته السابقة وينكر على نفسه كل ما كان حبيباً إليها. فقد بلغ من كرهه لموته المبكر أن كره الحياة التي أدت إليه. واستهلك هذا الهياج الباطني ما تبقى لديه من طاقة أخيرة، فوقع مغشياً عليه يترنح بعضاً من الوقت في سبات سقيم. وما أن استيقظ بعدها حتى أراد أن يصرخ فقد كان لا يزال وحيداً، لكن صوته لم يغادر حلقه. وأخيراً تقيأ مرارة فدماء، وقضى نحبه معوج القسمات متأزز الشفتين بينما لثته وأسنانه عارية تخلع عليه مسحة شريرة مستهجنة»[٦].

بهذه الكلمات ختم هوفمنستال «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» لنسأل نحن أنفسنا: ما علاقة هذه القصة بالليالي الشرقية الأصلية؟

إننا لو ترجمنا قصة هوفمنستال بكاملها إلى العربية فلن يصعب علينا أن نميزها شكلاً ومحتوى عن ليالي ألف ليلة. ومع ذلك فقد أراد هوفمنستال، وهو ابن فيينا وشاعرها المدلل في نهاية القرن الماضي، أن يرتدي عباءة الشرق وهو يروي لنا هذه القصة وإن لم تكن ملامحه ومشاكله وكافة مقومات شخصيته الغربية قد فرضت نفسها فرضاً على مسار قصته وحددت من ثم قالبها وبدايتها ونهايتها. فلآن أردنا أن نفسر هذا الأثر الفني الذي خلّفه شاعر من أكبر شعراء اللغة الألمانية فما علينا إلا أن نتدارس الظروف التي كتب فيها هذا الأثر فهي وحدها التي تمكننا من وضع أيدينا على الأسس المادية التي نبدأ منها بحثنا.

وضع هوفمنستال هذه القصة وهو لا يزال ابن الواحدة والعشرين. وكان قد انتهى لتوّه من أداء خدمة عسكرية تطوعية فتحت عينيه، وهو ابن عائلة برجوازية موسرة في فيينا، على ما لم يره وما لم يدركه حتى ذلك الحين. فقد

□ كانت الأسواق ومحطات قوافل التجار مسرح لكثير من أحداث قصص ألف ليلة وليلة.

كان هوفمنستال عبقرية شعرية لمعت في مقاهي فيينا وصالوناتها الأدبية وما تعدى الثامنة عشرة من عمره. وكان نظير «ابن التاجر» في مستهل قصته: غنياً وموهوباً، صغير السن وإن يكن حكيماً نافذ العقل والبصيرة. يعتز بصداقته ويخطب وده شعراء وأدباء كبار من أمثال الروائي النمسوي «آرتور شنيتسلر» (Artur Schnitzler) ومواطنه الشاعر «بير هوفمان» (Beer-Hofmann) والشاعر الأرستقراطي النزعة صاحب النظرية الاستيطيقية المتعالية على الجمهور وحركة التاريخ «ستيفان جيورجه» (Stefan George). وجدير بالذكر أن الأخير على تعاليه قد قدم نفسه لهوفمنستال الشاب في مقهى كان يتردد عليه كثيراً آنذاك في فيينا ويدعى «جرينستايدل» (Café Griensteidl) وسارع بأن عرض عليه أن ينشر أعماله الشعرية في مجلته التي كان يصدرها «جيورجه» تحت عنوان: «صفحات من أجل الفن» (Blätter für die Kunst). وكان برنامجها، وهو البرنامج الذي سعت «حلقة جيورجه» (George-Kreis) فيما بعد إلى تنفيذه والسير على هداه، هو المحافظة على جمال الكلمة في «معبد الفن» بعد أن أصابها ما أصابها من تحطيم أخص عناصرها الاستيطيقية. ولم يلتفت «جيورجه» ولا حواريوه إلى أن تحطيم جماليات الكلمة والفن السلفي عامة كان ضرورة حتمها انهيار طبقة اجتماعية ــ هي طبقة البرجوازية الكبيرة والاقطاع الأوروبي ــ التي كانت تستأثر بحكم سيطرتها على وسائل الإنتاج بكل أسباب الترف والمتعة الفنية «الرفيعة» بينما تنكر على سواد الشعب العام أن يفهم تلك القيم الفنية أو يجرؤ على استيعابها وهو الذي لا يفضل إلا أكل الكرات والبصل؟!!!

ولم يكن «جيورجه» الذي كان بدوره حوارياً من حواريي «مالارميه» (Mallarmé) يقف وحيداً في نزعته الاستيطيقية المجردة في أوروبا آنذاك، فهذا هو «أوسكار وايلد» (Oscar Wilde) في انجلترا مثال الفنان الأديب المتعالي على المجتمع والجمهور حبيساً في قفصه أو معبده الفني إلى أن يلقى جزاء تعاليه على الواقع المادي للتاريخ وينزل إلى قبو المجتمع الانجليزي ــ إلى السجن ــ بعد أن عاش (نجماً) يسطع (فوق الجميع).

وينبهنا «ريشارد آليفين» إلى تعليق هوفمنستال الشاب على سقوط «أوسكار وايلد»: «لا معنى لأن ننظر إلى الأمر وكأن مصير أوسكار وايلد وكيان أوسكار وايلد شيئان منفصلان عن بعضهما وكأنما باغته القدر كما يهجم وغد شرس لئيم على طفلة ريفية خالية الذهن تحمل على رأسها سلة بها بيض... لقد كان يحس الحياة تهدده بلا انقطاع. ولم يكف هلع المأساة عن محاصرته. كان يتحدى الحياة بلا توقف. كان يزدري الواقع. وكان يحس كيف تنحني الحياة لتثبت فوقه من الظلمة»(٧).

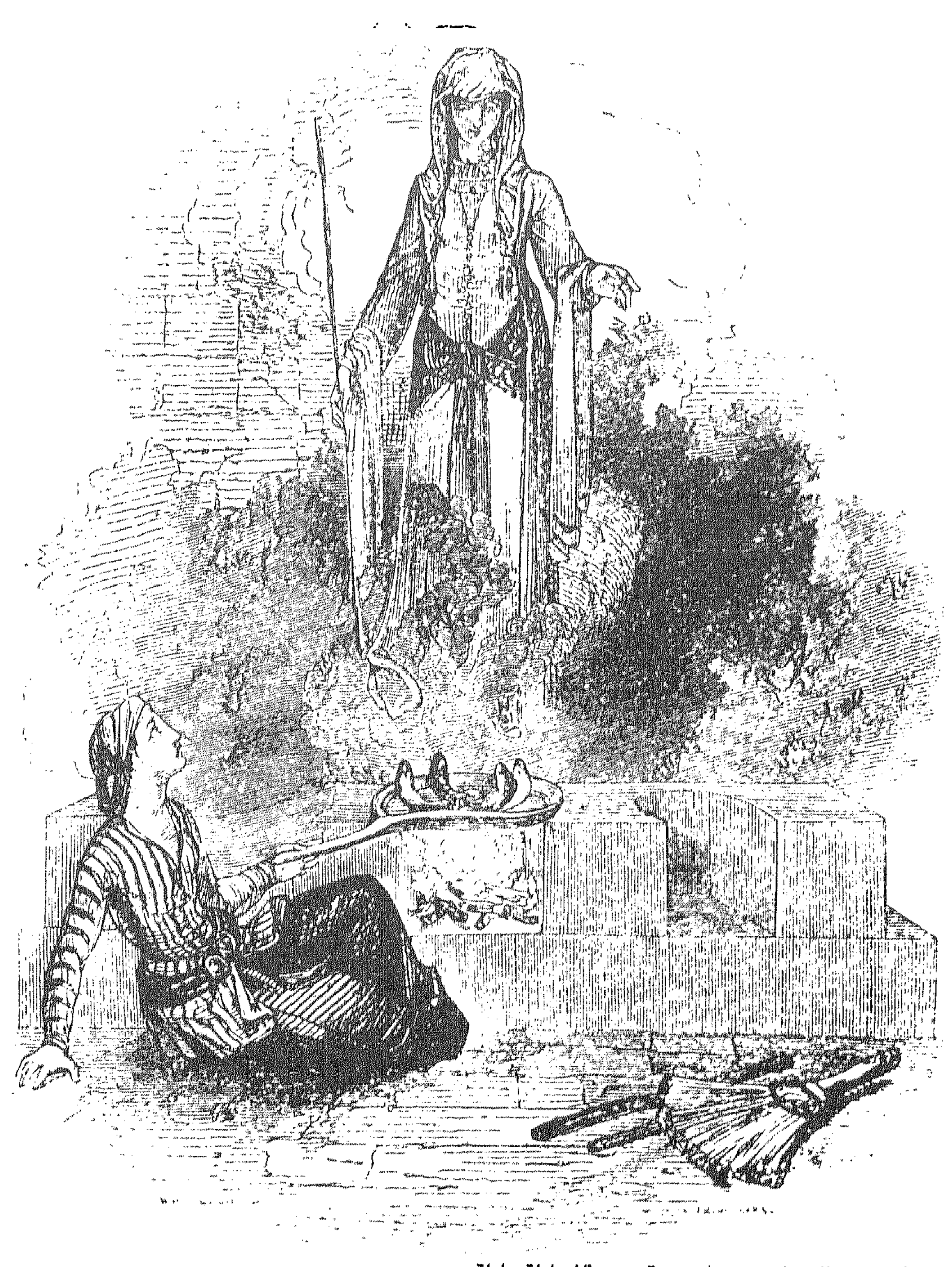
دوّن هوفمنستال هذه الكلمات معلقاً بها على رسائل «وايلد» من ظلام السجن (De Profundis) بعد مضي عام واحد على تأليف قصته «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» التي بدا وكأنه يريد أن «يفسر بها مجرى الواقع مقدماً على نحو غريب»(٨) (آليفين). فما هو الذي دفع هوفمنستال إلى كتابة هذه الأسطورة وماذا أراد أن يقول بها؟

أشرنا من قبل إلى أن هوفمنستال قد أتى من أسرة مرفهة ثرية في فيينا أثناء النصف الأخير من القرن الماضي. وقد كان طبيعياً، وهو الشاعر الموهوب منذ نعومة أظفاره، أن يصبح ظاهرة مدللة من ظواهر أرسقراطية الفكر والفن آنذاك في عاصمة النمسا إلى أن حدث ما قشع القناع عن بصيرة الشاب هوفمنستال: فقد عاش في فترة تجنيده تجارباً تتناقض تناقضاً كبيراً مع واقعه الأرستقراطي السالف الذكر. كان عليه وهو الفنان الجمالي المرهف الحس أن يعيش ويخبر حياة الوحل والتراب لا حياة الصالونات والمقاهي الفاخرة التي تعودها. وتفتحت عيناه على زيف ونقص تلك الحياة الجمالية المجردة التي كان يحياها ترفاً وفكراً، والتي راحت تلهث وراءها طبقة معينة تصعد كالقشدة على وجه المجتمع وتصر على أنها الوحيدة المختارة لهذه الحياة المنعمة..!

لقد أدرك هوفمنستال في تلك السن المبكرة خطورة هاتيك الحياة التي تنكر الواقع وتتعالى عليه، تلك الحياة التي يتهافت عليها جزء من

النـاس تهافت الذبـاب على القمـامـة، ثم هم لا يرضون بها ــ بتلك النزعـة الجزئيـة التي تفصل بين قيم الجمال وتطور التاريخ ــ بديلاً..

لقد أدرك هوفمنستال خطورة هذا الفصل المفتعل بين الفن والمجتمع، بين الفكر والمادة، وشعر أول ما شعر بهذا الخطر يتهدده لا سيما وأنه قد نبع



□ مشهد من «الصياد» وهي إحدى قصص الف ليلة وليلة.

في بيئة برجوازية ارستقراطية تؤمن بذلك الفصل وتعززه، فهو في نهاية الأمر يحمي مصالحها ويؤكد لها (خلودها) على مر التاريخ..!

وكانت «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» أول انعكاس فني في تاريخ الشاعر هوفمنستال أراد به أن يصور خطورة الانفصال عن الواقع، وفصل الفكر عن الحياة. وحتى يتمكن ن ذلك فقد صور لنا «ابن التاجر» في صورة راهب في محراب الفن اعتزل حياة المجتمع وعاش ما وسعه العيش في دائرة من تأملاته الصوفية الجمالية. ليس الواقع المادي ولا حتى الحس هو الذي تصدر عنه أفعاله ورغباته، وإنما ينظر إلى الواقع من خلال عالمه المثالي الذي يشبه عالم المعبد المعبق بالبخور وهو كاهنه الوحيد. كما لم يصنع لحياته وحدها ثوباً بادي الكمال كهذا، وإنما أيضاً لموته[9]. ويعيش في هذا الواقع المحرف إلى أن يخرج منه ويرى النصف المظلم من الحياة، واقع الطبقات الفقيرة وعندئذ يموت كما يموت السمك عندما يخرج من الماء. وأي منية تنتظره جزاءاً له على رهبنته وصوفيته؟ يموت ميتة الأشرار وكأنه اقترف أكبر ذنب في الحياة: أن يجرؤ على أن ينفصل عن الحياة. وإني أوافق «ريشارد آليفين» على رأيه بأن ذنب ابن التاجر يكمن في «طهارة ذيله» (Unschuld)، أو بمعنى أصح في بعده عن الحياة التي لا تعرف الطهر. ولكني أفتقر لدى مؤرخي الأدب الألماني ومفسريه — و «آليفين» من بينهم — إلى ما يوضح لنا الأسلوب أو الطريقة الفنية التي استخدم بها هوفمنستال ألف ليلة وليلة في صياغة وتقديم مادة قصته هذه. لقد أحدث هوفمنستال عملية جراحية خطيرة توغل فيها بالمشرط إلى بنية ألف ليلة وليلة واستطاع أن يفصل تعاشق المادة بالروح فيها، وهو سر متعتها وإمتاعها، كي يثبت بطريقة عكسية أن هذا الفصل هو أساس الشقاء والموت والفناء. وعندي أن شخصية «ابن التاجر» في قصة هوفمنستال قد جاءت لهذا السبب عكس صورة «أبناء التاجر الذي مات فأسلموا أنفسهم لمغريات الحياة»[10] في ألف ليلة وليلة. ولا عجب فأقاصيص ألف ليلة تعكس الواقع من خلال الواقع، من خلال الشعب الذي نسجها، وهي من أجل ذلك كانت تعاني من الكبت والتهوين بل والاستهانة بشأنها في كتب مؤرخي الأدب العربي الذين كانوا خلال القرون الماضية يؤرخون تاريخ آداب الطبقات الحاكمة. ويحدثنا المستشرق «هانس فير» (Hans Wehr) أن بعض هؤلا المؤرخين كان يأخذ على ألف ليلة وليلة جنوحها إلى الخيال[11]. ومع هذا فإن الخيال هنا أصدق معبر عن الواقع يتوغل فيه ويكشف عنه ويتحرك طليقاً كما يتحرك الطفل ساذجاً وطليقاً في تعرفه على الواقع. أبعد هذا نسأل أنفسنا لِمَ يقبل أطفال العالم على قصص الف ليلة وليلة؟ ولماذا لا يقبل فنان أصيل كـ «هوفمنستال» على ارتداء بردة هذه الأساطير الشرقية ليحذر وينذر من جزئية وخطورة الاتجاه الجمالي المطلق في الفن؟ وإن كان من أجل هذا (الغرض)[12] قد ارتداها بالعكس..؟

إنه يشير في رأيي مباشرة إلى عودته إلى ألف ليلة وليلة أثناء الفترة التي صاغ فيها «أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة». فهو يقول في مقالته التي صدر بها ترجمة «إنو ليتمان» لليالي: «لم نبرح هذا الكتاب حين كنا غلماناً، وحين بلغنا من العمر عشرين عاماً، وحسبنا أن شوطاً بعيداً صار يفصلنا عن طفولتنا، عدنا إليه من جديد، وكم عاد يجذبنا إليه!»... «كم كنا نشبه ذاك الأمير التائه بعيداً عن بلده، وأبناء التاجر الذي مات...»[13].

ولكنه جدير بنا ألا ننسى أن هوفمنستال لم يكن قد قرأ ترجمة كاملة لليالي حين وضع أسطورة «الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة» عام ١٨٩٥. فالترجمة الكاملة التي قام بها «إنو ليتمان» لليالي لم تصدر تباعاً إلا ابتداء من عام ١٩٢٣، كما سبق أن ألمحنا في بداية هذا المقال. بينما كانت أشهر الترجمات الأوروبية لليالي الشرقية حتى ١٨٩٥[14]:

ترجمة «أنطوان جالان» Les milles et une nuits, contes arabes traduits par Antoine Galland, Paris 1704-1717.

وقد واصلها «كوسان دو برسيفال» M. Caussin de Perceval عام ١٨٠٦.

وترجمة «إدوارد لين» The Thousand and one Nights, commonly called in England

the Arabian Nights Entertainments, translated by E.W. Lane, 3 voll. London 1841.

وترجمة «بيـرتون» Sir Richard Burton, Translation of the 1001 Nights, ed. by G.H. Mc Carthy, 6 voll. London 1887.

وتـرجمـة Habicht v.d. Hagen u. C. Schall، الطبعة الخامسة في ١٥ جزءاً، صدرت عام ١٨٤٠ في بريسلاو وشتوتجارت.

ثم ترجمة فرنسية بعنوان: Enis El Djelis ou Histoire de la belle Personne, contes des 1001 nuits, pub. en arabe et traduites avec des notes par A. de Biberstein-Kazimirski, Paris 1846.

ولا يبدو لي أن هوفمنستال قد اطلع على ترجمة (John Payne) التي صدرت عام ١٨٨٢، والتي «زعم (مترجمها) أنها أول ترجمة إنجليزية كاملة للنص العربي» (القلماوي) فهوفمنستال يشكو في مقدمته لترجمة «ليتمان»: «إن ما وقعت عليه أبصارنا في السابق من هذا الأثر لم يعد النقل عنه بتصرف، وعرض محتواه دون التزام بنصه، فمن ذا الذي يستطيع أن يعالج عملاً شعرياً كاملاً في قالب آخر دون أن يحطم أخص مقومات جماله وأعمق ما فيه من طاقة وقوة؟.. ومن المؤكد أنه قد حوفظ على المغامرة في حد ذاتها، فهي لم تندثر وإنما كان يروى مضمونها ويعاد روايتها؛ غير أن الأمر هنا لا يتعلق بمجرد وقائع مغامرة ــ فماذا لو عرفنا هوميروس عن طريق مجرد سرد مضمون مغامراته»[15]. ولا عجب فترجمة (J. Payne) المذكورة صدرت في عدد محدود للغاية لم يتعد الخمسمائة نسخة، وفيها حاول المترجم أن ينقل الشعر العربي في الليالي شعراً إلى لغته، بينما اتجهت معظم الترجمات الأوروبية في القرن التاسع عشر وما قبله، وترجمة «جالان» على رأسها، إلى التصرف والتحوير أو الحذف في بعض المواضع لموافقة الذوق الأوروبي.

ولكني لست أرى أن عدم اكتمال الترجمات الأوروبية لليالي ألف ليلة حتى ١٨٩٥ أو تحوير بعضها للمضمون سواء بالاضافة أو الحذف قد لعب دوراً أساسياً في صياغة هوفمنستال لقصته التي هي موضوع هذا البحث (أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة). فهذه الترجمات، على كل ما يؤخذ عليها من مآخذ لغوية أو علمية، كانت تستهدف إمتاع القارىء الغربي بمحاولة نقل روح الليالي الشرقية إليه. أما أسطورة هوفمنستال فتستهدف على العكس من ذلك إنذار مؤلفها ومن ثم إنذار القارىء بخطورة الاتجاه المعاكس لألف ليلة وليلة: اتجاه التصوف الجمالي والانخراط في تأملات مثالية بعيدة عن الواقع المادي للحياة. وإن أسطورة هوفمنستال لتصدم القارىء الذي لم يستعد لها بكل معاني الصدمة، فهي تريد أن تفتح عينيه على ما لا يراه وتحادثه بلغة الحلم عما يهدد كيانه شر مهدد. وهي بالتالي لا تريد أن تسلي وأن تمتع بل أن تحذر وتنذر بأسلوب غير أسلوب الامتاع مجرد الامياع.. وإنما بالكشف عن متناقضات واقع سقيم جزئي دون استخدام رتوش تخفف من أثر ذاك التناقض المخيف..

أنعجب بعد هذا إذ نرى نفراً من معاصري هوفمنستال ذوي النزعة المثالية في الفن، وعلى رأسهم «جيورجه»، قد انفضوا عن شاعرنا وعدّوه قد مات في عالم الفن الخلاص منذ أن استنّ لنفسه تلك الجادة الفنية التي استهلها بأسطورته المذكورة ــ عام ١٨٩٥ ــ ولم يحد عنها بقية حياته الأدبية؟

لكن هوفمنستال لم يمت وإنما اندثر معاصروه المثاليون الذين آثروا أن يتقوقعوا في أبراج كلماتهم الشعرية المتعالية على النزول إلى معترك التاريخ.. ●

■ المقالة مأخوذة من مجلة «فكر وفن» العدد رقم ١٦.

الهوامش

(١) راجع الأصل الألماني: Einleitung zu dem Buche gennant die Erzählungen der Tausendundein Nächte, von Hugo von Hofmannsthal, in: Die Erzählungen aus den Tauseinundein Nächten, übertragen von Enno Littmann, Band I im Insel-Verlag, S. 7-15.

قارن أيضاً ترجمتي العربية لمقدمة هوفمنستال المذكورة بـ «فكر وفن» العدد الحادي عشر، ص ٦٠ ــ ٦٤.

(٢) راجع الأصل الألماني لهذه القصة في: Hugo von Hofmannsthal, Die Erzählungen, S. Fischer Verlag, 1968, S. 7-28.

(٣) الحاشية رقم (١).

(٤) الأصل الألماني للأسطورة، ص ٧.

(٥) مترجم عن الأصل الألماني، ص ٨ ــ ٩.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٧) انظر: Die Verwandlung Hofmannsthals; in: Richard Alewyn, Über Hugo von Hofmannsthal, Vandenhoeck & Ruprecht, Göttingen, S. 169-70.

(٨) المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٩) راجع الحاشية رقم (٥): النص المترجم من «وإذ به يرى المنية»... حتى «اسود مجنحة».

(١٠) المرجع السابق.

(١١) راجع تعقيب هانس فير في: Arabische Märchen aus der Welt von Tausendundeine Nacht, W. Goldmann Verlag, München, S. 161.

(١٢) يشير «آليفين» إلى أن «هوفمنستال عندما سئل عما يريده بقصته أجاب منفعلاً أنه على القارىء أن يطالعها كـ «حكاية» ــ بلهجة فيينا الألمانية (G'schicht') ــ ولكني أرى أنه ليس على مؤرخي الأدب أن يلتزموا بتفسير الأدباء لأعمالهم، فهم ــ كما بين مصطفى سويف في رسالته عن «الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة» ــ لا يستطيعون في كثير من الأحيان أن يفسروا آثارهم إلا كمن يستطيع أن يفسر سلوكه: من جانب أو جوانب جزئية. وقد اخترت في نص المقالة كلمة (الغرض) بالنسبة لقصة هوفمنستال حتى أتجنب لفظة «الهدف» وإشعاعاتها التي تخلفت عن معارك الأدب في الوطن العربي خاصة خلال الخمسينات.

(١٣) الحاشية رقم (١).

(١٤) راجع في هذا الصدد: Brockelmann: Geschichte der arabischen Literatur, Bd. II. S. 61.
وكذلك تعقيب «إنو ليتمان» على ترجمته الألمانية لألف ليلة وليلة، وقد سرد فيه تاريخ أهم الترجمات الأوروبية لهذا الأثر الشرقي في نهاية المجلد السادس (انظر الحاشية رقم ١).
ثم راجع أيضاً رسالة الدكتوراه التي قدمتها سهير القلماوي لجامعة القاهرة ونشرتها عام ١٩٦٦ بدار المعارف بمصر تحت عنوان: ألف ليلة وليلة (مكتبة الدراسات الأدبية).
وأخيراً يجدر مراجعة: Thèmes et Motifs des milles et une nuits, Essai de Classification par Nikita Elisséef, Institut Français de Damas, 1949, (Les traductions p. 69).

(١٥) الحاشية رقم (١).

ألف ليلة كما يراها أدباء ألمانيا

يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe

● «إن محمداً في إعراضه عن الشعر كان منطقياً مع نفسه إلى أقصى الحدود حين حرم كافة الأساطير. فقد كانت ألاعيب ذاك الخيال الأرعن الذي يحوم فيما بين الواقع والمستحيل ويصور غير الممكن وكأنه حقيقة لا تقبل التجريح، أنسب ما يكون في عرف الحسية الشرقية إلى الراحة الرخية، والكسل المريح. وقد تكاثرت هذه الأشكال الهوائية المتأرجحة فوق أرضية من الأعاجيب إلى ما لا نهاية له في عهد الساسانيين، وهو ما تعرضه لنا «ألف ليلة وليلة» في أمثلة مصفوفة على خيط محلول. وإن طابعها الذي يميزها أن ليس لها غاية خلقية، وعليه فإنها لا تمضي بالإنسان عائدة به إلى ذاته، وإنما تنطلق به إلى خارج نفسه حيث الحرية المطلقة. وما أراد محمد هو عكس هذا على خط مستقيم».

من: الحواشي والتذييلات على «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» لجوته.

وقد انتوى جوته في ديسمبر عام ١٨٢٤ أن يعلق على «ألف ليلة وليلة» في مجلة «الفن والحضارات القديمة» (Kunst und Altertum)؛ وفي نهاية ديسمبر من نفس العام دوّن هذه الكلمات:

«ألف ليلة وليلة. (طبعة) بريسلاو. روعة ورؤيا. يبتهج لها العالم والجاهل».

وهو يكتب في مسودة أحد تعليقاته على ألف ليلة وليلة (عن نفس الفترة): «المادة واقعية، راهنة

ولا شك، كثيرا ما يفعم غناها الذي بلا ضفاف، ولا يثقل أبداً.

المعالجة الخيالية تحرر الفكر، وإن راحت تطوف على الدوام في حلقة معينة.

الأنفاس العاطفية التي في القصائد تجمع الأشتات، عائدة إلى الإحساس الذاتي بما لا يحتمل المقاومة.

وعليه يتعسر أن يوجد ما يفوق هذا الأثر أهمية وخطورة».

جيورج كريستوف ليشتنبرج(*) George Christoph Lichtenberg

● «إن في ألف ليلة وليلة من العقل السليم ما يزيد على ما لدى الكثيرين ممن يتعلمون العربية، وإلا لكانت بين أيدينا ترجمة سائر أجزائها».

الأخوان جريم Die Brüder Crimm

● «تبين الأخوان يعقوب وفيلهلم جريم أن ثمة علاقة تربط بين ألف ليلة وليلة وبين ثمانية من الأساطير الشعبية الألمانية التي قاما بجمعها، وهي: «السماك وزوجته» (De Fisher un sine Fru)، و «المحتال ومعلمه» (De Gaudeif un sien Meester)، و «ستة في رحلة حول العالم» (Sechse kommen durch die ganze Welt)، و «الجبل الذهبي» (Der goldene Berg)، و «العصافير الثلاث» (De drei Vügelkens)، و «ماء الحياة» (Das Wasser des Lebens)، و «الروح الذي في الكوب» (Der Geist im Glas)، و «زيمليبرج» (Simeliberg). ويعلق الأخوان جريم على ألف ليلة وليلة في مجلدهما الذي أصدراه عام ١٨٢٢ ليستكملا به كتاب «أقاصيص للبيت وللأطفال» (Kinder-und Hausmärchen) بقولهما: «إنها تحمل في عمومها طابع الأساطير، جادة ومرحة، وهي لإن كانت قد ارتبطت بزمان معين ومكان محدد بفعل بعض الظروف التاريخية، وخاصة بهارون الرشيد ذائع الصيت، فإن ذلك لم يحل دون انتفاض خيالها، من جهة أخرى، على طويته وراحته. ومن ثم نلمس فيها تكويناً مقصوداً، فهي لا يمكن أن تعد تراثاً تاريخياً خالصاً، ومثال ذلك رحلات السندباد التي تشكل في مجموعها أوديسة صغيرة. (...) إن معظمها يتألف من أساطير بديعة المضمون، شيقة العرض، فيها حلاوة رقيقة. حتى أنه ليصعب على المرء أن يشبع من إطراء هذه الألوان المتوهجة، وذلك العطر الذي يفوح من خيال مزدهر لا تعكير فيه ولا تشويش، وتلك الحياة التي تتنفس من كافة الأنحاء والأرجاء».

هرمان بروخ(**) Hermann Broch

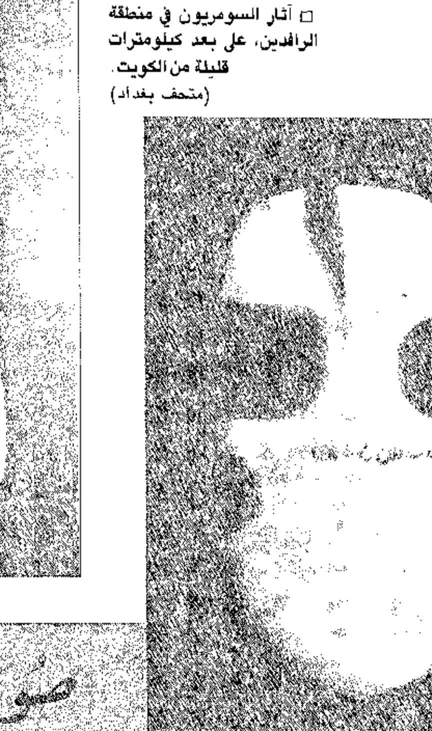
● يعالج في مقالة له حول الأعمال النثرية لهوفمنستال علاقة هذا الشاعر الكبير بألف ليلة وليلة فيقول:

«.. ذلك أن قالب الأسطورة يوافق مواهب وحدود هوفمنستال، وليس أخيراً ما يتميز به من بصرية وكتمان للذات. والأساطير الشرقية على وجه الخصوص بصرية إلى أقصى الحدود لما فيها من سحر يكاد أن يشابه زخارف السجاد، فشخوصها ليست أفراد، ولا هي بالأنا محمولة ولا تحمل «أنا»، إنما هي أنماط مرئية خالصة؛ فهي «الـ» خليفة، و «الـ » وزير، وابن التاجر «الـ» شاب، و «الـ» سقاء، وهي عرائس زجاجية تبدو وكأنها بلا ثقل، شفافة وبدون ظل: فهي شخوص بشرية صغيرة من صنع الخيال قد تستطيع يد راوي الأسطورة الممسكة بخيوطها أن تنفخ فيها حياة علوية عجيبة تبدو وكأنها قابلة للرؤية مع أنها ظاهرية منتحلة، ولكنها لا تستطيع مع ذلك أن تتغلب على زوال الثقل والظل من مسرح العرائس المضاء والحائم حولها؛ فطريقة الرؤية البصرية في الأسطورة راسخة لا ترتج».

ترجمة: مجدي سوف

(*) ولد عام ١٧٤٢ وتوفي في ١٧٩٩. كان استاذاً للفيزياء في جامعة جوتنجن، وفيلسوفاً، وناقداً ساخراً، وأديباً لامعاً في عصره. ونلمس من العبارة التي أوردناها عنه مرارة سخريته إذ كانت الف ليلة وليلة لم تترجم كاملة إلى اللغات الأوروبية بعد. (المترجم).

(**) شاعر نمسوي وكاتب روائي. ولد عام ١٨٨٦. تأثر بجيمس جويس. هاجر إلى اميركا، وتوفي في ١٩٥١. (المترجم).

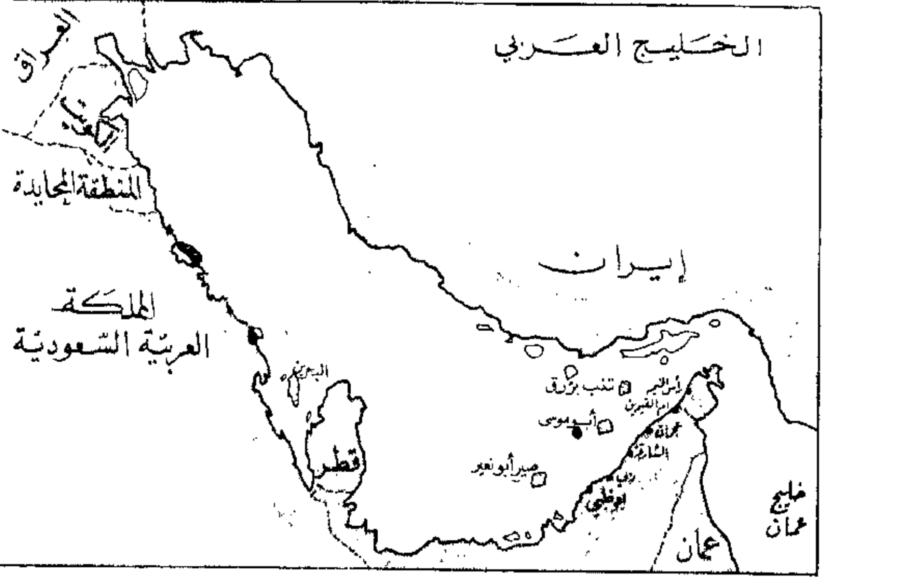


□ آثار السومريون في منطقة الرافدين، على بعد كيلومترات قليلة من الكويت. (متحف بغداد)

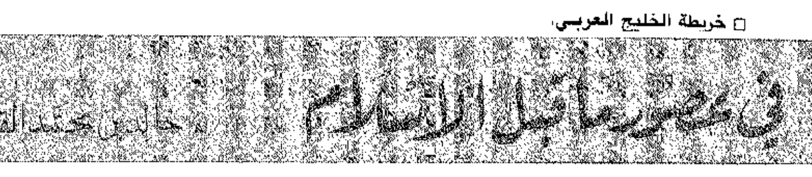
صور من كفاح عرب الخليج

إن للخليج العربي أهمية كبيرة من نواحٍ عدة، لهذا فقد أصبحت هذه المنطقة محط أنظار جميع الدول الكبرى منذ العصور القديمة إلى عصرنا هذا كما أن سمات الخليج كانت وما تزال عربية في مختلف المناحي.

فقد عاش الإنسان العربي على سواحله منذ العصور الحجرية القديمة. وقد أبدت المكتشفات الآثارية التي اكتشفت في مناطق مختلفة منه آثاره. كما جاء ذكر لأقوام عربية مدوناً في ألواح السومريين[1] وهذا يدفعنا إلى القول بأن العرب هم شعب هذا الساحل منذ العصور القديمة وقد ذكروا في العصر السومري ــ نتيجة للصلات التجارية ــ وهذه أقدم إشارة عن العرب ترد إلينا، كما أن الشعب المعيني الذي تطورت حضارته في اليمن كان في الأصل من البحرين وللتقارب والتشابه اللغوي بين العرب وسكان العراق ساعد في تنمية الصلات السياسية والتجارية. ولم يكن لعرب الخليج في العصور القديمة دولة قوية[2] مما جعلهم يدفعون الأتاوة إلى حكومات العراق القديم. وبدفعهم الأتاوة أبعدوا عنهم خطر تهديد المواصلات التجارية طيلة حكم الساميين في وادي الرافدين.



□ خريطة الخليج العربي.



في عصور ما قبل الإسلام

خالد بن محمد القاسمي

بعد أفول الدولة الكلدانية وسقوط بابل على يد الأخمينيين سنة ٥٣٨ ق.م. بقي الخليج العربي بعيداً عن تحديات هذه الدولة لأنها لم تكن ذات عناية أو أثر واضح على الخليج العربي[3].

وبمجيء الاسكندر الكبير إلى الشرق تبلورت الاطماع الأجنبية بصورة واضحة في الخليج العربي بمشاريعه التي جاء بها لاحتلال شبه الجزيرة العربية ولاكتشاف سواحل الخليج العربي ولهذا فقد قام بما يلي:

١ ــ تحسين الملاحة في نهر الفرات والنهوض بميناء بابل إلى ما كان عليه في العصر الكلداني[4].

٢ ــ بناء مدن باسم الاسكندرية في هذه المنطقة لتكون محطات تجارية مهمة منها مدينة الاسكندرية (جاراكس)[5] والتي نرى أن الدوافع الرئيسية التي حدت به إلى تأسيسها كانت عسكرية وبحرية.

٣ ــ إرسال البعثات الاستطلاعية لمعرفة سواحل الخليج العربي، من أجل السيطرة السياسية والاقتصادية فقد قام:

(أ) أرخاس البيلي برحلة بالخليج العربي وصلت حتى جزيرة (البحرين)[6].

(ب) أندروثينس الثاسوسي الذي مضت رحلته إلى ما هو أبعد بعض الشيء من رحلة سابقة[7].

(ج) هيرون الصولي: ــ الذي تذكر المصادر اليونانية أنه وصل إلى السويس.

(د) «الكسيكارتس: ــ الذي قام برحلة عكس تلك الثلاث إذ أبحر من مصر قاصداً

الخليج العربي لكنها فشلت.

(هـ) نيارخوس: ــ الذي صدرت له الأوامر بالطواف حول شبه جزيرة العرب، ولم يكن يبدأ رحلته حتى توفي الاسكندر في بابل سنة ٣٢٣ق.م، ولكن رغم ذلك لم يكتب لأطماع الاسكندر الكبير النجاح، وذلك لأن هذه الحملات فشلت بسبب لم تذكره المصادر اليونانية والذي نعتقده أن العرب قاوموا هذه الرحلات وأرغموها على الفشل. وبقيام الدولة السلوقية في العراق على أنقاض انقسام إمبراطورية الاسكندر عادت المحاولات من جديد للسيطرة على الخليج العربي. وفي هذه الفترة كانت الإمارة العربية (جرها) هي المسيطرة على الخليج العربي وكانت منظمة تنظيماً جيداً ولها علاقات تجارية مع جنوب شبه جزيرة العرب والهند من جهة ومع بابل والأنباط من جهة أخرى.

كما أن عرب جرها كانوا المجهزين الوحيدين إلى سلوقيا رغم أنها لم تكن مدينة سلوقية أبداً، لكنهم كانوا شركاء السلوقيين في التجارة داخل البلاد العربية.

ولعل ذلك يشبه إلى حد بعيد التعاون السلوقي النبطي من أجل المصالح الاقتصادية المشتركة.

ومن هنا ذكر المؤلفون الكلاسيكيون المدينة ووصفوا أهلها بأنهم أصحاب ثروة طائلة، وكانت أول إشارة لهم جاءت عند أجاثر خدس، ثم ذكرهم سترابون. كما جاء ذكرهم في حملة أنيطوخس الثالث سنة ٢٠٥/ ٢٠٤ق.م والتي كان يبغي بها مد نفوذه على الخليج العربي، وبالدبلوماسية والحنكة السياسية أبعدت الإمارة العربية خطرهم عن الخليج[٨].

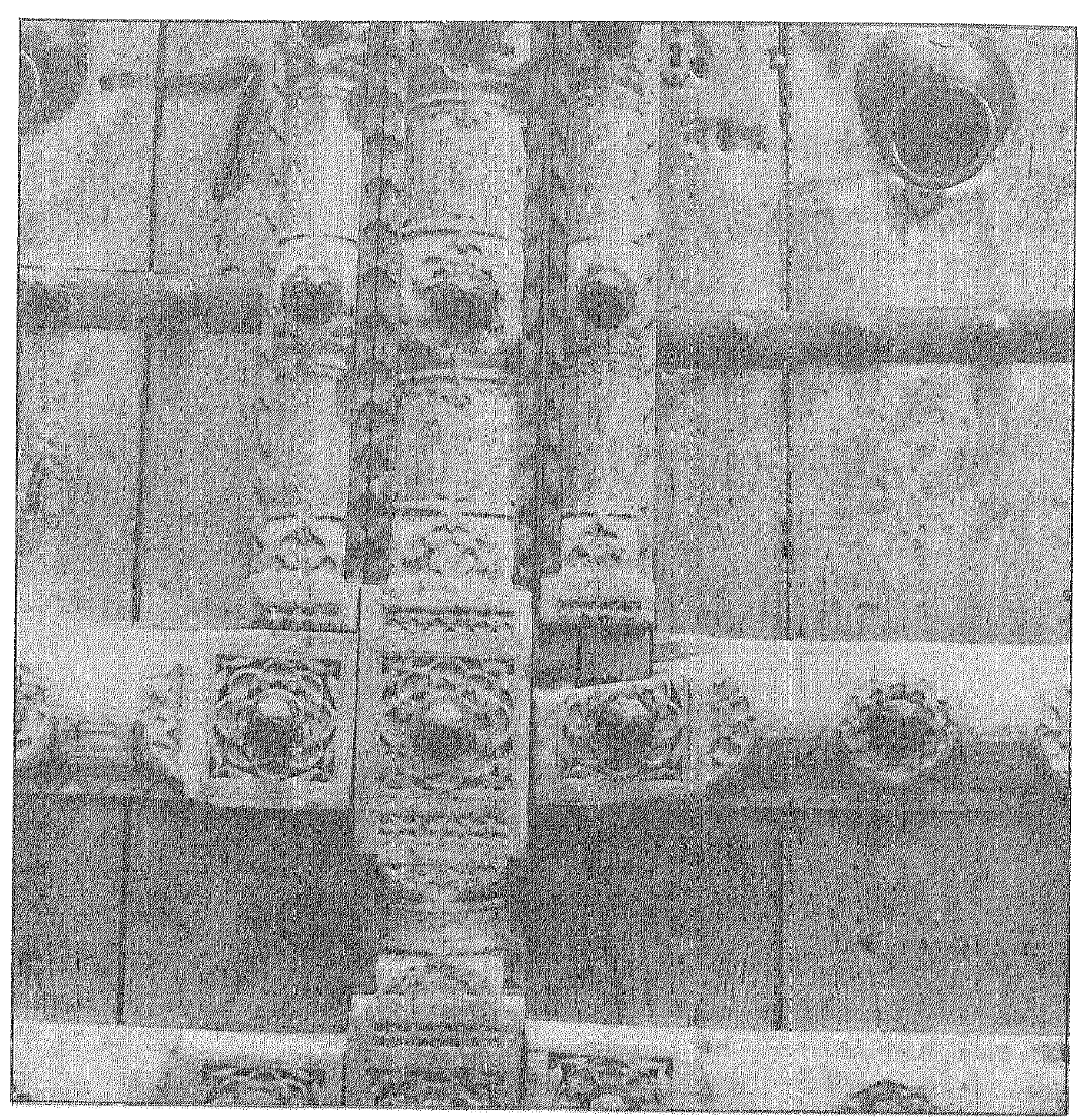
وما نستنتجه من المؤلفين اليونان والرومان أن أهل جرها عرب زاولوا الزراعة[٩]. كما زاولوا التجارة فكانوا الوسطاء الوحيدين للتجارة بين الهند وجنوب شبه الجزيرة وبين بابل والأنباط في الخليج العربي. مما يؤكد أنهم عرب وجود قائمة تعود إلى جرها وهي تحمل أسماء عربية صرفة من بينها اسم يتم اللات. وقد ذكر لنا الأخباريون العرب أن سكان الخليج العربي هم قبائل عربية منهم قبائل تميم التي جاء ذكرها في جغرافية بطليموس مع جرها[١٠] ثم قبائل عبدالقيس والتي ذكرها بطليموس باسم (Aboukaium)[١١].

كما ذكر بلينوس أسماء قبائل عربية مختلفة كانت تسكن على الجانب العربي[١٢].

وقد ذكر الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) أن منطقة الجرعاء هي منازل لبني تميم ثم لسعد من بني تميم[١٣]، والظاهر من المصادر العربية أن هذه المنطقة مع كاظمة والبحرين وعُمان هي منازل تميم وعبدالقيس وبكر بن وائل والأزد[١٤].

ومما هو جدير بالملاحظة أن إمارة جرها بقيت مركزاً مهماً ومدافعاً أميناً عن عروبة الخليج طيلة العهد الهيلينستي. ولكن في بداية العهد الروماني أخذت هذه المنطقة تفقد أهميتها تدريجياً، لا سيما بعد أن تحولت خلجانها المائية إلى خلجان رملية، فانتقل أهلها إلى المراكز التجارية الأخرى. فانتقل قسم منهم إلى هرمز واستقروا فيها[١٥] إذ كانت مركزاً تجارياً هاماً في العهد الروماني[١٦] إضافة إلى مدينة خاراكس وفورات، والتي يشغل فيها العرب مركزاً مرموقاً[١٧] وكانت مدينة خاراكس التي عرفت باسم ميسان فيما بعد[١٨] أهم هذه المدن على الخليج وأكبر ميناء تجاري مع الشرق[١٩] وقد كونت مملكة عربية باسم (مملكة كرخينيا) بعد أن قهر حاكمها العربي (Hyspaosimes) البلدان المجاورة[٢٠] كما كانت هذه المملكة العربية تتمتع بالاستقلال الذاتي طيلة العهد الروماني ــ الفرثي، ولها علاقات تجارية مباشرة مع تدمر وتأتيها الوفود المختلفة مثل الوفد الصيني الذي زار هذه المملكة من أجل التجارة[٢١] ومما هو جدير بالملاحظة أن سكان مدينة خراكس هم من العرب الذين استقروا في هذه المدينة قبل مجيء الاسكندر إلى الشرق. كما عدها بلينوس: بأنها أحد بلدان جزيرة العرب[٢٢] وأنها مأهولة بالعمانيين[٢٣].

كما ذكر أنيسوورث: بأنها تعود لأمير عربي زمن الاسكندر الكبير[٢٤] وكانت هذه الامارة مع المدن العربية الأخرى القوة المدافعة ضد دخول الأجانب عسكرياً إلى الخليج العربي، وقد اتجه العرب في مثل هذه الظروف إلى الاستيطان في جميع سواحل الخليج العربي. وقد ذكر أن العرب قبل العهد الساساني قد استقروا في



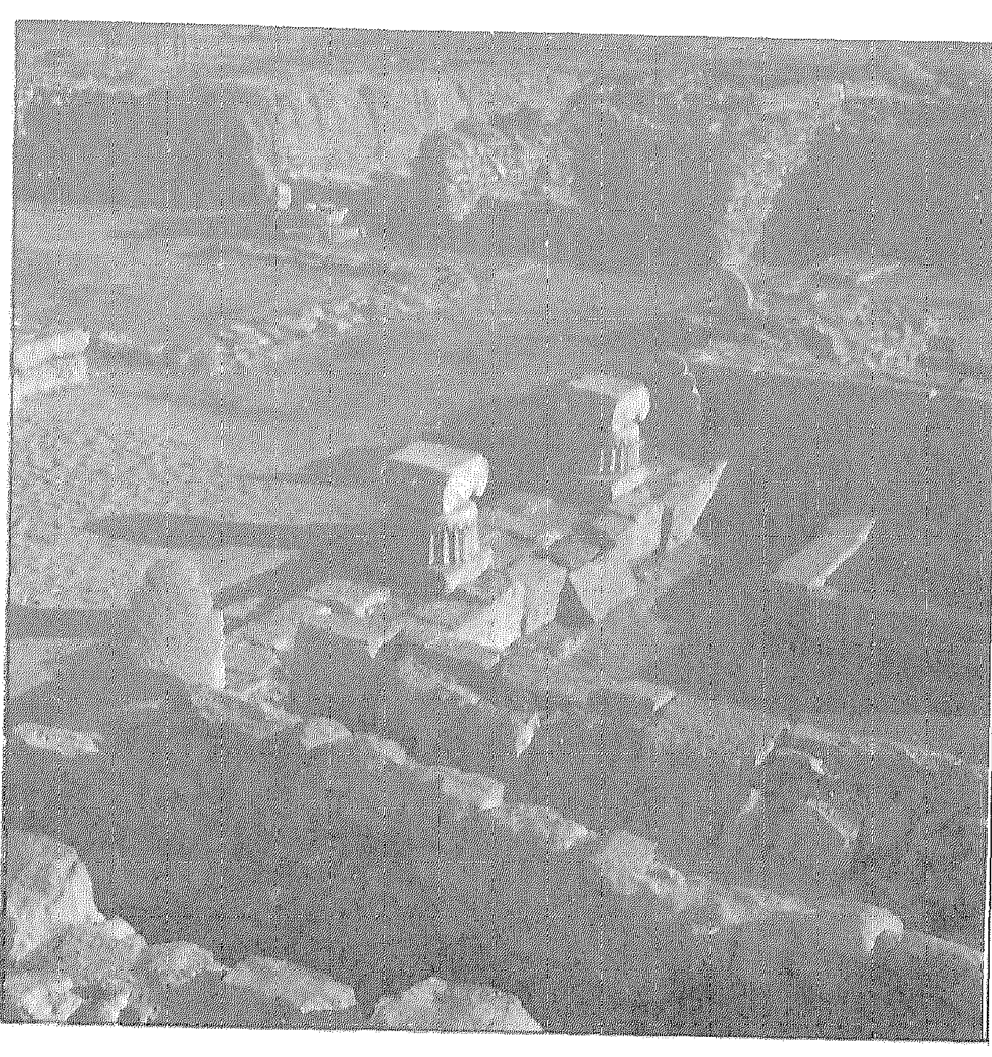
□ نقوش على باب قديم يعود للقرن السابع عشر. (تصوير روجيه فيوليه ـ Roger-viollet)

السواحل الجنوبية من إيران وهيمنوا عليها(٢٥) كما كان للقبائل العربية هناك أثر خطير قبل قيام الدولة الساسانية(٢٦).

حيث بسطوا نفوذهم وسلطانهم على كرمان، ويذكر كورثيوس رفوس أن العرب كانوا في العشرات الأولى من القرن الثالث الميلادي في كرمان وذارس. لذا لم نجد مقاومة عربية في الخليج العربي طيلة العهد الروماني ـ الفرثي وقبيل ظهور الدولة الساسانية لوجود العرب على ساحليه. ثم أن الفرثيين لم يكن لهم اهتمام في الخليج العربي بقدر ما انصب اهتمامهم على طريق الحديد الذي يربط الصين بدول الشرق الأدنى. لذا قاموا ببناء محطات تجارية تطورت إلى مدن مهمة مثل مدينة غولغاش قرب بابل.

أما في العهد الساساني ـ البيزنطي، وبالنظر لأطماع الساسانيين الفرس في الخليج العربي والسيطرة عليه، فإن مقاومة العرب اشتدت ضد هذا التدخل الأجنبي والأطماع التوسعية. وبعد أن وجد عرب الخليج أن الفرس الساسانيين يحاولون ويخططون لاحتلال مناطق الخليج العربي وضرب النفوذ العربي فيه.

فقد قاومت إمارة ميسان العربية الملك



□ بقايا من معبد يوناني في جزيرة فيلكا الواقعة في خليج الكويت.

الساساني أردشير مقاومة ضارية ولم يستطع احتلالها إلا سنة ٢٢٦م وقتل آخر حاكم عربي فيها ثم أننا نجد القبائل العربية في الخليج العربي أخذت تقاوم النفوذ الساساني الذي بدأ يمتد إليه إذ هاجمت قبائل تميم وعبدالقيس حدود الفرس مما دفع سابور الثاني سنة ٣٥٠م إلى مهاجمتهم وغزوهم.

كما ثار عرب البحرين ضد الفرس ويذكر الطبري: أن سابور في حملته على البحرين قضى على المقاومة العربية وقتيبا وبعد الصلح أسكن قبائل تغلب وعبدالقيس وبكر بن وائل منطقة كرمان[٢٨] وبني حنظلة بالرميلة من بلاد الأهواز، وما هذا في الواقع إلا امتداد للوجود العربي والذي سبق هذه الفترة[٢٩].

وقد تجدد كفاح العرب للساسانيين إذ هاجمت قبائل تميم قافلة تجارية ساسانية مما دفع بكسرى ايحسرويز أن يكتب إلى عامله على (هجر) وهو المكعبد أن ينتقم من تميم[٣٠].

والظاهر أن العرب استمروا في مقاومتهم للوجود الساساني ورغم أن قسماً من العرب أرغموا على الاشتراك بالأسطول الساساني، ويذكر لنا رينو: أن العرب اشتركوا مع الفرس في تكوين بحرية فارسية جديدة بالاعجاب[٣١].

لقد كان نفوذ الساسانيين في الخليج العربي نظرياً أكثر منه فعلياً، إذ كانت البحرين تخضع لحكم الساسانيين عند ظهور الاسلام أما حاكمها الفعلي فهو رجل من العرب على دين النصرانية. كذلك لم يحتكر الفرس الملاحة في الخليج العربي، فلدينا اشارات تفيد أن هناك أناساً من العرب يمتلكون السفن التي كانت تبحر في الخليج العربي إذ وردت إشارة إلى تلك السفن في معلقة طرفة بن العبد[٣٢]:

عدوليه أو من سفين أبن يامن
يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

فسفن عدوليه كما تذكر المراجع نسبت إلى قرية عدولي في البحرين[٣٣] وليس نسبة إلى ميناء أدولس في الحبشة[٣٤] ثم أن ابن يامن يملك سفن تبحر في الخليج العربي أيضاً. يضاف إلى ذلك السفن التغلبية[٣٥] التي أشار إليها عمرو بن كلثوم في معلقته:

ملأنا البر حتى ضاق عنا
وماء البحر نملؤه سفينا[٣٦]

ثم الاشارات الكثيرة إلى الملاحين من قبائل الأزد، التي اعتمدت عليها القوات الاسلامية في حملاتها على السواحل الشرقية في الخليج العربي والهند[٣٧]. ●

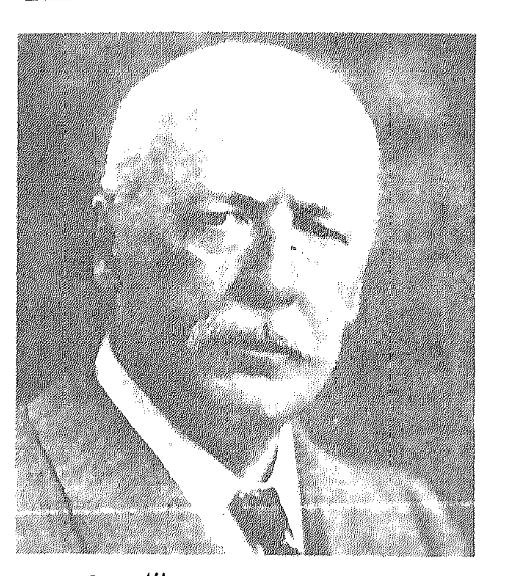
الهوامش

(١) إذ جاء ذكر سبأ (دولة سبأ العربية) في النصوص السومرية راجع: د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت ١٩٦٨ ــ ١/٥٤٤.
(٢) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام.
(٣) ت. ويلسن: الخليج العربي: تعريب د. عبدالقادر يوسف، الكويت، مكتبة الأمل، ص ٨٣.
(٤) د. أسد رستم: تاريخ اليونان من فيلبيوس المقدوني إلى الفتح الروماني. بيروت ١٩٦٩، ص ٣١.
(٥) المصدر نفسه، ص ٤٦.
(٦) ويلسن: الخليج العربي، ص ٩٧، والدكتور أسد رستم: تاريخ اليونان، ص ٤١.
(٧) المصادر نفسها.
(٨) جورج فضلوا حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة د. يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص ٤٥.
(٩) والظاهر أن الجرهيين كانت لهم قرى كما بنوا لهم ابراج ويمكن أن يكونوا قد زاولوا الزراعة قبل دخولهم في نزاحات حربية.
(١٠) نقلاً عن د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ١٨/٢.
(١١) المصدر نفسه ٤/٤٨٥.
(١٢) بيلينوس: بلاد العرب من تاريخ بيلينوس. ترجمة محمود شكري محمد (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد الثالث ١٩٥٤، ص ١٤١.
(١٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب. تحقيق ابن النجدي، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٧٣.
(١٤) الطبري: تاريخ ٥٧/٢، ودائرة المعارف الاسلامية ج ٤١ ٥/٤٧٤ و ٣٧/٢ و ٤١/٤.
(١٥) عبدالرزاق الحصان: الامارة العربية في ميسان. مجلة المجمع العلمي العراقي م ٣، ص ٢٠١ وما بعدها.
(١٦) د. منذر البكر. العرب والتجارة الدولية منذ أقدم العصور إلى نهاية العصر الروماني: مجلة المربد، عدد ٤ البصرة ١٩٧٠، ص ٨٦.
(١٧) حوراني: العرب والملاحة، ص ٤٨.
(١٨) هي مدينة الاسكندرية والتي بناها الاسكندر الكبير سنة ٣٢٤ق. م وتعرف كارخ بالأرمية، للتفصيل راجع: ش. أ. نورلمان، ميسان. ترجمة فؤاد جميل، مجلة الأستاذ م ١٢، بغداد ١٩٦٤، ص ٤٤٥.
(١٩) كذلك كان أكبر ميناء بالنسبة للبحار الجنوبية.
(٢٠) وقد وجدت له نقود تحمل تأريخ ١٢٤، ١٢٣ ق. م.
(٢١) نورلمان: ميسان، مصدر سابق ذكره، ص ٤٥٧، ٤٦١.
(٢٢) بيلينوس، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٣٠.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٣١.
(٢٥) عبدالرزاق الحصان: ميسان الامارة العربية، ص ٢٠٢.
(٢٦) ذهبت أعداد كبيرة عن طريق البحر من قبائل عبدالقيس من البحرين وكاظمة، لمزيد من التفصيل انظر:
الدينوري، الأخبار الطوال، القاهرة ١٩٦٠، ص ٨٤، والطبري: تاريخ الرسل والملوك. ط. دار المعارف ١٩٦٨ ٢/٥٥.
(٢٧) أرثر: كريستنس: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة د. يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧، ص ٧٥.
(٢٨) الطبري: تاريخ ٥٧/٢ وحوراني: العرب والملاحة، ص ٩١.
(٢٩) الطبري: تاريخ ٥٧/٢، ودائرة المعارف الاسلامية ٤٣/٤.
(٣٠) إذ أن العرب نزحوا من السواحل الجنوبية من ارض فارس وتوغلوا شرقاً إلى خوزستان ثم كرمان وفارس.
(٣١) الطبري: تاريخ ١٦٩/٢/١٧٠.
(٣٢) الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب ٦٤٨/٢.
(٣٣) ديوان طرفة بن العبد: ترجمة د. علي الجندي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٣.
(٣٤) يذكر ابن منظور عن الأصمعي أنها قرية بالبحرين. ويقول التبريزي جزيرة أسفل من أوال وأوال أسفل من عمان. التبريزي: شرح القصائد العشر. ترجمة محي الدين عبدالحميد، مصر ١٩٦٤، ص ١٣٦.
(٣٥) مجلة المربد: العدد الرابع، البصرة ١٩٧٠، ص ٦٥.
(٣٦) د. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ط ٢، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٧٦.
(٣٧) البيت في معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي. انظر: شرح القصائد السبع لابن الأنباري.



إتفاق بين مصر وانكلترا على السودان(١)

وقعت يوم ١٩
كانون الثاني
سنة ١٨٩٩



□ اللورد كرومر.

□ بطرس غالي باشا.

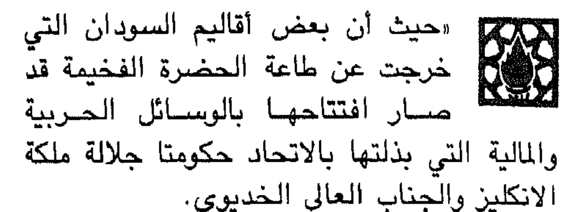
اعداد شذا عدرة

تمثل الفترة الممتدة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٦، ذروة نشاط الاستعمار البريطاني في كل من مصر والسودان.

ففي أعقاب الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، تدخلت انكلترا في شئون السودان وفرضت على الحكومة المصرية إخلاءه في عام ١٨٨٥، ومن ثم استرداده في عام ١٨٩٦، كما فرضت اتفاقية عام ١٨٩٩ التي تمت بموجبها استعادة السودان باسم إعادة الفتح، وجعلت من انكلترا شريكاً مع مصر في إدارة شؤونه. وظل النزاع قائماً بين مصر وبريطانيا حول تبعية السودان حتى عام ١٩٣٦، حيث ظهرت فكرة وحدة وادي النيل على يد الأحزاب الوطنية في مصر، وتبعها عقد معاهدة ١٩٣٦.

وفيما يلي نص اتفاقية عام ١٨٩٩ التي وقعت يوم ١٩ كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٩٩ وتمَّ إلغاؤها في تشرين أول/ أكتوبر ١٩٥١.

(١) وقع اللورد كرومر باسم انكلترا، وبطرس باشا غالي باسم مصر في ١٩ كانون الثاني سنة ١٨٩٩ هذا الاتفاق.



«حيث أن بعض أقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التي بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالي الخديوي.

وحيث قد أصبح من الضروري وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه من الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن وما تستلزمه حياة كل جهة من الجهات المتنوعة.

وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المرتبة على ما لها من حق الفتح وذلك بالاشتراك في وضع النظام الإداري والقانون الآنف ذكره، وفي إجراء تنفيذ فعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل.

وحيث أنه تراءى من جملة وجود أصوبية إلحاق وادي حلفا وسواكن إدارياً والأقاليم المفتتحة المجاورة لها.

فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم لهذا الشأن على ما يأتي:

المادة الأولى ــ تطلق لفظة السودان على جميع الأراضي التي لم تحتلها الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٣، والأراضي التي كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل الثورة الأخيرة وفقدت منها مؤقتاً، ثم فتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد، والأراضي التي تفتحانها بالاتحاد من الآن فصاعداً.

المادة الثانية ــ يستعمل العلم البريطاني والعلم المصري معاً في البحر والبر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها سوى العلم المصري.

المادة الثالثة ــ تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان إلى موظف واحد بلقب «حاكم عموم السودان» ويكون تعيينه بأمر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

المادة الرابعة ــ كافة القوانين، وكافة الأوامر واللوائح التي تكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها، وكيفية أولويتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام.

وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسري مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أي قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة.

وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة، وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي.

المادة الخامسة ــ لا يسري على السودان أو على جزء منه شيء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بأجزائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السابق بيانها.

المادة السادسة ــ المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكن بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أوروبية.

المادة السابعة ــ لا تدفع رسومات الواردات على البضائع الآتية من الأراضي المصرية حين دخولها إلى السودان، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضي المصرية، إلا أنه في حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء آخر من موانيء ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج، ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن.

المادة الثامنة ـــ فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان، ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه.

المادة التاسعة ـــ يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام.

المادة العاشرة ـــ لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصليات بالسودان، ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

المادة الحادية عشرة ـــ ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه، وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن.

المادة الثانية عشرة ـــ قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٣ تموز سنة ١٨٨٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة والروحية وبيعها وتشغيلها. ●

● **المرجع: «الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب» أصدرته جريدة الايام.**



أرسطو (٣٨٤ ق. م ـــ ٣٢٢ ق. م.)

● ولد في ستاجيرا بمقدونيا. ذهب إلى أثينا في الثامنة عشرة. تتلمذ على أفلاطون. وضع نظرية وفلسفة الدولة المدينية متجاهلاً الثورة الكبيرة التي نشبت في عهده: ثورة الانتقال إلى العصر الهليني المقترنة بإقامة امبراطورية وضع مخططها الملك فيليب ملك مقاطعة مقدونيا اليونانية ونفذ المخطط نجله الاسكندر الكبير، ومن المفارقات العجيبة أن أرسطو كان معلم ومدرس الاسكندر الكبير.

يعتبر أرسطو من أكبر المفكرين الذين عرفهم العالم بشتى عهوده. يرى أن الانسان حيوان سياسي بطبعه وأن اكتمال الحياة الانسانية لا يكون إلا من خلال المجتمع السياسي. وتكون الحياة في مثل هذا المجتمع السياسي. وتكون الحياة في مثل هذا المجتمع موجهة وفقاً لقانون موضوع لصالح الفرد والمجتمع على السواء. ويكون هذا القانون هو المقياس الذي يقاس به صلاح الانسان المواطن. وهو يهتم من ـــ الزاوية السياسية ـــ بما يمكن تحقيقه عملياً في ظل الظروف القائمة في بلد ما ومن ثم فهو يعتبر الواقعية من أهم صفات رجل الدولة. ويقوم المجتمع السياسي الذي يدعو إليه أرسطو على الطبقة الوسطى التي يعتبرها العمود الفقري للمجتمع السياسي الذي يدعو إليه. وهو يؤثر بصورة عامة النظام الديمقراطي في الحكم، وعلى عكس أستاذه أفلاطون، يرفض أرسطو فكرة المستبد المستنير. كما يرفض الشيوعية الأفلاطونية. ويتمسك بالملكية الفردية وحقوق المواطن مع استثناء العبيد. وكان أرسطو يمثل فكرة العبودية. ويؤسس القانون على الطاعة. والطاعة على أساس الكرامة الفردية. يقسم أرسطو الحكومات إلى استبدادية وديمقراطية وثالثة وسط بين الاستبدادية والديمقراطية.

تنبأ أرسطو ـــ قبل ماركس ـــ بأن الصراع بين الأغنياء والفقراء هو سبب الثورات. وقال بتقسيم سلطة الحكومة إلى سلطة استشارية تختص بالتشريع والشؤون الخارجية وإلى إدارية ـــ أي تنفيذية ـــ وإلى قضائية. وقد سبق أرسطو أيضاً مفكري العصر الحديث إلى فكرة تقسيم السلطات الثلاث.

لا أسألكم عليه أجراً (*)

قال عثمان بن عطاء الخراساني: انطلقت مع أبي نُريد هشام بن عبدالملك، فلما قَرُبْنا إذا بشيخ على حمار أسود عليه قميص دَنِس، وجُبّة دنِسة، وقلنسوة لاطِئةٌ[1] دنسة، وركاباه من خشب؛ فضحكت منه، وقلت لأبي: من هذا الأعرابي! قال: اسكت! فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عَطَاء بن أبي رباح[2].

فلما قرب منا نزل أبي عن بَغْلته، ونزل هو عن حماره، فاعتنقا وتساءلا، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام؛ فما استقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما.

فلما خرج أبي قلتُ له: حدِّثْني ما كان منكما. قال: لما قيل لهشام: إن عَطَاء بن أبي رباح بالباب أَذِن له؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه.

فلما رآه هشام قال: مرحباً مرحباً! ههنا، ههنا، ولا زال يقولُ له: ههنا ههنا، حتى أجْلَسه معه على سريره، ومسَّ بركبتِه ركبتَه ــ وعنده أشرافُ الناس يتحدثون فسكتوا. فقال له: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقَسِّم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم. قال: يا غلام: اكْتُب لأهلِ مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لِسَنة.

ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهلُ الحجاز وأهلُ نجد هم أصلُ العرب، وقادةُ الاسلام، تردُّ فيهم فضولَ صدقاتهم. قال: نعم! يا غلام اكتب بأن تُردّ فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أميرَ المؤمنين؛ أهلُ الثغور يَرُدّون من ورائكم، ويقاتلون عدوّكم، تُجْرِي لهم أرزاقاً تدرّها عليهم؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور. قال: نعم، يا غلام، اكتب بحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين: أهل ذمتكم لا يُكلَّفُون ما لا يطيقون؛ فإن ما تَجْبونه منهم معونةٌ لكم على عدوكم. قال: نعم، يا غلام: اكتب لأهل الذمة بألا يكلَّفوا ما لا يطيقون! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، اتَّق الله في نفسك، فإنك خُلِقْتَ وحدك، وتموت وحدك، وتُحْشَر وحدك، وتحاسَبُ وحدك، ولا والله ما معك ممن ترى أحدٌ!

فأكبَّ هشام يَنْكُت[3] في الأرض، وهو يبكي، فقام عطاء.

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه؛ فقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا. فقال: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فوالله ما شرب عنده قَطْرَة ماء. ●

(*) غرر الخصائص:١١٧.
(١) لاطئة: لازقة.
(٢) تابعي من أجلاء الفقهاء، ولد باليمن ونشأ بمكة، فكان مفتي أهلها، ومحدثهم، وتوفي فيها سنة ١١٥هـ.
(٣) النكت: قرعك الأرض بعود او بإصبع، وهو فعل المفكر المهموم.



ابن باديس، عبدالحميد (١٨٨٧ ــ ١٩٤٠)

● رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ١٩٣١، ولد في قسنطينة بالجزائر وتعلم في الزيتونة بتونس. أصدر مجلة «الشهاب». هاجم الاستعمار ورفض تولي أية مناصب دينية. أنشأ كثيراً من المدارس لتعليم العربية والحفاظ على الدين الاسلامي، فحفظ للجزائر عروبتها. ألف تفسيراً للقرآن. وتوفي بقسنطينة.

ليوناردو

د. رياض العايلي





كان ليوناردو الابن غير الشرعي للسيد بيرو (Piero) الكاتب بالعدل من امرأة تدعى كاترين (Caterina) وقد ولد في فينشي (Vinci) عام ١٤٥٢. وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره انتقل أبوه إلى فلورانسا (Firenze) وألحقه بمرسم فيروكيو (Verrocchio). هناك برز ليوناردو بين أقرانه التلامذة بسبب مستوى أبيه الاجتماعي وبسبب حسن ثقافته وشخصيته الفريدة، وفوق هذا وذاك بسبب قدرته الأكيدة على الرسم. وكان أشهر عمل له بالاشتراك مع فيروكيو هو عمادة المسيح (صالة افيزي Uffizi). ففي هذه اللوحة رسم ليوناردو الملاك النحيل الأشقر الجميل والموجود على يسار اللوحة. كما رسم جزءاً من المنظر الطبيعي فوق رؤوس الملائكة حيث تتماوج المياه والجبال لتمتزج بالوشاح الرقيق للجو. ويظهر الأسلوب الفلورانسي حتى في أعماله المستقلة مثل لوحات السيدة العذراء الموجودة الآن في ميونيخ ولينينغراد، والبشارة التي تشبه إلى حد كبير التوابيت البرونزية التي صنعها الأخوان جيوفاني وبيرو دو ميديتشي (Giovanni e Piero de Medici). ويستطيع المرء أن يرى في جناحي الملاك خلاصة دراسته عن طيران الطيور. وقد كتب ليوناردو في مخطوط طيران الطيور: أن الطائر العظيم سيطير وستملأ شهرته العالم. وفضلاً عن أن هذه النبوءة تحققت فيما بعد فإن كلماتها



□ الملائكة والمنظر الطبيعي وهو الجزء الأيسر من لوحة عمادة المسيح للرسام قيروكيو Verroccohio ـ صالة اوفيزي Uffizi ـ فلورانس ـ ايطاليا (١٧٧ × ١٥١. سم)

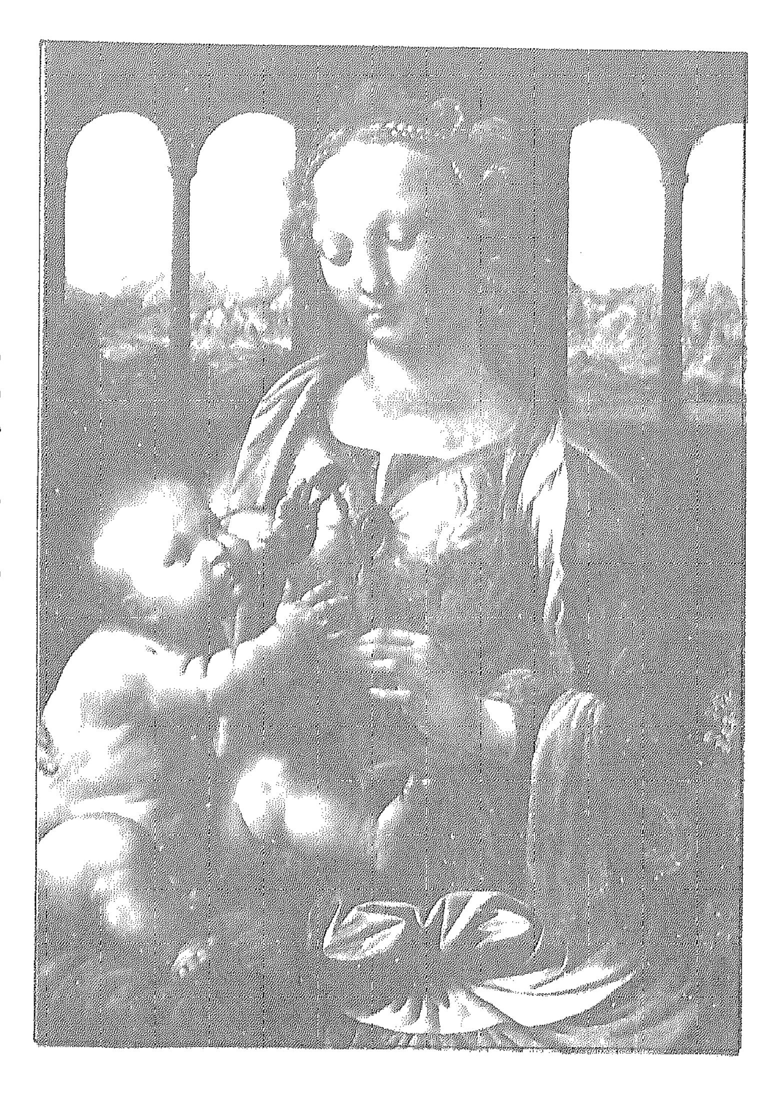
عهد إلى «قيروكيو» رسم لوحة «عمادة المسيح» في العقد الثامن من القرن الخامس عشر وقد أوكل «قيروكيو» إلى تلميذه ليوناردو Leonardo رسم الملاك الموجود على اليسار والمنظر الطبيعي في خلفية اللوحة وتمثل هذه اللوحة مرحلة من أهم مراحل تاريخ الديانة المسيحية. وهي تقبّل المسيح للتعميد المقدس من المعمد القديس جوفاني Giovanni في نهر الأردن.

تعبر عن رغبته في أن يفهم آلية عمل الجناح، ذلك السر الذي كان يجعله يحلم في أن يجعل طيران الإنسان أمراً ممكناً.

إلى هذه الفترة تعود الصورة المسماة جنيفرا بنشي (Ginvera Benci) فادوز (Vaduz)، صالة ليختنشتاين (Gall. Liechtenstein) وفيها يظهر السعي الدائب وراء الدقة الفيزيولوجية الذي امتد من الأسلوب الفلمنكي إلى الأسلوب الفلورانسي في التصوير لتلك الفترة.

في عام ١٤٧٢ أصبح ليوناردو عضواً في نقابة الرسامين في فلورانسا، وفي عام ١٤٧٦ شهرت به الرقابة الليلية واتهم بمسلكه اللاأخلاقي، إلا أنه بُرِّىء من التهمة. وفي عام ١٤٨٠ عهد إليه رهبان دير سان دوناتو اسكوبيتو بإعداد نقوش المذبح لكنيستهم. وأطلق على هذا العمل اسم تعبد المجوس (صالة اوفيزي) غير أنه لم يستطع إنهاءه بسبب سفره إلى ميلانو.

تبرز الرسوم في التعبّد كأجرأ تأليف قام به ليوناردو حتى لو قورنت تلك اللوحة بلوحاته المتأخرة مثل لوحة سيدة الصخور ببنائها الهرمي أو لوحة العشاء الأخير بتقسيمها إلى ثلاثات.



: عذراء القرنفلة أو العذراء والطفل ــ ميونيخ Munich ــ التي بيناكوتيك Alte Pinakothek

هي من اوائل اعمال ليوناردو وهي متواضعة الحجم (٤٧ . ٦٢ سم) يمثل موضوع اللوحة احد اكثر مواضيع الفن العربي انتشارا في تلك المرحلة، حيث مثل فنانو ذلك العصر السيدة العذراء مريم والطفل المسيح بعدة طرق مختلفة. غالبا ما يعتبر هذا العمل واحدا من عملين دعي كل منهما «العذراء مريم» وكان ليوناردو قد رسمها على حاشية أحد رسومه في عام ١٤٧٨. يظهر في الرسم تاثر ليوناردو باسلوب فيروكيو وذلك في البناء المتماسك للاشكال، غير أن باستطاعة المرء أن يلاحظ فروقا دقيقة في الضوء المنتشر على الثياب والأجساد والأزهار

بعث بها لورنزو العظيم (Lorenzo il Magnifico) إلى بلاط لودوفيكو المورو (Ludo-vico il Moro) سيد ميلانو ليقدم إليه قيثارة. وكان ليوناردو هو الوحيد الذي يستطيع العزف عليها. وبعد انتهاء مهمته بقي في لومباردي (Lombardia) وعرض خدماته على الدوق لودوفيكو في كتاب استدعاء أجمعت الآراء على صحته برغم خلوه من توقيعه. والكتاب الآن جزء من المخطوطات الأطلسية. وقد ذكر فيه ليوناردو كافة الحقول التي بالامكان استخدامه فيها: مهندس عسكري، واضع خطط استراتيجية، صانع أسلحة. وفي أوقات السلم «مؤلف» أبنية، مهندس هيدروليك، رسام، نحات.

وكان ليوناردو كثير النشاط في لومباردي في نهاية القرن الخامس عشر. فقد كان يعمل في هندسة قبة الدوومو (Duomo) في ميلانو والدوومو والقلعة في بافيا (Pavia). ورسم لوحتي سيدة الصخور والعشاء الأخير لكنيسة سانتا ماريا دللي غرازي. وكذلك كان يعد حفلات البلاط ويصمم الأزياء ويدير التمثيل وكان من إنتاجه العمل المسرحي المشهور عيد الجنة الذي قدم في القلعة في ٢٣ كانون الثاني عام ١٤٩٠.

أخذ ليوناردو يستعد لرسم العشاء السري بطريقة (الفرسكو Fresco) على جدار صالة الطعام في كنيسة سانتا ماريا دللي غرازي (Santa Maria delle Grazie) في ميلانو

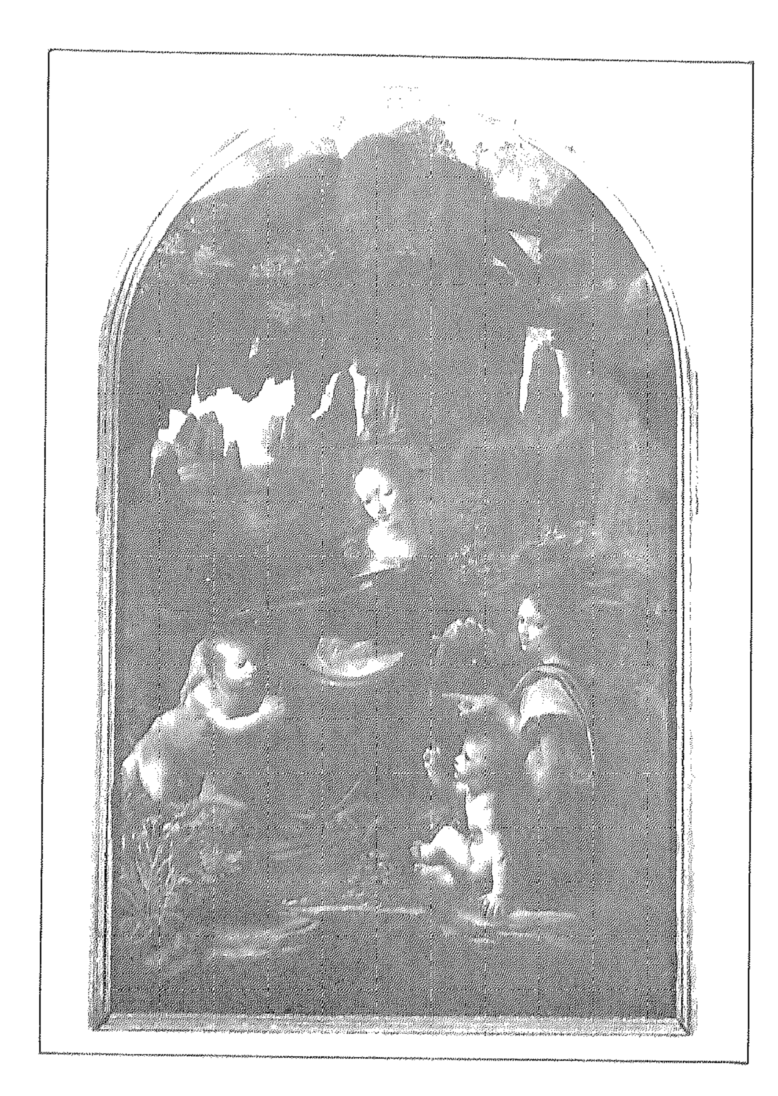


□ عبادة الملوك السحرة ـــ صالة اوفيزي Uffizi ـــ فلورانس ـــ ايطاليا

بدأ ليوناردو هذه اللوحة بطلب من «رهبان القديس دوناتو San Donato» في «سكوبيتو Scopeto» وهو موقع قرب فلورانس ـــ ايطاليا وفي نفس العام أرسل سيد فلورانس «لورانس لومانيفيك Lorenzo il Magnifico» ليوناردو إلى ميلانو Milano عند «لودفيكو المورو Ludovico il Moro» فلم يستطع ليوناردو تكملة ما بدأه عند الرهبان ومع ذلك فالمشهد والخطوط يوضحان نسبيا فكرة اللوحة، بالرغم من انه لم تدخل الألوان إلى اللوحة ولم تكتمل معالم الشخصيات فيها والمشهد بشكل عام يمثل زيارة ملوك الشرق الثلاثة (بلداسار Baldassarre وكسبار Gasparre ومليكور Melchiorre) و أتباعهم والكثير من الهدايا الغنية لتقديم ولائهم للسيد المسيح الوليد

فقام بدراسات عديدة وكتب حواشي مفصلة سجل فيها الحركات والوجوه والتعابير. وقد اختار ليوناردو اللحظة التي أعلن فيها المسيح لتلاميذه اقتراب موعد خيانته ليسجل تعابير القلق والحركات المسرحية والدراسة النفسية لكل شخصية في اللوحة. إنه بهذا تخلى عن التنظيم القياسي المتناسق في لوحات القرن الخامس عشر التوسكانية للعشاء السري. علماً بأن ليوناردو قد اتبع في تأليفه النظام الفلورانسي الصارم في ترتيب الأشكال في مجموعات من ثلاثة.

في ميلانو رسم ليوناردو النسخة الموقعة للوحة سيدة الصخور. وفيها تسود الحيوية كل ما في اللوحة ـــ من الصخور والأزهار إلى الأشكال البشرية والشجيرات، روح تنتشر في كل اللوحة وتمتد من الجلد الذي يغطي الأجسام فيها إلى كتل الصخور، ومن تويج الزهرة إلى المياه المتألقة. ويؤكد ليوناردو في مخطوطة ليستر أن للأرض روحاً نمائية. فهو اكتشف توازياً دقيقاً بين البناء الحي وتركيب الأرض. فالجبال هي عظام هذا الكائن الهائل، والصخور المسامية هي غضاريفه وأمّا مجاري الأنهار فهي دمه. وقد رأى في المد والجزر صورة للتنفس، ونار الأرض المتدفقة البراكين مسكن الروح النمائية للعالم. وليس البحر، وذلك حسب المفهوم البطليموسي، سوى النهر العظيم الذي يحيط بالعالم. «بحر



□ **عذراء الصخور — باريس — متحف اللوفر Louvre (١٢٩ × ١٢٣ سم)**
رسم ليوناردو هذه اللوحة في السنين الأولى من اقامته في مدينة ميلانو في إيطاليا حوالي عام ١٤٨٣م وتأخذ هذه اللوحة عنوانها من المنظر الخلفي المميز بينما يتشكل المشهد الأمامي لحظة تأمل هادىء بين العذراء وطفلها المسيح والقديسة آنا Anna والقديس جوفاني Giovanni **الذي كان طفلاً أيضاً في ذلك الوقت مع العلم أن لهذه اللوحة نسخة أخرى رسمها الفنان «دوبريدي De Predis» وموجودة حالياً في الصالة الوطنية في لندن**

الدم المحيط بالقلب».

في عام ١٤٩٩ فرّ لودوفيكو المورو من ميلانو أمام تقدم الجحافل الفرنسية. واتخذ رماة الأسهم الفسكونيون في جيش لويس الثاني عشر من النصب الذي صنعه ليوناردو لفرنسيسكو سفورزا على حصانه هدفاً للتدريب على الرماية. وسرعان ما غادر ليوناردو ميلانو على الرغم مما ظهر من حسن نية السلطات الفرنسية. وهنا بدأت سنوات تجواله. ففي بلاط ايزابللا دستي في مانتوا رسم صورة لم تتح له الفرصة لإكمالها أبداً. ومكث فترة قصيرة في فينيسيا حيث كان مستشاراً للقضايا المعمارية من عام ١٤٩٥ حتى ١٤٩٩. وفي عام ١٥٠١ وخلال إقامة قصيرة في فلورنسا وضع الرسم التمهيدي للقديسة آن المعد لنقوش المذبح في كنيسة العذراء المقدسة (Santissima Annunziata).

ذهب بين عامي ١٥٠٢ و ١٥٠٣ إلى منطقة رومانيا كمهندس عسكري يعمل لسيزار بورجيا. وقد تبدلت أحوال الدوق فالنتينو بوفاة البابا الكسندر السادس، فعاد ليوناردو إلى فلورنسا في عام ١٥٠٣ ليبقى هناك حتى عام ١٥٠٦. وعهدت إليه جمهورية فلورنسا القيام برسم جداري (فرسكو) كبير لمعركة انغياري (Anghiari) على أحد جدران صالة النصائح الكبرى في القصر القديم لتكون قبالة رسم جداري (فرسكو) لمعركة كاشينا



□ العذراء والطفل المسيح والقديسة آنا Anna ـ باريس ـ متحف اللوفر (١١٢ × ١٦٨ سم).
عهد بهذا العمل إلى ليوناردو ليكون لكنيسة العذراء المقدسة Santissima Annunsiata في فلوراس وذلك في بداية القرن السادس عشر. في عام ١٥٠١ عرض الرسم التمهيدي لهذا العمل على الجمهور فلاقى حماسة شديدة إن الرسم التمهيدي الموجود في الأكاديمية الملكية في لندن هو نسخة أخرى لهذا العمل الشهير. وقد انتهى ليوناردو من رسم اللوحة عام ١٥٠١ ولكنه لم يسلمها للكنيسة بل أخذها معه إلى فرنسا.

(Cascina) لمايكل انجلو (Michel -Angelo). وقد قام ليوناردو بتجربة أسلوب فني جديد فبدأ رسم الفرسكو يتلف على الفور تقريباً. ولم تمض عليه بضع سنوات حتى تلف تماماً. خلال هذه السنوات كان ليوناردو قد بدأ رسم الموناليزا. وقد أحضرها معه فيما بعد إلى فرنسا مع بعض أعماله الأخرى المحببة إليه. وذلك دون أن يعطيها الشخص الذي كلفه برسمها.

في مخطوطة «تريفولزيانو» لليوناردو توجد فكرة هي في الحقيقة صياغة جديدة لحكمة قديمة لهيراكليتوس كتب ليوناردو «الماء الذي يلمسه المرء هو آخر ما مرّ وأول ما سيأتي ـ كذا هي اللحظة الحاضرة». ومن نداءاته «أيها الزمن، يا مستهلك الأشياء...». ويدعونا أيضاً لأن «ننظر إلى النور ونستشف جماله. أغلق عينيك لحظة، ثم انظر إليه ثانية. فما رأيته لم يبق له وجود، وما كان لم يبق هناك». هذه الأفكار يمكنها أن تمثل أفضل تمثيل إحدى أشهر لوحاته أي الموناليزا التي طغت بسحرها الأخاذ على النقاد والعامة على السواء (انظر كتابات بريتر)، فالتعبير المرتسم على اللوحة، والابتسامة الشهيرة زائلان يفران منك. كذلك الروح غير الملموس الذي يبدو في رقائق الصخور التي تنعكس خيالاتها في المياه الخضر والزرق.

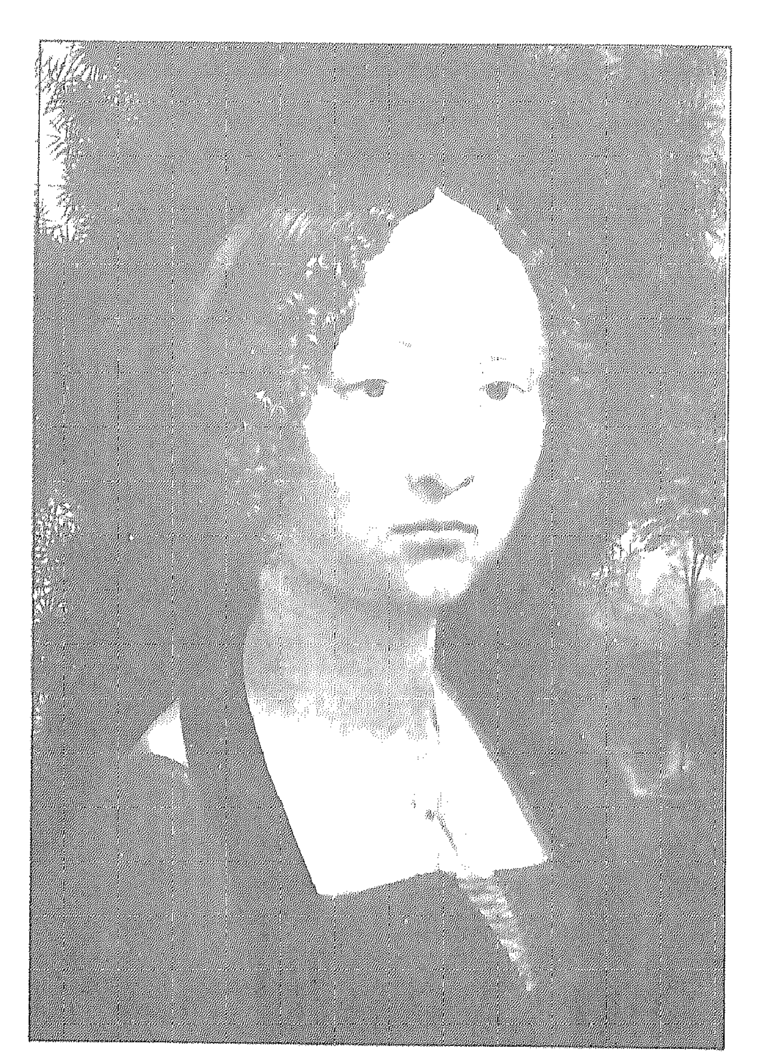


السيدة وحيوان القاقم ـ كراكوفيا Cracovia. متحف كرارتوريسكي Czartorisky (٥٤ × ٣٩ سم)

هذه اللوحة كانت منذ زمن بعيد موضع شك عند النقاد في نسبها إلى ليوناردو وما زال النقاد يشكون في ذلك لأنها تختلف بميزاتها عن لوحات ليوناردو الأخرى ويقول بعض النقاد أن هذه اللوحة هي «بياتريتشي دستي Beatrice d'Este» زوجة سيد ميلانو «لودفيكو المورو Ludovico il Moro» الذي كان ليوناردو قد أقام عنده فترة طويلة

في أيار من عام ١٥٠٦ طلب أن يؤذن له بمغادرة جمهورية فلورنسا ليعود إلى ميلانو. كان مزمعاً أن يكمل بعض المشاريع التي بدأها هناك والتي تركها ناقصة عندما اضطر إلى الهروب بسرعة في عام ١٤٩٩. وكان الدوق قد منحه قبل هربه بفترة قصيرة حقلاً من أشجار الكرمة خارج بوابة لودوفيكا اعترافاً منه بخدماته. وكان هذا الحقل، إلى جانب مشكلته مع رهبان سان فرنسيسكو حول رسمه «سيدة الصخور»، هو ما جعل فترات مكوثه في فلورنسا قصيرة ونادرة. وفي ميلانو اتصل بالفرنسيين مرة أخرى. وقد طلب شارل دامبوز حاكم ميلانو إلى جمهورية فلورنسا أن تمدد مأذونية ليوناردو. وقد كرر هذا الطلب ملك فرنسا بعد فترة قصيرة. أمضى ليوناردو فترة قصيرة في فلورنسا بين عامي ١٥٠٧ و ١٥٠٨ وذلك لكي ينهي مع أخوته مشكلة العقارات الموروثة عن أبيه. ثم أمضى سنوات عدة في ميلانو بعد أن أعطي لقب «رسام ومهندس عادي» وحدد له راتب ثابت. فأخذ يمضي معظم أوقاته في الدراسات العلمية، وفي هندسة المشاريع التي كان منها مثلاً «حصر مجرى نهر آدا».

عند عودة أسرة سفروزا في عام ١٥١٢ اضطر ليوناردو إلى مغادرة ميلانو ثانية لأن شبهات أحاطت به لتعامله مع الفرنسيين. وأمضى الفترة بين ١٥١٣ و ١٥١٦ في روما في



رسم امرأة أو صورة جنيفرا بنتي Ginevra Benci — الصالة الوطنية في واشنطن — الولايات المتحدة الأميركية (٣٧ × ٤٢ سم)

يعتقد عموما ان هذه هي صورة «جنيفرا بنتي التي اشار إليها «فاساري Vasari» على انها شيء جميل. ان عزو هذا العمل الى ليوناردو مقبول عند جمهور النقاد الآن غير انه كان موضع جدال في الماضي. لقد بترت هذه اللوحة في قسمها السفلي حيث كانت اليدان مرسومتين. ويرجح أنهما كانتا متصالبتين كما هو الامر في «الموناليزا». وهذه اللوحة هي من أكثر اللوحات المحببة إلى ليوناردو، حيث كانت جنيفرا بنتي من أشهر وأجمل نساء عصرها

ساحة بلفديري تحت حماية جيوليانو دي مديشي شقيق البابا ليو العاشر. من المحتمل أنه قام برسم لوحة «القديس يوحنا المعمدان» الدقيقة الغامضة أثناء فترة بقائه القصيرة في روما. وكانت هذه من بين اللوحات التي أخذها معه إلى فرنسا.

وفي روما سبب وجود مايكل انجلو ورفاييل — وهما أصغر سناً من ليوناردو — وضعاً حرجاً له. فقد كان الجو في روما جو تنافس يختلف تماماً عن جوه في ميلانو حيث كان هو سيد الفن بلا منازع في المدينة. وعندما توفي حاميه، قبل ليوناردو دعوة أصدقائه الفرنسيين، وغادر إيطاليا في عام ١٥١٦، ولم يعد إليها بتاتاً. ذهب إلى قلعة كلو قرب امبواز يصحبه تلميذه الوفي ملزي. واصطحب معه أحب لوحاته إليه، وكذلك الرسوم والمخطوطات التي أورثها فيما بعد تلميذه المفضل.

مات ليوناردو في ٢ أيار عام ١٥١٩. ودفن حسب رغبته في دير سان فيورنتينو في امبواز. وقد تناثرت رفاته عندما قام الهيكونوت بنهب الدير في أثناء الحروب الدينية. ●

تعيد مجلة «تاريخ العرب والعالم» نشر هذه الدراسة التي سبق ونشرتها مجلة «دراسات الخليج والجزيرة العربية»، العدد السادس والأربعون ــ السنة الثانية عشر ــ ابريل/ نيسان ١٩٨٦م رجب ١٤٠٦هـ. وذلك نظراً لأهمية تلك الدراسة من حيث إلقاء الضوء على حقيقة مرحلة من أهم مراحل تاريخ الكويت الحديث التي طالما لفّها الغموض وحادّتها الشكوك، وإيماناً منّا بوجوب تعميم الفائدة، خاصة بما يتعلق بتاريخ أمتنا، وإيصال الانتاج العلمي إلى أوسع دائرة من القرّاء العرب.



نشأة الكويت وتطورها في القرن

● د. ميمونة خليفة الصباح، مدرسة في قسم التاريخ ــ جامعة الكويت.

من المؤسف حقاً أن يكون تاريخ تأسيس الكويت[1]، بهذا القرب منا وهذه الحداثة وتحيط بتحديده الشكوك، مما يجعلنا عاجزين عن الجزم بتاريخ مؤكد لوصول العتوب إلى الكويت. ولا شك ان ذلك القصور نتيجة لعدم العناية بحفظ أصولنا التاريخية ثم عدم الاهتمام بملاحقتها وجمعها[2].

لذا اختلفت المصادر حول تاريخ تأسيس الكويت. فهناك من يذكر أنها انشئت قبل وصول العتوب إليها. وإن كنا نختلف مع هؤلاء لأن وضع الكويت قبل وصول العتوب إليها لم يكن يسمح لها بتوفير الخصائص والمكونات المطلوبة لقيام الدولة، ومع ذلك فإن الكويت بذلك الوضع غير المكتمل كانت موجودة فعلاً قبل آلاف السنين، فمنذ التاريخ

القديم وجدنا لبعض مناطق الكويت مثل فيلكا (IKAROS) و (كاظمة) قرب الجهرة دوراً في حضارات العالم القديم موغلا في القدم، ووجدنا لها كذلك بعض الأدوار في التاريخ الوسيط ولا سيما الاسلامي منه. أما في التاريخ الحديث فلم نجد لها ذلك الدور المؤثر إلا من خلال استقرار بعض القبائل الرحل لبعض الوقت فيها خلال رحلاتهم الفصلية انتقالاً وراء مناطق الكلأ والمرعى بين الجزيرة العربية وبلاد الرافدين، وفيما عدا ذلك لم تظهر الكويت إلا كقرية صغيرة ضمن ممتلكات بني خالد، حيث أنشأ شيخهم براك في منتصف القرن السابع عشر بالتقريب قلعة أو كويتا صغيرا استخدمه كمخزن للمؤن والذخيرة يمر عليه في رحلاته للغزو أو للصيد، وتشير بعض المصادر المحلية إلى أن الذي أنشأ القلعة هو الأمير (محمد بن نفلة بن عريعر)، واستقر بعض البدو من الصيادين حول هذا الكوت أو القلعة. وإذا سلمنا أن الأمير براك هو الذي أنشأ هذه القلعة فإن ذلك يعني أنها انشئت في منتصف القرن السابع عشر، حيث أن حكم الأمير براك كان بين عامي ١٦٦٩ ــ ١٦٨٢م. ومهما يكن الأمر فعند قدوم البرتغاليين إلى ساحل الكويت في القرن السادس عشر لم يرد لها ذكر في رواياتهم، مما يدل على أنها لم تكن قد انشئت بعد. وفي اسم الكويت وكونها تصغيراً لكلمة (كوت) ما يؤكد ما ذهبنا إليه من قلة شأنها قبل وصول العتوب إليها، بحيث لا يمكن اعتبارها مدينة، وأنها كانت قبل نزول العتوب فيها أرضاً فقيرة لا يسكنها إلا لفيف من الأفراد أو العشائر من أتباع بني خالد. وأول من بنى البيوت الحجرية فيها هم العتوب حينما سمح لهم بنو خالد بالاستقرار فيها ووهبوها لهم وسمحوا لهم أن يقيموا حكمهم تحت ظلهم وفي حمايتهم (بنو خالد)، فآل الأمر إلى آل الصباح وبقية الأسر العتبية ولم يحكمهم أجنبي عن القوم الذين أسسوها، ولم ينفرد بالأمر والنهي فيها سواهم[٣]. ولكن هذا لا يتنافى مع ما ذكره د. أبو حاكمه اعتماداً على خريطة هولندية تعود إلى منتصف القرن السابع عشر من أن اسم القرين (الكويت) موجود عليها، أي أن الكويت معروفة منذ أوائل ذلك القرن، إلا أنها كانت بوضعها الذي أشرنا إليه سابقا، ولذلك نستطيع أن نقرر باطمئنان أن العتوب هم الذي أسسوا الكويت. وما دمنا قد وصلنا إلى هذه الحقيقة فلا بد أن نتناول بالإشارة العتوب وأصلهم وانتماءهم قبل أن نتكلم عن تاريخ تأسيس مدينتهم.

□ رسمان عربيان يعودان للعام ١٨٤٧م.
من كتاب «العربي» لنويل دسفرجيه ــ (Noël Desverger).

الثامن عشر

د. ميمونة خليفة الصباح

العتوب وتأسيسهم للكويت

لا يختلف المؤرخون في أن مؤسس الكويت الحديثة هم من العتوب. وهم جماعات كبيرة من العشائر ترجع في أصلها إلى قبيلة عنزة(٤). وهي قبيلة عربية كبرى تنزل شمال جزيرة العرب. والعتوب ثلاثة فروع رئيسية من عنزة (آل الصباح، وآل خليفة، والجلاهمة) ومعهم أسر اخرى أو فروع أخرى مثل آل زايد (ينتمي إليهم كثير من أسر الكويت المعروفة مثل الغانم والمضف وغيرهم) وينتمي آل الصباح إلى فخذ (جميلة) وبالتحديد فرع (شملان)(٥).

وترجع كلمة العتوب إلى الأصل الثلاثي (عتب) وهو فعل معناه الاكثار من الترحال من مكان إلى آخر(٦). وقد سمي العتوب بهذا الاسم بعد ارتحالهم من منطقة الهدار في نجد موطنهم الأصلي، أي من الجنوب، شمالاً إلى الكويت، فهم عتبوا بذلك إلى الشمال(٧).

أما سبب هجرة العتوب من موطنهم الأصلي فهو كذلك موضع اختلاف المؤرخين. ولكنها لا بد أن تكون جزءاً من هجرة عنزة الكبرى التي تمت في النصف الأخير من القرن السابع عشر، والتي تفرعت إلى فرعين رئيسيين اتجه الفرع الأول المعروف بـ «الروالة» إلى بلاد الشام بينما اتجه الفرع الآخر (العتوب) إلى الخليج. وأن هذه الهجرة كانت بسبب القحط الشديد الذي أصاب منازلها الأصلية(٨). إلا أن ذلك خلافاً لما يذكره الشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة يشير إلى أن هجرتهم كانت نتيجة لنزاع حصل بينهم ـ ولم يكن العتوب في الحقيقة قبيلة واحدة بل تألف تحالفهم من مجموعة من بطون القبائل العربية بالجزيرة العربية ـ(٩). مع بني عم لهم من بطن (جميلة) من عنزة، وكانت عزوتهم واحدة هي (أولاد سالم) أي أولاد سالم، وظلت كذلك إلى أن سكنوا الكويت فزالت هذه العزوة أو الشهرة، وصار كل منهم يلقب باسم عائلته(١٠).

وتختلف المصادر أيضاً على تاريخ هجرة العتوب من موطنهم الأصلي والطريق الذي سلكوه أثناء هذه الهجرة مما يجعلنا غير قادرين على تحديد مسارهم على وجه الدقة كما أننا لا نتمكن من تحديد سنة هجرتهم بشكل قاطع. وهذا ما يضعنا نحن الذين نحاول التأريخ للكويت بوضع مخجل ومحرج أمام عجزنا عن تحديد أوليات تاريخنا القريب! أننا لا نريد أن نضع اللوم على من سبقونا في عدم حفظ ما يوضح لنا هذا التاريخ، فإمكانيتهم الثقافية والاجتماعية تعطيهم العذر، بل ويكفيهم فخراً أنهم أورثونا تاريخاً مضيئاً حافلاً بالأحداث المشرقة النبيلة، خالياً من الشوائب والدنس، مما يجعلنا نسعى إلى إبرازه وإيضاحه ونعد بمواصلة الجهد والعمل للوصول إلى ما خفي منه والعثور على ما فقد حتى نمكن أن نسهل على من يخلفنا وضع تاريخ متصل الحلقات، واضح الملامح وواضح لوطننا العزيز.

أما عن أقرب تاريخ لهجرة العتوب من الهدار إلى سواحل الخليج فهو العقد التاسع من القرن الحادي عشر الهجري. أي أن هجرتهم كانت قبل أكثر من ثلاثة قرون من التاريخ الحاضر. فإذا وضعنا سنة تقريبية وهي سنة ١٠٨٢ هجرية يكون عام ١٦٧١م كبداية لهذه الهجرة، بل ربما قبل ذلك بقليل حيث تمت في زمن حكم (براك بن عريعر) للاحساء وفتح القطيف عام ١٠٨٢ هجرية، وذلك لأن الأخبار التي تناقلها الخلف عن السلف تؤكد اشتراك العتوب في هذا الفتح، لا سيما وأن هناك واقعة مادية تعزز لنا هذه المشاركة وهي أن الأمير براك منح العتوب مكافأة لهم على مساعدتهم له في هذا الفتح نخلاً في القطيف(١١). وهو النخل الذي أوقفه الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة (الجد الأكبر لآل خليفة) على المسجد الذي بناه عند وصولهم إلى الكويت. ولكن النخل مع مرور الأيام بقي في يد أبناء الشيخ أحمد بن سلمان آل خليفة، ولا يزال في أيديهم يأكلون ريعه. وقد طالبت به وزارة الأوقاف الكويتية على أنه من الأموال الموقوفة العائدة لها والتي ترعاها(١٢). إلا أنها تنازلت عنه فيما بعد وتركته لورثة الشيخ أحمد بن سلمان آل خليفة.. وهذه الحادثة المادية توضح لنا كذلك الطريق الذي سلكه العتوب في هجرتهم من موطنهم الأصلي إلى الكويت، فمن المسلم به أنهم هاجروا إلى شمال شرقي الجزيرة العربية، إلا أن هذه الواقعة تبين

لنا أنهم نزلوا المبرز في الاحساء قبل توجههم إلى قطر حيث استقبلهم آل عريعر (بنو خالد) وأسكنوهم بين ظهرانيهم حين كان لبني عريعر السيطرة على سواحل الاحساء[١٣]. وهذا ما تؤكده كذلك حجة الوقف الخاص بهذا النخل على مسجد آل خليفة في الكويت[١٤]. والتي تثبت نزول العتوب بالأحساء قبل نزولهم إلى قطر. كما تظهر لنا هذه الحادثة أن بداية العلاقات الطيبة بين العتوب وبني خالد تعود إلى تلك الفترة وهذه الواقعة المشتركة التي عززت العلاقات ودعمتها ودعت بني خالد إلى رعاية العتوب وحمايتهم واستقبالهم لهم في كل الأماكن التي حل بها العتوب أثناء هجرتهم من الأماكن التابعة لآل عريعر.

هذا ومما يؤكد لنا واقعة فتح القطيف وأنها تمت سنة ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) هو ما جاء على لسان أحد شعراء القطيف:

رأيت البدو آل حميد لما
تولوا أحدثوا في الخط ظلما
أتى تاريخهم لما تولوا
كفانا الله شرهم (طغى الما)

وكلمة (طغى الما) تساوي عام ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) بحساب الجمل فإن (ط = ٩) + (غ = ١٠٠٠) + (ى = ١) + (ل = ٣٠) + (م = ٤٠) + (أ = ١) فيكون المجموع = ١٠٨٢هـ.

ومن كلمة «طغى الما» هذه يؤرخ فتح آل عريعر للقطيف حيث اشترك العتوب فيها مما أوجد بعض الخلط عند مؤرخي الكويت الأوائل وأولهم الأستاذ عبدالعزيز الرشيد الذي أخذ عنه الكثير من المؤرخين. ودعتهم إلى جعل هذا التاريخ هو تاريخ تأسيس الكويت خطأ.

هذا وقد توجه العتوب من الاحساء إلى قطر واستقروا في قرية الفريحة قرب (الزبارة) وكانت قطر تخضع لنفوذ بني خالد في ذلك الوقت، مما مكنهم من الاستقرار بها لبعض الوقت، فاستوطنوها تحت إمرة حكامها آنذاك (آل مسلم).

ومن مسكنهم الجديد في (فريحة) أسسوا لهم روابط قوية مع البحرين، لأن الأسواق والتجارة وبيع اللؤلؤ كانت في البحرين، لذلك وجدناهم ينتقلون بين البحرين وقطر لعدم وجود حواجز وقتئذ تمنعهم من الانتقال كجوازات وجمارك وغير ذلك، بل كان التنقل وحتى التملك ميسوراً بين البلدين دون وجود قوانين تحده[١٥].

وبعد مضي فترة على استقرار العتوب في قطر قتل أحدهم رجلاً من أهلها أهانه، مما أثار حكامها الذين أوجسوا خيفة من العتوب وخشوا استفحال أمرهم، فأمروهم بمغادرة البلاد. وقد لبى العتوب وهاجروا من قطر بواسطة البحر[١٦]. واتجهوا إلى بعض المناطق الواقعة على الشاطىء الشرقي للخليج العربي مثل جزيرة (قيس) و (عبادان) ومن هنا تأتي تسمية المؤرخين الأجانب لهم (Sea Beduin) أي البدو البحريين وأنهم استخدموا السفن في ارتحالهم بدلاً من الجمل المستخدم في الصحراء[١٧].

ويذكر مؤرخنا الأستاذ عبدالعزيز الرشيد أن آل مسلم جهزوا بعد ذلك سفناً وساروا خلفهم يقتفون أثرهم إلى أن أدركوهم في رأس تنورة حيث نزل العتوب إلى البر فوقع بين الفريقين قتال شديد كان النصر فيه حليف العتوب. إلا أن هذا النصر لم يحملهم على العودة إلى قطر للاستقرار فيها، وإنما واصلوا مسيرتهم البحرية فتذهب بعض الروايات إلى أنهم اتجهوا نحو المخراق بالقرب من (الفاو) عند البصرة، ولم يطب لهم المقام فتحولوا إلى الصبية (شمال شرقي الكويت وتبعد عنها نحو ستة عشر ميلا) غير أن السلطات العثمانية القائمة هناك لم تسمح لهم بالاقامة في تلك المنطقة وذلك نتيجة لحدوث اعتداءات على بعض القوافل المارة هناك. وخشية قيام القلاقل والاضطرابات لا سيما عندما علمت تلك السلطات باعتزام جماعات (الظفير) شن هجمات عليهم[١٨]. ومن ثم اضطرت جماعات العتوب إلى ترك هذه المنطقة والاتجاه جنوب كويت بني خالد الذين رحبوا بهم وسمحوا لهم بالاستقرار هناك ومنحوهم تلك المنطقة.

تأسيس الكويت

بالرغم من أن العتوب لم يستقروا دفعة واحدة في الكويت، وأن تاريخ استقرارهم هو الآخر محط لاختلاف المؤرخين ومسرح

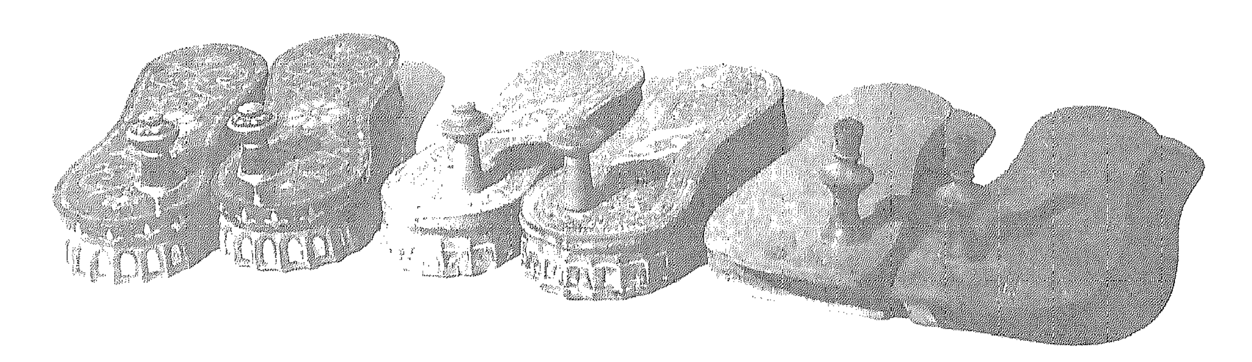
لروايات وأقاويل مختلفة ومتعارضة، إلا أننا نستطيع أن نقرر مطلع القرن الثامن عشر كتاريخ لاستقرارهم في الكويت وتأسيس مدينتهم فيها. وذلك لأنه أقرب تاريخ يلتقي عنده المؤرخون. لا سيما من عاصر منهم تلك الفترة أو كان قريباً منها سواء العرب منهم مثل عثمان ابن سند البصري (سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد) وابن بشر (عنوان المجد في تاريخ نجد) وصاحب (لمع الشهاب في سيرة محمد ابن عبدالوهاب)، أو المؤرخون المحليون مثل القناعي (صفحات من تاريخ الكويت) والرشيد (تاريخ الكويت). أما النبهاني فيجعل وصول العتوب إلى الكويت في النصف الأول من القرن السابع عشر ويقرن روايته بدليل مادي وهو أن مسجد ابن بحر في الكويت جدد بناؤه (عبدالله بن سعيد بن بحر) عام ١١٥٨هـ الموافق ١٧٤٥م وذلك بعد أن حصل من قاضي الكويت على الاذن ببيع دار كانت موقوفة على ذلك المسجد، ولا سيما أنه من المعلوم أن تقادم المسجد وخرابه لا يكون إلا بعد مرور مدة طويلة على إنشائه تقدر بمائة عام. ويذكر النبهاني أنه فهم من ذرية ابن بحر أن المسجد أنشىء سنة ١٠٨٠هـ ـ ١٦٧٠م فإذا صحت هذه الرواية يكون العتوب قد وصلوا قبل هذا التاريخ الذي يورده الشيخ (محمد بن عيسى آل خليفة) عم أمير البحرين الراحل الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة في خطاب له أرسله جواباً على خطاب الأستاذ سيف مرزوق الشملان الذي يستفسر فيه عن هذه الأمور، أن العتوب وصلوا إلى الكويت في أواخر القرن الحادي عشر الهجري أو أوائل القرن الثاني عشر ويحدده بما يقابل عبارة (طغى الما) ١٠٨٣هـ في حساب (أبجد) وتوافق عام ١٦٧١م.

ويؤيد الأستاذ عبدالعزيز الرشيد الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة في كون عبارة (طغى الما) هي تاريخ وصول العتوب إلى الكويت إلا أنه يعود ويرجع التاريخ الذي ذكره الشيخ ابراهيم بن محمد آل خليفة (وهو أديب ومطلع على التاريخ ومن الأسرة الحاكمة في البحرين) من أن سنة ١١٢٥هـ الموافقة ١٧١٢[٢٠] هي تاريخ وصول العتوب.

ويذكر الشيخ يوسف القناعي تاريخاً قريباً للتاريخ الذي حدده الشيخ محمد ابن خليفة وهو عام (١١٠٠هـ الموافق ١٦٨٨م)[٢١].

وبهذا نجد أن المؤرخين العرب القريبين من الأحداث ويؤيدهم المؤرخون المحليون يرون أن تاريخ وصول العتوب إلى الكويت وتأسيس مدينتهم فيها يقع في أواخر القرن السابع عشر وبما أننا قد أشرنا سابقاً إلى أن عبارة (طغى الما) تمثل تاريخ فتح بني خالد للقطيف (الذي شارك فيه العتوب) فلا بد من استبعاد هذا التاريخ واعتماد مطلع القرن الثامن عشر كتاريخ لوصول العتوب إلى الكويت إلى أن يثبت ما ذكره النبهاني نقلاً عن ذرية ابن بحر والمؤرخون الآخرين الذين يؤيدون هذا التاريخ وهو النصف الأخير من القرن السابع عشر والذي لا يعززه حتى الآن إلا هذه الرواية إلى جانب ما وجد من نسخة مخطوطة من كتاب (مدونة للامام مالك) ونجد في آخر الكتاب اسم الناسخ وسنة نسخه وهي ١٠٩٩هـ وأنه نسخ في فيلكا. فلا بد والحالة هذه أن في فيلكا علماء ألفوا ونسخوا مثل هذا الكتاب وغيره[٢٢]. ولما كانت فيلكا من جزر الكويت فإنه إذا مااعتبرنا عمارها في عهد العتوب فإن وصول العتوب يكون قبل عام ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧م. أما إذا اعتبرنا عمار فيلكا استمراراً لعمارها في العصور القديمة فإنها والحالة هذه تعتبر مستقلة عن الكويت عند وصول العتوب للكويت ثم ضموها بعد ذلك. وهذا يتفق مع ما ذكرناه من مجيء العتوب على دفعات ومراحل فقد يكون من وصل من العتوب في أواخر القرن السابع عشر هم أول الدفعات.

كما أن المصادر الأجنبية المعاصرة أو القريبة من الأحداث تؤكد وصولهم في مطلع القرن الثامن عشر، وهذا ما يذكره مسؤولو شركة الهند الشرقية، وإزاء ذلك تجدنا نتجه إلى تأييد هذا التاريخ إلا أن ملاحظات المستر فرنسيس واردن (F. Warden) من موظفي حكومة الهند عن القبائل العربية في الخليج أغسطس عام ١٨١٩م تحت عنوان (عرب العتوب في البحرين) قد حددت وصول العتوب سنة ١٧١٦م وذلك حين اشار في تقريره إلى ما يلي: «حوالي عام ١٧١٦ دخلت ثلاث قبائل عربية ذات شأن هي:



□ قباقيب خشبية تعود للقرن الثامن عشر. (متحف الكويت)

بنو صباح والجلاهمة وآل خليفة تحدوها عوامل المصلحة والطموح في تحالف واستولت على بقعة من الأرض على الساحل الشمالي الغربي من الخليج العربي تسمى (الكويت)، وكان بنو صباح في ذلك الوقت تحت رئاسة الشيخ سليمان بن أحمد، والجلاهمة تحت زعامة جابر بن عتبة، وآل خليفة تحت زعامة خليفة بن محمد.

ويمضي واردن في سرد ملاحظاته، مبيناً أن العتوب اتفقوا عقب قدومهم إلى الكويت على أن تمارس جماعة (آل صباح) شؤون الحكم بينما يشرف (الجلاهمة) على أعمال البحر، وأن يتولى (بنو خليفة) أمر التجارة[٢٣].

وبعد الدراسة والبحث والوصول إلى معلومات مادية ووثائق رسمية ثبت خطأ المستر واردن في كثير من الأشياء التي أوردها في ملاحظاته، وأول هذه الأخطاء تحديده لوصول العتوب بعام ١٧١٦م بينما وجدنا ما نطمئن إليه من وقائع مادية ووثائقية تثبت وصولهم قبل ذلك وتؤكد وصولهم إلى الكويت لا يتعدى عام ١٧٠١م أو عام ١٧٠٢م على أقصى حد من هذه الوقائع المادية إلى جانب ما ذكرناه عن مسجد البحر الذي جدد بناؤه عام ١٧٤٥م بعد مضي مدة كافية أدت إلى تقادمه وخرابه وأوجبت تجديده، ولما كنا لا نستطيع تحديد هذه المدة على وجه الدقة فقد بحثنا عن أثر آخر فوجدنا مسجد آل خليفة الذي أنشأه الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة (عام ١٢٢٦هـ الموافق ١٧١٤م) وقد نقش عليه تاريخ بنائه وأوقف عليه نخل الاحساء الذي منحه بنو خالد للعتوب عند مساعدتهم لهم في فتح القطيف، فلا بد والحالة هذه أن العتوب قد وصلوا إلى الكويت قبل ذلك بفترة كافية مكنتهم من الاستقرار وبناء المسجد[٢٤].

كما أن المخطوطات والوثائق التي عثر عليها أخيراً ترجع وصول العتوب في مطلع القرن الثامن عشر، ومن أهم هذه المخطوطات ما ورد في مخطوط (لؤلؤتي البحرين وقرتي العينين لأحمد بن يوسف الدرازي المتوفي عام ١١٨٦هـ) حيث ذكر واقعة في البحرين كان العتوب طرفاً فيها وأرخها بكلمة (شتتوها) والتي تساوي في التاريخ الهجري ما يلي:

ش ٤٠٠ + ت ٣٠٠ + ٣٠٠ + و ٦ هـ ٥ + أ ١ = ١١١٢ هجرية الموافقة ١٧٠٠م[٢٥].

وهذا أقدم نص عثرنا عليه ولا بد أن هذه الواقعة الحربية هي نفس المعركة التي أشارت إليها الوثيقة العثمانية (دفتر المهمة رقم ١١١ صحيفة طم ٧١٣) والمرسلة من علي باشا والي البصرة إلى الباب العالي وتنص: «أن في البحرين وهي لأحد بنادر العجم أناساً من الأعجام وعلى مذهبهم، وللعجم اهتمام كبير بهذا المكان، وتقيم في البحرين قبيلة العتوب والخليفيات[٢٦]، ويسكنون قرب بندر فريحة[٢٧] وبندر (كونك)[٢٨] وكانوا نحو سبع أو ثماني عشائر، وكلهم عرب شافعيون وحنابلة، وقد حلت بينهم الفتنة، بين أهل البحرين وهؤلاء العشائر (الهولة) الذين يقيمون حول بندر (كونك) وقد قتل منهم كثيرون، وكان التجار وأصحاب السفن يخافون أن يذهبوا

إلى البصرة خشية منهم لأن (سفنهم) تمر من هذا البندر (الميناء) ومن رأى منهم سفينة أخذها غصبا.

وفي أحد الأيام تقاتل العتوب والخليفيات ومن معهم من العشائر الأخرى من جهة مع الهولة من جهة أخرى بتحريض من والي العجم في البحرين، وبينما كان العتوب في غفلة انقض عليهم الهولة وقتلوا منهم نحو أربعمائة رجل وأخذوا أموالهم وهرب من بقي منهم، وبعدئذ اتفق العتوب والخليفيات وقالوا أن العجم ألقوا بيننا هذه الفتنة فلنذهب ونحاربهم ونخرب البحرين واتفقوا على هذا وأتوا إلى البحرين وخربوا ما حولها وأحرقوها وأخذوا أموالهم وقتلوا رجالهم ورجعوا. ومنذ ذلك اليوم اتفق العتوب والخليفيات وكانوا يقولون لا نسكن في بلاد العجم لأنهم ليسوا على مذهبنا. ونذهب إلى البصرة إلى حماية الدولة العثمانية فجاءوا كلهم إلى البصرة وكانوا نحو ألفي أسرة (عائلة). وكتب والي البصرة إلى السلطان في اسطنبول يقول جاء العتوب والخليفيات ومن معهم من العشائر الأخرى وقالوا نحن مسلمون وتركنا العجم وجئنا إلى بلاد سلطان الاسلام والتجأنا إليه وهذا رجاؤنا فإنهم يريدون أن يسكنوا البصرة ولم يعين لهم الوالي المكان الذي يسكنون فيه وبقوا على تلك الحال. ويقول الوالي إذا أرادوا يسكنون البصرة فسنعين لهم المكان، وكان لهم نحو مائة وخمسين مركباً (سفينة) وعلى كل مركب مدفعان أو ثلاثة مدافع، وعلى كل مركب ثلاثون أو أربعون رجلاً محارباً يحمل بندقية. وكانوا دائماً يكونون على المراكب، وعملهم نقل التجار ونقل أموالهم من مكان لآخر...

ويستطرد الوالي في رسالته إلى السلطان بقوله: «يجب أن نصلح بين القبيلتين العتوب والخليفيات من جهة والقبائل العربية الأخرى من الهولة لأنه إذا لم نصلح بينهم لا يمكن أن يأتي الأتراك إلى البصرة (خوفاً منهم) لأن في مجيء الأتراك سيصير عليهم ضرر أي سيصبح ضرر على عسكر العثمانيين. ثم يقول الوالي في رسالته: «إذا جاء رجل كبير موفد من اسطنبول واصطلح معهم فإننا نأمن من شرهم وحينئذ يسود الأمن والاستقرار هناك»[٢٩].

فإذا حللنا هذه الوثيقة تحليلاً تاريخياً اعتماداً على الوقائع المادية والأحداث الواقعية حسب ترتيبها الزمني نستنتج أموراً كثيرة هامة غير مؤكدة وليس لدينا ما يثبتها، وهي:

أولاً: بما أن هذه الوثيقة التي تمثل كتاباً من والي البصرة إلى السلطان العثماني وقد كتبت بتاريخ ٢١ رجب ١١١٣ هجري الموافق ١٧٠١م وهو يتكلم عن أحداث وقعت قبل كتابة الكتاب، فلا بد أن العتوب وصلوا البصرة قبل تاريخ كتابة هذا الكتاب أي في أوائل عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠١م، إذا لم نقل قبل ذلك. ولما كان الوالي يستأذن السلطان في رسالته بالسماح لهم بالسكن في البصرة والاصطلاح معهم والتوسط بالصلح بينهم وبين (الهولة) خوفاً على الأتراك القادمين إلى البصرة واتقاء لشرهم — فهم إذاً يمثلون قوة كبيرة حسب وصف الوالي.

ولما تأخر رد السلطان لم يحدد الوالي لهم مكاناً يستقرون به. لذا ترك العتوب البصرة إلى الكويت في نفس العام أي بين عامي ١١١٢هـ ١٧٠٠م — ١١١٣هـ ١٧٠١م ومن هذا يتبين لنا أن أقرب تاريخ لاستقرار العتوب في الكويت هو عام ١٧٠١م، وهذا أيضاً يفسر لنا ما سبق وذكر من أن السلطات العثمانية لم تسمح للعتوب بالاستقرار في البصرة.

ثانياً: لما كانت قرية فريحة تقع في قطر وكانت هي القرية التي يسكنها العتوب في السابق، فلا بد أن تكون قطر هي المقصودة في الوثيقة العثمانية حين أشارت إلى أن العتوب كانوا يقيمون في البحرين. وجاء هذا الخلط عند العثمانيين بين المدينتين نتيجة للتشابك في العلاقة بين البحرين وقطر على مر العصور، فقد ظلت قطر خلال العصر الحديث مزدوجة الولاء للبحرين أحياناً وللدولة السعودية أحياناً أخرى، إلا أن ولائها للبحرين كان أكثر وضوحاً حتى ظهورها كوحدة سياسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فكانت تبعيتها للبحرين دافعاً لبعض المصادر لأن تعدها جزءاً من البحرين وتسميتها باسمها أحيانا. ولعل مما يعزز ما ذهبنا إليه من أن قطر هي المقصودة في بداية الوثيقة وليست البحرين أن الخليفيات هم

آل مسلم حكام قطر، مما يبين لنا أن الخلاف الذي وقع بينهم وبين العتوب عندما كانوا في قطر وطلبوا منهم مغادرتها نتيجة له ــ كان بتحريض من والي البحرين الفارسي. وهذا يؤكد لنا أن هجرتهم من قطر كانت بين عامي ١٦٩٩ ــ ١٧٠٠م حيث وصلوا البصرة في تاريخ سابق لتاريخ كتابة الوالي لكتابه عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠١م بعد المدة التي قضوها في الطريق وجرت خلالها حوادث كثيرة أهمها هجوم الهولة على العتوب بتحريض والي البحرين الفارسي، مما دفعهم إلى أن يصطلحوا مع آل مسلم وكونوا تحالفاً معهم ثم هاجموا البحرين عام ١١١٢هـ / ١٧٠٠م.

ثالثاً: المعركة الأولى والتي وقعت بين اتحاد العتوب والخليفيات (آل مسلم) من جهة بعد أن اصطلحوا، وبين الهولة بتحريض والي البحرين الفارسي هي المعركة التي وقعت في رأس تنورة والتي أشار إليها مؤرخنا الأستاذ عبدالعزيز الرشيد خطأً على أنها وقعت بين العتوب وآل مسلم وهو في الحقيقة خلط بين الأحداث نتيجة عدم اتضاحها وعدم ورودها في المصادر في حينها، وذلك لأن خلافاً فعلياً وقع قبل ذلك بين العتوب وآل مسلم فقد أوقع بينهم والي البحرين إلا أنهم اتحدوا بعد ذلك وواجهوا هجوم الهولة المفاجىء ونشبت المعركة آنفة الذكر في رأس تنورة وخسروا فيها أربعمائة قتيل، لأنهم لم يستعدوا لذلك الهجوم مما جعلهم يقسمون على الانتقام بمهاجمة البحرين وإحراقها وبالفعل تم ذلك فكانت المعركة التي هاجموا بها البحرين واستولوا عليها (مؤقتاً) وهزموا واليها الذي تحصن بالقلاع وكان ذلك عام ١١١٢هـ الموافق ١٧٠٠م كما أرخها يوسف الدرازي بكلمة (شتتوها) بحساب الجمل في مخطوطته.

ورغم انتصار العتوب فإنهم قرروا عدم الاقامة في بلاد يحكمها العجم (البحرين). وذلك لاختلافهم معهم في المذهب. لذا فقد توجهوا إلى البصرة طلباً لحماية الدولة العثمانية ورغبة بالعيش في ظلها كما يؤخذ من الوثيقة العثمانية.

ولما كان مجيئهم إلى البصرة بعد هذه المعركة التي وقعت في البحرين عام ١١١٣هـ ــ ١٧٠٠م مباشرة، لذلك فلا بد أن يكون وصولهم بعد ذلك بفترة قصيرة أي بين عامي ١٧٠٠ ــ ١٧٠١م، وبالتالي لا يتعدى وصولهم إلى الكويت عام ١٧٠١م. (كما ذكرنا)، كما أن تلك المعارك التي وقعت بينهم وبين (الهولة) تفسر تخوف الدولة العثمانية منهم وترددها في السماح لهم بالاقامة في البصرة. ويؤكد ما سبق وذكره مؤرخنا عبدالعزيز الرشيد من أن عدم سماح الدولة العثمانية لهم بالاقامة في أراضيها ناتج عن تخوفها من هجوم (الهولة) عليهم وما ينتج عن ذلك من مشاكل تهدد الأمن في المنطقة. وينفي ما ذكرته المصادر المحلية الأخرى من أن رفض الدولة العثمانية السماح للعتوب بالعيش بين ظهرانيها ناتج عن ممارستهم لضروب من السطو والقرصنة.

ومن خلال اعتمادنا على الوثيقة العثمانية المذكورة[٣٠]، ومخطوطة (لؤلؤتي البحرين وقرتي العينين) لأحمد بن يوسف الدرازي[٣١] ومقارنتهما ببقية المصادر والمراجع العربية والمحلية وبالوقائع التاريخية وتسلسلها الزمني فلا بد أن نعتمد عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠١م كتاريخ وثائقي ومادي لوصول العتوب إلى الكويت والتي أقطعهم إياها بنو خالد حال وصولهم لها فأسسوا مدينتهم فيها. ونعتبر هذا التاريخ هو تاريخ تأسيس الكويت الحديثة، حيث أن الكويت قبل وصول العتوب إليها لا يمكن اعتبارها مدينة بأي حال من الأحوال، ولا يمكن أن يسطر لها تاريخ حديث وهي على ذلك الوضع.

هذا، ويعزز التاريخ الذي اعتمدناه بداية لتأسيس الكويت ما وجدناه من أن أقدم القضاة في الكويت هو الشيخ محمد بن فيروز، وقد توفي سنة ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م[٣٢] فإذا كان هذا القاضي قد تولى القضاء قبل وفاته بفترة طويلة نسبيا، فلا بد أن المدينة قد تأسست واستقرت أحوالها المعيشية والادارية بين هذه الفترة وفترة وصول العتوب إليها، أي بين عام ١٧٠١م وعام ١٧٠٢م.

وهناك وثيقة عثمانية أخرى مؤرخة في آخر رجب ١١١٤هـ موجهة إلى متصرف سنجق الكويت وهي الوثيقة الأولى التي يرد فيها اسم الكويت[٣٣]، ولكن لم تثبت صحتها حتى الآن. فإذا ثبتت تكون خير دليل على ما ذهبنا إليه من

أن تاريخ وصول العتوب إلى الكويت هو عام ١١١٣هـ الموافق ١٧٠٢م أو قبل ذلك. وتعزز هذه الوثيقة وثيقة عثمانية أخرى في نفس العام ١١١٤هـ وهي موجهة أيضاً إلى متصرف سنجق الكويت، وهي الأخرى في دور الدراسة[٣٤].

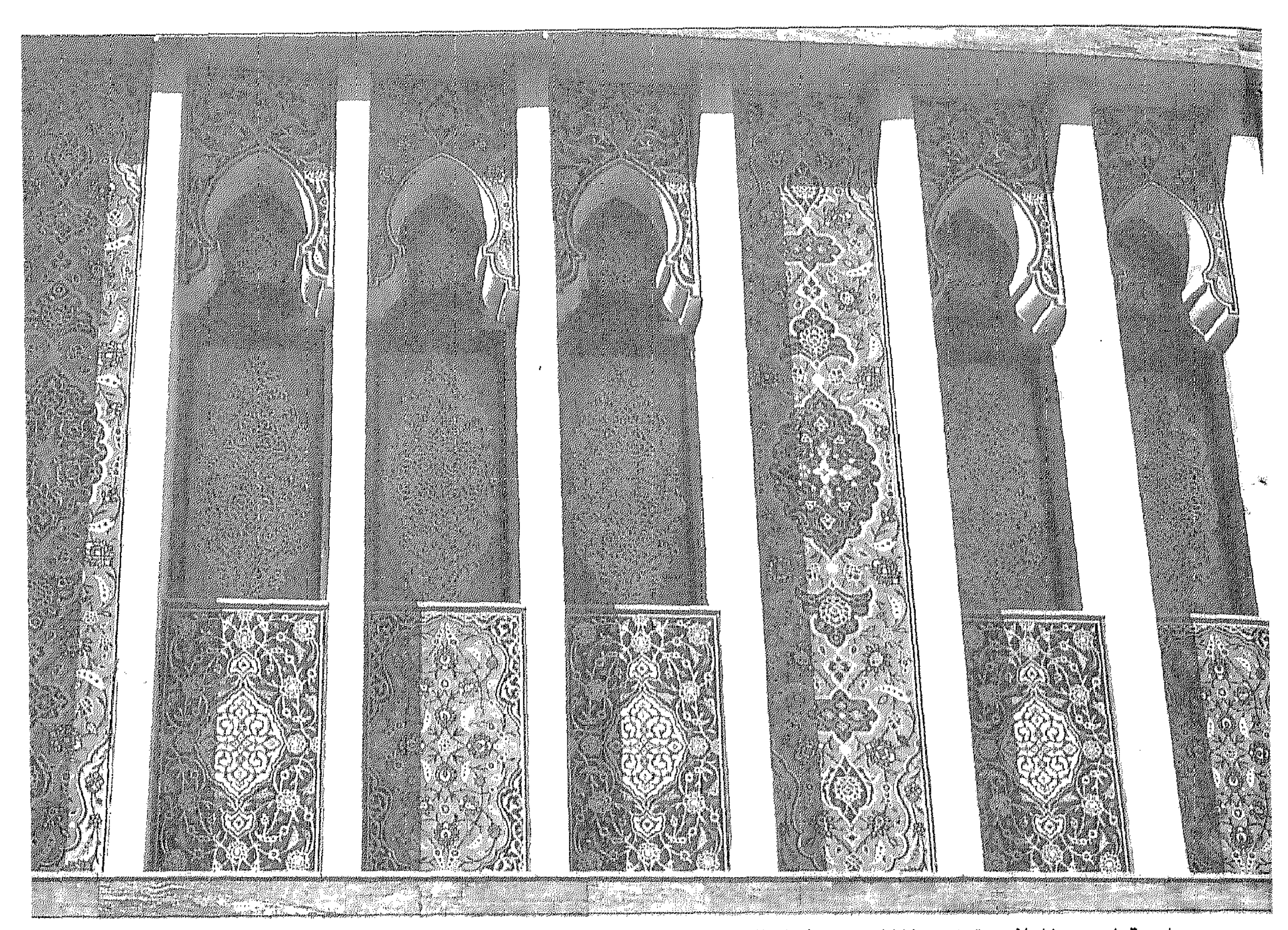
ومن كل ما تقدم يتضح خطأ المستر فرانسيس واردن وجميع من تبعه من المؤرخين المعاصرين في تحديد تاريخ وصول العتوب إلى الكويت بعام ١٧١٦م وأن وصولهم كان قبل ذلك وأقرب تاريخ يمكن تحديده لوصول العتوب إلى الكويت وتأسيس إمارتهم فيها على ضوء ما تقدم من وثائق ومخطوطات ووقائع مادية مؤكدة هو عام ١٧٠١م.

كما أن د. أبو حاكمة (تاريخ الكويت) أخطأ حين رجح أن بدء إقامتهم في قطر والاحساء تحدد بنحو نصف قرن وذكر أن هذه هي المدة اللازمة للتدرب على ركوب البحر، فقد ثبت أنهم على دراية بهذه الأمور منذ خروجهم من موطنهم الأصلي في الأفلاج في نجد فما الأفلاج إلا جمع (فلج) وهو النهر الصغير[٣٥]. فلا غرو إذا ما رأيناهم يتأقلمون مع بيئتهم الجديدة في قطر ووجدناهم من أول وصولهم هناك يحسنون استخدام السفن ويعمل بعضهم في الغوص بحيث أخذوا يتنقلون بين قطر والبحرين طلباً للأسواق والتجارة وبيع اللؤلؤ وهذا ما يثبت درايتهم البحرية منذ نزوحهم من موطنهم الأصلي. ويعزز ذلك إطلاق المؤرخين الأجانب عليهم (Sea Beduin) أو البدو البحريين، كما أنهم سلكوا طريقاً بحرياً أثناء رحلتهم وتنقلهم وخاضوا معارك بحرية خلالها. وهذا ما أثبتته الوثيقة العثمانية حين تحدثت عن عدتهم وأسلحتهم وسفنهم مما يؤكد معرفتهم بركوب البحر. وبذلك يكونون غير محتاجين للمكوث في قطر لمدة نصف قرن قبل ارتحالهم إلى الكويت. ونحن لو وافقنا (د. أبو حاكمة) على رأيه ذلك، فإنه يتوجب علينا اعتماد التاريخ الذي حدده فرنسيس واردن لوصول العتوب إلى الكويت، وذلك إذا عرفنا أن أقرب تاريخ لهجرة العتوب من الهدار في نجد إلى سواحل الخليج هو قبل سنة ١٠٨٢هـ الموافق ١٦٧١م وهي السنة التي اشتركوا فيها مع بني خالد في فتح القطيف كما ذكرنا، فإذا أضفنا إلى هذا التاريخ مدة نصف قرن نكون قد وصلنا إلى تاريخ واردن وهو ما ثبت خطأه وأن العتوب وصلوا قبله.

تولية صباح الأول حاكماً على الكويت

على الرغم من أن تحديد السنة التي تولى بها صباح الأول حكم الكويت لا زالت مجهولة، إلا أننا نستطيع وضع تاريخ تقريبي لتوليه الحكم، كما أننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن الشيخ صباح الأول هو أول من تولى الحكم في الكويت كما تجمع المصادر المحلية والأجنبية، وأن ذلك كان في تاريخ قريب من تاريخ وصول العتوب إلى الكويت في مطلع القرن الثامن عشر. وهذا ما يؤكده تسلسل الأحداث التاريخية. فمن الثابت أن العتوب عند نزولهم الكويت واستقرارهم بها أرادوا العيش في وطنهم الجديد بأمان، فذهب صباح الأول على رأس وفد إلى والي بغداد يقدم الولاء للدولة العثمانية ويرجوها أن تتركهم يعيشون مطمئنين في بلدهم على أن يركنوا للسلام ولا يعتدوا على أحد، فوافق الوالي بعد مشاورات مع الباب العالي بشرط أن تخضع الكويت (خضوعاً اسمياً) للدولة العثمانية وأن يلتزم أهلها جانب السلام ولا يقوموا بغزوات أو عدوان على القوافل المارة على طريقهم. وقد قبل الشيخ صباح الأول هذه الشروط. ومن هذا يتبين لنا أن صباح الأول كان حاكم الكويت منذ استقرار العتوب بدليل تفاوضه مع أكبر دولة في المنطقة وقبوله حمايتها طلباً للعيش في وطنهم الجديد بأمن واستقرار وتأمين جانب الجارة القوية[٣٦].

كما أن ملاحظات واردن بالرغم من خطئها في تعيين تاريخ العتوب إلى الكويت، قد وضعت تاريخاً ليس ببعيد عن التاريخ الصحيح، إلى جانب أنها أوضحت أن شؤون الحكم كانت بيد (آل صباح) وشؤون التجارة آلت إلى (آل خليفة)، بينما كانت أمور البحر يديرها (الجلاهمة)[٣٧]. وهذا التقسيم لأمور الحكم وإدارة البلد من كافة النواحي يمكن اعتماده، لصدوره من مسؤول بريطاني كبير في حكومة الهند التي كانت مهتمة بشؤون الخليج العربي



□ واجهة إحدى المباني، تعكس الماضي من خلال الحاضر.

ومتتبعة لأحداثه وذلك من خلال اهتمامها بأمر شركة الهند الشرقية (البريطانية)، وكانت تقاريرها بهذا الشأن تشكل وثائق يمكن الاعتماد عليها بصورة عامة في دراسة تاريخ المنطقة، بصرف النظر عما يقع فيها من بعض الأخطاء الزمنية البسيطة مثل خطأ واردن في سنة وصول العتوب إلى الكويت. فإذا اعتمدنا على هذا التقرير الذي تسانده المصادر المحلية والعربية والأجنبية في كون آل صباح هم الذين حكموا الكويت ولم يحكمها سواهم منذ استقرار العتوب فيها، ثم علمنا أن والد صباح الأول (جابر) قد توفي أثناء رحلتهم وبالتحديد في مدينة (الزبارة)، فإننا نستطيع أن نؤكد تولي صباح الأول منذ وصول العتوب إلى الكويت ما دامت أسرته هي التي تولت شؤون الحكم.

وفي هذا ما يخالف رأي الدكتور أبو حاكمة حين ذكر أن ملاحظات المستر واردن تحمل في طياتها خطأ في الترتيب الزمني للحكام، زاعماً أن صباح وخليفة لم يكونا قد ظهرا على مسرح الأحداث كزعيمين بعد، فهذا أمر غير صحيح لا تقره الأحداث ولا طبيعة الحياة القبلية، لا سيما للبدو الرحل، التي تفترض وجود زعامة معينة للقوم توجههم وتقودهم أثناء ترحالهم وإقامتهم ويرجعون إليها في تصريف أمورهم اليومية الخاصة. فإذا كان صباح وخليفة وجابر بن عتبة، أي زعماء الأسر الرئيسية الثلاث لم يظهروا كرؤساء لجماعة العتوب، فمن قاد هذه الجماعة منذ ارتحالها من موطنها الأصلي في منطقة الهدار في نجد..؟ ومن أدار أمورهم عند استقرارهم في الكويت؟

ومما يثبت شهرة صباح الأول وتوليه شؤون الحكم في الكويت في وقت قريب من تاريخ

استقرار العتوب أن (آل بنعلي) أو بن علي، (وهم جماعة رئيسية من العتوب) في هجرتهم المبكرة من الكويت إلى قطر حاولوا النزول في البحرين فمنعهم (آل بو مهير)، كما منعوهم من المرور بسفنهم بين المحرق والمنامة، وطلبوا منهم المرور شرقي جزيرة المحرق فأبى (آل بنعلي) ذلك، وفي ذلك قال شاعرهم رشيد بن عمار أبياتاً يكيل فيها المديح للشيخ صباح بن جابر[٣٨]. ولما كان للشعر دور في التاريخ فهو سجل تاريخ العرب لذلك نورد هذه الأبيات حيث يقول الشاعر:

يقول رشيد بن عمار ومن بنى
حسن القوافي من بيوت القصائد
يا مبلغ منى صباح بن جابر
فتى الجود جزل ما يمد الزهايد

إلى آخر القصيدة التي لا يهمنا منها في موضوع بحثنا إلا ما ذكرناه. ونحن نختلف مع أستاذنا الدكتور أبو حاكمة حين يبني على خطأ المستر واردن في تسمية زعيم أسرة آل صباح بـ «سليمان بن أحمد» عدة أحداث مهمة جداً في تاريخ الكويت، فبالرغم من أنني أوافقه فيما ذهب إليه في أن سليمان بن أحمد الذي أشار إليه المستر واردن ما هو إلا سليمان بن محمد أحد زعماء بني خالد والذي كان يحكم الأحساء في ذلك الوقت إلا أننا نعتقد أن خطأ واردن كان مجرد خلط في الأسماء، فنختلف مع الدكتور أبو حاكمة فيما بناه على ذلك من أحداث أولها أن الكويت كانت تحكم حكماً مباشراً من قبل بني خالد وأنها تابعة لحكم سليمان هذا بالتحديد إلى حين وفاته عام ١٧٥٢ حيث تمكن آل صباح من الاستقلال بالحكم، فمن الثابت أن بني خالد أقطعوا العتوب هذه البقعة من الأرض وسمحوا لهم بالاستقرار فيها وبناء حكمهم نتيجة لعلاقتهم المتينة السابقة والتي بدأت حين ساعدهم العتوب على فتح القطيف عام ١٦٧١، ولو أن الذي كان يحكم الكويت في تلك الفترة هو سليمان بن محمد على أنها جزء من بلاده لما ذهب صباح الأول على رأس الوفد المشار إليه آنفاً إلى والي بغداد طالباً الأمن. ولما أمكنه التصرف كحاكم للكويت في قبول شروط الدولة العثمانية بفرض حمايتها على بلاده.

ونحن نلوم الأستاذ الدكتور أبو حاكمة على هذه الأخطاء في الأحداث الأولية لتارخ الكويت كونه يعتبر مؤرخ الكويت الرسمي المدعوم من قبل لجنة رسمية عليا هي لجنة تاريخ الكويت، ويتجسم هذا الخطأ حين يأخذ عنه جميع المؤرخين المعاصرين في تسجيلهم لتاريخ الكويت وبنائهم لأهم الأحداث التي وقعت في تلك الفترة فيتبعونه فيما ذكر من أن أول من حكم الكويت حكماً مباشراً هو سليمان بن محمد أمير الاحساء وأن صباح الأول تولى الحكم بعد وفاته عام ١٧٥٢ حين استطاعت الكويت الاستقلال عن حكم بني خالد مستغلة ضعفهم نتيجة للخلافات الأسرية التي وقعت بين أفراد أسرة الخوالد إلى غير ذلك من الأحداث.

فيذكر د. أبو حاكمة تبعاً لما بناه من أحداث نتيجة خطأ واردن بالاسم أنه لم يكن لصباح الأول شهرة كبيرة قبل تسلمه شؤون المدينة وأن والده جابر مثلاً لم يرد له ذكر في الروايات المعاصرة. فلو لم يكن لصباح شهرة تميزه وتجعله أهلاً للحكم فما الذي جعل القوم يختارونه ويولونه ويعاهدونه على السمع والطاعة. كما أنه من الجائز أن جابر بن عتبة الذي ذكره واردن أنه زعيم الجلاهمة ما هو إلا جابر والد صباح الأول لأن زعيم الجلاهمة هو (عذبي) الذي هو جد الجلاهمة وآل بنعلي غير أن المصادر تعود وتسمي زعيماً آخر للجلاهمة هو (رحمة بن جابر) مما يدل أن والده جابر. ومن الثابت أنه كانت لجابر والد صباح زعامة في قومه أثناء رحلتهم من موطنهم الأصلي بالتعاون مع خليفة جد آل خليفة وعذبي جد الجلاهمة[٣٩]. وأنه استمر على هذه الزعامة إلى أن توفاه الله خلال الرحلة في مدينة الزبارة.

وبالتالي فإنني أكاد أجزم أن كل ما أشار إليه الدكتور أبو حاكمة بهذا الصدد قد غلب عليه الخطأ، فقد أثبتنا فيما تقدم بالوقائع المادية أن صباح الأول تسلم الحكم في السنوات الأولى التي أعقبت وصول العتوب إلى الكويت حوالي عام ١٧٠١م / ١١١٢هـ. ونضيف إلى ذلك ما أشار إليه الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة (وزير العدل البحريني ورئيس مركز الوثائق التاريخية) حول ملاحظاته عن أعمار المهاجرين

الأوائل من أنه من غير المعقول أن يكون الشيخ صباح الأول قد توفي عام ١١٩٠هـ وذلك لأنه أحد المهاجرين الأوائل من الهدار وهجرتهم كانت قبل عام ١٠٨٢هـ (حيث كانوا في تلك السنة في الاحساء) وبما أن أعمار المهاجرين الأوائل عند هجرتهم تزيد على عشرين سنة أو ثلاثين سنة، فإذا افترض أن الشيخ صباح الأول والحالة هذه قد ولد عام ١٠٦٠ هجرية فإن الفرق بين هذه السنة وسنة ١١٩٠ هو ١٣٠ سنة[٤٠]، فلا يعقل أن يكون قد عاش كل هذه المدة ولا بد أن وفاته جاءت قبل هذا التاريخ بفترة طويلة لا تقل عن ثلاثين سنة أي أنه توفي حوالي عام ١١٦٠هـ الموافق ١٧٤٦م. وإذا علمنا أن الشيخ صباح الأول قد حكم فترة طويلة من الزمن فلا بد أنه تولى في السنوات الأولى لاستقرار العتوب في الكويت.

كما أن عثمان بن سند قد ذكر في كتابه (سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد) أنه عندما انتقل رزق والد أحمد بن رزق إلى الكويت كان الحكم في الكويت للشيخ عبدالله بن صباح[٤٠] (الابن الأصغر للشيخ صباح)، ولما كان أقرب تاريخ لهجرة رزق من نجد إلى الكويت هو عام ١١٧٦ هجرية فلا بد أن تكون وفاة الشيخ صباح قبل ذلك بوقت غير قصير، لا سيما بعد أن عرفنا أن الشيخ عبدالله لم يخلف أباه مباشرة وإنما تولى الحكم بعد الشيخ صباح ابن آخر أكبر سناً هو الشيخ مبارك خلافاً لما تذكره المصادر المحلية. وهذا ما عرفناه من تقرير (Kniphausen) مدير شركة الهند الشرقية الهولندية في (خرج) ومساعده جان فان در هولست (Jan Fanehoulest) في سنة ١٧٥٦م وجاء في هذا التقرير عن العتوب ما مجمله أن الشيخ ناصر (نصر) المذكور لجأ إلى العتوب واستنجدهم في فتح البحرين على أن يعفيهم في مقابل ذلك من دفع أية ضريبة على ممارسة الغوص في مغاصات البحرين. وكان العتوب يعيشون في وئام. وأهمهم هو الشيخ مبارك بن صباح ولكنه صغير السن ومحدود الثروة[٤٢].

ولما كان التاريخ رواية ودراية كما يقول الدكتور علي أبا حسين فالرواية تسندها الوثائق، و الدراية هي ما يقبله العقل بالدليل المنطقي. وقد أثبتنا من خلال ما اعتمدنا عليه من وثائق وما توصلنا إليه بالدليل المنطقي بأن الشيخ صباح الأول هو أول من تولى حكم الكويت، وأن فترة توليه لشؤون الحكم تبدأ في السنوات الأولى التي أعقبت استقرار العتوب في الكويت حوالي عام ١٧٠١ وهذا التاريخ هو أيضاً ما أثبتناه من خلال الوثائق والوقائع المادية وتسلسل الأحداث بحيث أكدنا هذا التاريخ بالدليل المنطقي والمادي.

ويؤكد لنا تولي الشيخ صباح الأول في تاريخ مبكر من وصول العتوب إلى الكويت واستقرارهم فيها ما يذكره المؤرخون من أنه كان لأسرة آل الصباح لون من السيطرة السياسية على بقية فروع القبيلة منذ استقرارهم في الكويت، وتأسيس دولة العتوب فيها[٤٣].

نمو الكويت وازدهارها

كان لموقع الكويت الاستراتيجي الهام، ولطبيعة سكانها الجدد المسالمين، ومعرفتهم القوية والأكيدة بأصول التجارة والنقل البحري للتجارة والأفراد، ودرايتهم بفنون الغوص وأماكن المغاصات الغنية باللؤلؤ في الخليج العربي — الأثر الكبير في سرعة نمو الكويت بدرجة تدعو للاعجاب والفخر.

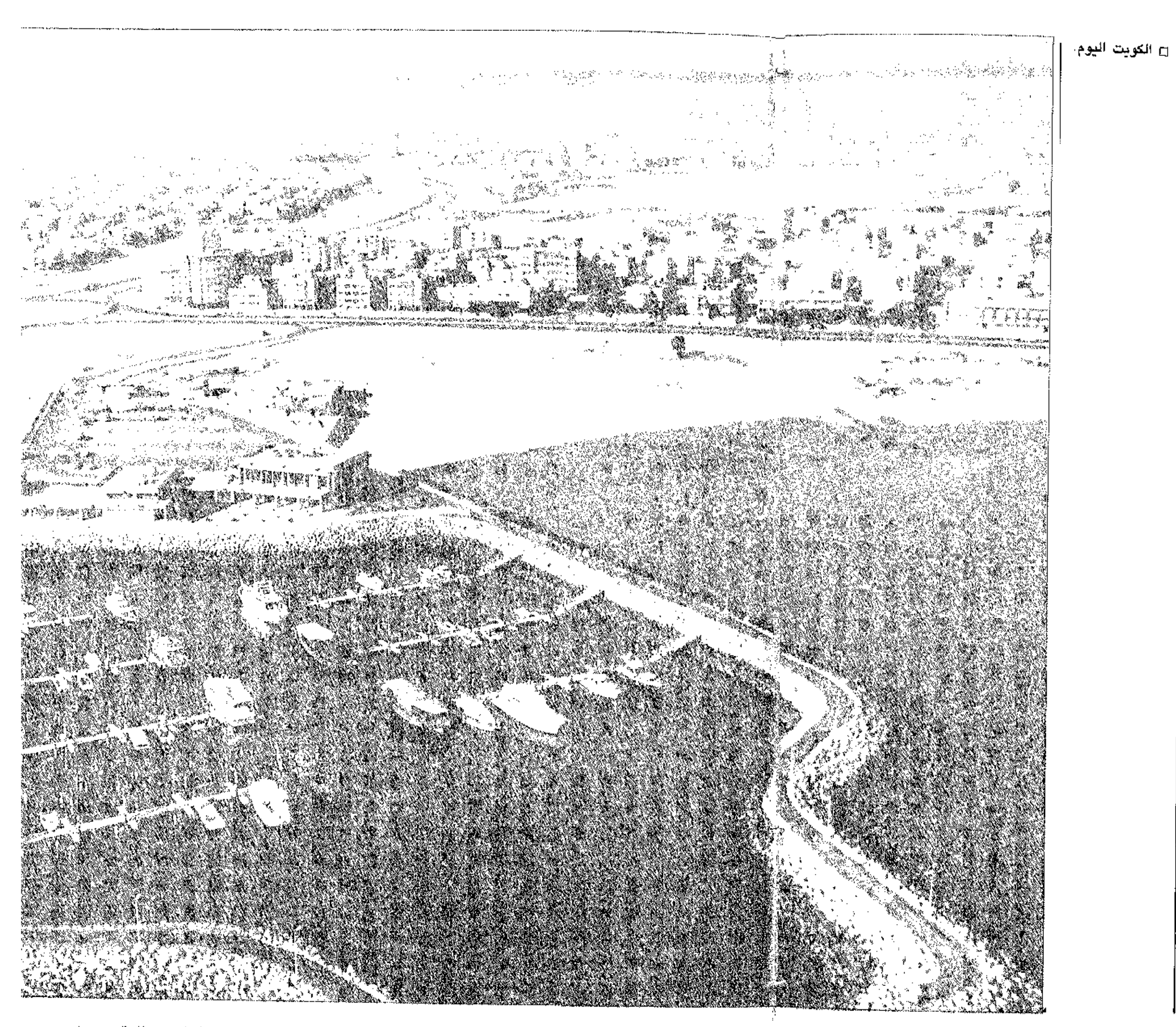
فقد نمت مدينة الكويت من حيث الأهمية والثروة نمواً عظيماً في الخمسين سنة الأولى التي أعقبت تأسيسها، ونجح العتوب بواسطة تحالفهم البحري مع سواهم من القبائل المجاورة وبفضل حكمة حكامها من آل الصباح أن يدعموا وجودهم[٤٤]، في وطنهم الجديد، وأن يوسعوا رقعة أرضهم ويمتدوا بسلطانهم بعيداً في المنطقة المجاورة لهم في الخليج العربي والجزيرة العربية. وقد غدت الكويت محطة للقوافل المسافرة بين حلب وشرقي الجزيرة العربية، وفي هذا دلالة على استقرار الأحوال السياسية في الكويت وعلى نموها وازدهارها التجاري في ذلك الوقت المبكر من عمرها. فقد كانت القوافل المارة بالكويت تحمل معها بضائع الهند التي كانت تصل على السفن الكويتية التي تحمل إلى جانب البضائع الركاب المسافرين إلى حلب وغيرها من الأماكن القريبة ممن يكونون قد وصلوا شمالي

الخليج العربي قادمين من الهند أو جنوبي الخليج العربي[٤٥].

ولعله من المناسب بهذا الصدد أن نشير إلى ما ورد بتقرير مدير شركة الهند الهولندية ومساعده عام ١٧٥٦م إلى الحاكم العام لشركة الهند الشرقية الهولندية (آنف الذكر) عن المنطقة الساحلية للخليج العربي وسكانها، إذ يذكر التقرير أن العتوب يمتلكون ٣٠٠ سفينة معظمها صغير ويستخدمونها للغوص على اللؤلؤ الذي هو مصدر معيشتهم إذا شحت الأمطار. ويبلغ عددهم ٤٠٠٠ نسمة. ولكن صغر حجم مراكبهم لا تسمح لهم بالابحار إلى مسافات طويلة، والمغاصات التي يرتادونها لصيد اللؤلؤ تقع بين البحرين ورأس بردستان[٤٦].

ونستفيد من هذا التقرير معرفة أحوال العتوب وأوضاعهم بصورة عامة وأنهم يمتلكون عدداً لا بأس به من السفن نسبيا، ويشتغلون في الغوص على اللؤلؤ الذي يعتبر مورداً هاماً لحياتهم.

ويعزز تقرير آخر للدكتور ايفز (Dr. Ives) ما ذهب إليه التقرير السابق في وصفه لأحوال العتوب. ولما كان الدكتور إيفز هو أول رحالة أوروبي يذكر الكويت بعد تأسيس العتوب حكمهم وذلك في وصفه لرحلته مع رفاقه عام ١٧٥٨م قادمين من الهند إلى أوروبا ــ لذا كان من المفيد أن نشير إلى هذا التقرير بشيء من الايجاز لتتضح لنا صورة الكويت في ذلك الوقت. فقد حل الدكتور إيفز مع رفاقه في ضيافة البارون (Kniphausin) رئيس الوكالة التجارية الهولندية في (جزيرة خرج)[٤٧] واستفسروا منه عن أسرع الطرق إلى حلب، فأشار عليهم أن يتجهوا إلى الكويت ومنها يستطيعون السفر بسرعة إلى حلب بواسطة القوافل. وأكد البارون أن شيخ الكويت[٤٨] صديق عزيز عليه، وأن له عليه تأثيراً كبيراً نتيجة لفضل سابق قدمه للشيخ. لذا فهو واثق من مساعدته لضيوفه وتسهيل سفرهم عبر أراضيه وبواسطته. وأوضح البارون أن القافلة ستقطع الطريق بين الكويت وحلب في مدة تتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين يوما، وأنهم بذلك يختصرون زمناً يتراوح بين اسبوعين إلى أربعة[٤٩].



□ الكويت اليوم.

وبالرغم من أن هذه الرحلة لم تتم ــ نتيجة اختلاف البارون مع شيخ الكويت حول المبلغ الذي يتقاضاه الأخير نظير إيصال ضيوفه إلى حلب سالمين ــ إلا أنها أوضحت لنا على أية حال كيف كان البارون مطمئناً وواثقاً إلى أن طريق الكويت والسفر عبره إلى حلب هو أفضل الطرق وآمنها وأيسرها لكي يسلكه الأوروبيون مهما كان عددهم قليلاً دون خوف، مما يدل دلالة واضحة أن هذا الطريق كان معروفاً ومطروقاً بكثرة لأمانه وقصره نسبة إلى سواه من الطرق الأخرى في المنطقة، ونظراً لموقعه الممتاز بين المدن التجارية المشهورة في ذلك الوقت. وهذا لا شك يدلنا على حالة الاستقرار الأكيدة في الكويت، ويظهر لنا ما بلغته الكويت من ازدهار وانتعاش تجاري كبيرين. وهذا بحد ذاته أفاد الكويت فائدة مادية كبيرة لما تمتعت به من شهرة وسمعة طيبة في نقل التجارة عن طريق البحر عبر الخليج العربي من الهند وإليها، والتي كانت تحملها سفن التجار الكويتيين وغيرهم من تجار المدن المجاورة. وذلك إلى جانب الاشتغال بنقل التجارة عن طريق البر بواسطة القوافل من الكويت وإليها. فكانت الكويت وبالذات قرية الجهرة محطة للقوافل المتجهة من الكويت إلى البصرة والشام.

وكان هذا المصدر المادي الكبير المتأتي من تجارة النقل البحري والبري يمثل المصدر الأساسي والأكبر بالنسبة لدخل تلك المدينة الناشئة، يضاف إليه مصدر آخر مهم أيضاً وهو ما يتأتى للكويت من مال وفير بالنسبة لذلك الوقت وهو نتيجة ما تتحصل عليه من الغوص على اللؤلؤ. وقد بلغ عدد السفن المستخدمة في الغوص ثمانمائة سفينة، وذلك وفقاً لرواية الرحالة نيبور (Niebhuhr) عام ١٧٦٥م الذي أشاد بمهارة الكويتيين البحرية[٥٠]. والفارق في عدد السفن بين ما ذكره (Kniphausen) عام ١٧٥٦م أن الكويت تمتلكه وبين ما يذكره نيبور عام ١٧٦٥م يوضح التطور السريع الذي سارت عليه الكويت في مجال قوتها البحرية المستخدمة في الغوص بحيث فاقت الزيادة في عدد السفن عن الضعف وقاربت الضعفين في مدة تقل عن عشر سنوات، وهو أمر ملفت للنظر. وقد نستغرب أن يكون للكويت في تاريخها المبكر هذا العدد من السفن التي تستخدمها في الغوص وحده. هذا غير ما عداها من السفن والمراكب مما هو مستخدم في أغراض أخرى مثل التجارة والنقل البحري للتجارة والأفراد، ثم السفن الحربية التي تتطلبها حالة الصراع والتنافس بين القوى في منطقة الخليج العربي، وتستوجب وجودها دواعي حماية المدينة الجديدة. إلا أن عجبنا يتلاشى عندما نتذكر ما جاء في الوثيقة العثمانية (رقم ١١١ في دفتر المهمة) عن قوة العتوب الذين برعوا في ركوب البحر وصار لهم سفن تحمل المدافع والجنود المسلحين. وأصبحوا من القوى التي تسيطر على الغوص والتجارة في الخليج العربي إلى درجة أدعى معها والي البصرة أن سفن التجار لم تتمكن من المرور بأي بندر (ميناء) في الخليج العربي في طريقها إلى البصرة دون التعرض لقوتهم. كما أشارت الوثيقة أن الوالي الفارسي على البحرين بات يخشى هذه القوة البحرية المتزايدة مما دعاه لاغراء (الهولة)[٥١] على محاربتهم ومناوشتهم في البحر لا سيما بعد أن أحسوا بمنافسة العتوب لهم في النقل البحري (القطاعة) والغوص مما دفعهم إلى مهاجمة العتوب بغتة عند (رأس تنورة) وجرت معركة قتل فيها أربعمائة من العتوب[٥٢]. وعندما علم العتوب أن ذلك الهجوم كان بتدبير من والي البحرين (مهدي علي خان) قرروا مهاجمة البحرين بالفعل عام ١١١٢هـ، الموافق ١٧٠٠م[٥٣] فاستطاع العتوب السيطرة على البحرين والتجأ واليها الفارسي إلى القلاع وتحصن بها هو وجنده.

ويشير د. أبا حسين أن معركة (رأس تنورة) بين الهولة والعتوب وقعت بعد هذه المعركة، وعلى أثرها يمموا البصرة، وأن ما حصل قبل الهجوم على البحرين بين العتوب والهولة كان مجرد مناوشات. أما بعد مهاجمة البحرين فقد كتب القاضي الشيخ محمد بن عبدالله بن ماجد إلى الهولة حيث كانت الدولة الايرانية أضعف من أن تنجدهم فلبى الهولة وهاجموا العتوب في رأس تنورة[٥٤].

ومهما يكن الأمر سواء كانت معركة (رأس تنورة) قبل أو بعد مهاجمة البحرين، فالذي يهمنا

أن نثبت من خلال هذه المعارك قوة العتـوب الكبيـرة وكثـرة سفنهم ومعـداتهم الحـربيـة، واشتغالهم بالتجارة والنقل والغوص على اللؤلؤ. فإذا كانت هذه هي حالهم قبـل وصولهم إلى الكويت واستقرارهم فيها وبناء وطنهم الجديد، أي أن تلك كانت قوتهم وهم في مرحلة التنقل والسفر وعدم الاستقرار ــ فكيف تكون أحوالهم عند استقرارهم وتأسيس حكمهم وإرساء دعائم دولتهم. فمما لا شك فيه أن تلك القوة ستتعزز، وذلك النشـاط والازدهار الاقتصـادي سيقوى وينمو.

لقد برع أبناء الكويت (الجدد) في مهنة النقل التجاري البحري، وكانوا عـلى دراية واسعـة بالمواني القريبة والبعيدة وبأيسر الطرق للوصول إليها، وأماكن رسو السفن، وكان هدوء مياه الخليج العربـي عاملاً مشجعاً على ركوب البحر ومزاولة هذه المهنة، لا سيما وأن ميناء الكويت (القرين) اشتهر منذ فترة طويلة كمحطة لرسو السفن مما ساعد سكان الكويت القدمـاء (في التاريخ القديم والوسيط) على مزاولة مهنة النقل التجاري.

إلا أنه لا بد من التأكيد على أنه حتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر اقتصر عمل السفن الكويتية الشراعية عـلى المواني القـريبة مثـل البصرة ومسقط وفارس وباقي موانى الخليج العربـي، وذلك نظراً لكـون السفن المستعملة آنذاك كانت صغيرة ومن اليسير عليها الابحار بعيداً عن مياه الخليج العربـي، ولكن منذ الربع الأخير من القرن المذكور وبعد أن ازدهرت تجارة الكويت بدأ العمل في بناء السفن الكبيرة للسفر بواسطتها إلى الهند وسواحل أفريقيا.

نمو الكويت السياسي وعوامله

أعقب فترة تأسيس الكـويت فترة ازدهـار الخليج العربـي. ولعل بداية هذا النمو والازدهار يمكن تحديدها ببداية حكم الشيخ صباح بن جابر حين صار شيخاً لجميع العتوب النازلين بـأرض الكويت فقـد شهدت الكـويت تحولات سياسية هامة على أثر توليته كان لها الفضل في إبراز الكويت كوحدة سياسية هامة ومؤثرة في المنطقة وذلك بالرغم من صغر مساحتها وقلة سكـانها، إلا أن حكمة ذلك الشيـخ الجليـل وتواضعه إلى جانب تعاون العتـوب ونشاطهم الجـاد في مختلف الأمور التي سـاعدت عـلى النهوض بوطنهم الجديد وعلو شأنه ومكانته في الفترة القصيرة جداً التي أعقبت استقرارهم في الكويت مما شد الأنظار إلى هذه البقعة القصيرة فكان نجاح العتوب في إبراز كيان وطنهم السياسي المستقـل وعملهم الجاد عـلى تطويـره وتنميته والارتفاع به إلى أكبر من حجمه مدعـاة إعجاب المحيطين والمؤرخين والرحالة الذين بدأ توافدهم على المنطقة يزداد في تلك الفترة.

وتعتبر الخمسينات من القـرن الثامن عشر سنـوات حسم بالنسبـة لتاريـخ الكويت حيث استقـرت أحـوالهـا بصـورة عـامـة ونضجت أوضاعها السياسية وتـطورت تطوراً سـريعا وقطعت شأواً كبيراً في النمو والازدهار وتعاظمت فيه قوتها فكانت هذه القوة مما ساعد العتوب على تأسيس دول لهم في جنوب الخليـج العربـي، فأسسوا في تلك الفترة دولتهم في الزبارة بقطر، ثم مدوا سلطتهم على البحرين، فأدى قيام تلك الدول للعتوب وتحالفها مع عتوب الكويت بدوره إلى زيادة تطور الأخيرة وتقدمها السريع[٥٥]، وبلوغها شأناً عظيماً من الازدهار. وقد تضافرت عوامل عديدة، منها الداخلية ومنها الخارجية مع بعضها البعض لتزيد من سرعة نمو الكـويت وتقدمها. ويمكن أن نوجز أهم هذه العوامـل والأسباب بما يلي:

أولاً ــ خروج البرتغاليين من الخليـج:

أتاح خروج البرتغاليـين من الخليج وانعـدام قوتهم الاستعمارية المؤثرة على سير الأحداث، الفرصة أمـام عتوب الكـويت لتعزيـز حكمهم واستقرارهم دون الخوف من خطر البرتغاليين على وطنهم الجديد واستقلالهم به، وترك المجال واسعاً أمام العتوب في الكويت لممارسة نشاطهم التجاري والتوسع به في أنحاء الخليج ومتابعة أعمـال النقل البحـري والغـوص عـلى اللؤلؤ والتوسع في هذه المجالات بحرية وأمان. وبالرغم من أن خروج البرتغاليين كان في فترة متقدمة على إنشاء العتوب لدولتهم في الكويت وبالتحديد كان خروجهم في منتصف القرن السابع عشر بينما كان استقرار العتوب في الكويت في مطلع القرن

الثامن عشر إلا أن خروج البرتغاليين مكن العتوب من إتمام رحلتهم من موطنهم الأصلي في نجد نحو موطنهم الجديد في الكويت بسلام، كما خلصهم من سياسة البرتغاليين القائمة على التعصب والجشع والاحتكار والقسوة[٥٦]، وبالتالي تمكن العتوب من تأسيس حكمهم وتطوير بلدهم سياسياً واقتصادياً دون التعرض لشر الاصطدام بالبرتغاليين. وبالرغم من ظهور قوى أوروبية أخرى في الخليج العربي (الهولنديين والانكليز) إلا أنها كانت أقل تصلباً وتسلطاً في التعامل مع أهله، لذلك لم يكن لهذه القوى أثر معاكس لنمو الكويت وتطورها.

ثانياً ــ القوة البحرية: إن القوة البحرية التي أسسها العتوب للنقل والغوص والتجارة كانت مزودة بأدوات عسكرية كالمدافع والبنادق وغيرها[٥٧]، مما جعلها قوة بحرية كان لها أثرها على مياه الخليج وسواحله في ذلك الوقت، لا سيما وأنهم وصلوا إلى الكويت وهم محافظون على قوتهم البحرية، لأنهم ومن والاهم من العشائر برعوا في ركوب البحر وصار لهم سفن تحمل المدافع والجنود المسلحين، وأصبحوا من القوى التي تسيطر على الغوص والتجارة في الخليج العربي[٥٨]. وتعززت تلك القوة البحرية في الربع الأخير للقرن الثامن عشر حين تأسست البحرية الكويتية التي علا شأنها بين دول الخليج العربي في ذات الوقت، مما دعم قوة الكويت الدفاعية وأرسى قواعد استقرارها. فنتيجة لنمو تجارة الكويت زادوا من سفنهم التجارية وكبروا حجمها، وصحبت هذه الزيادة في السفن التجارية زيادة في السفن الحربية لحماية اسطولهم التجاري، وبالتالي فإن الكويت أصبحت ذات قوة بحرية كبيرة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

ثالثاً ــ التطور التجاري والاقتصادي: مما لا شك فيه أن الكويت استفادت فائدة كبرى مما حققته من نشاط تجاري ينمو على الأيام، وما بلغته من مستوى مرموق في نقل التجارة عن طريق البحر والقوافل من الكويت وإليها. ثم تتطور مهنة الغوص على اللؤلؤ وصناعة السفن، مما أفادها فائدة مادية كبيرة أثرت في انتعاشها الاقتصادي فانعكس ذلك الانتعاش على نموها السياسي واستقرار الحكم فيها وثبات نفوذه.

رابعاً ــ حماية بني خالد: نشأت الكويت في أول عهدها في ظل حكم بني خالد وتحت حمايتهم مما أعطاها الفرصة للنمو والازدهار دون خشية الهجمات والغارات والاعتداءات الخارجية، حيث كان بمقدور شيوخ بني خالد أن يتصدوا لمن يحاول الاعتداء على ممتلكاتهم وعلى من يستظل بحمايتهم. وقد حرص أمراء بني خالد على استتباب الأمن في ديارهم[٥٩] حتى تكون الطرق التجارية فيها متمتعة بالطمأنينة والأمن. فكان بمقدور بني خالد منح حمايتهم لسائر المدن في المنطقة التابعة لهم. وفي ظل هذا الأمن الخالدي نشأت الكويت وترعرعت، ونمت وتطورت، هذا في الوقت الذي استعرت فيه الخلافات الأسرية فأنهكت الخوالد منذ العقود الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي مما أتاح الفرصة للعتوب لكي ينفردوا بحكم المناطق التي استقروا بها وأسسوا دولتهم فيها.

خامساً ــ عدم وجود قوة بحرية ضاربة في الخليج: من العوامل التي ساعدت الكويت على النمو والازدهار وسط ظروف آمنة مستقرة عدم وجود قوة بحرية ضاربة في الخليج إلا قوة العشائر العربية القاطنة على ضفافه بشطريه العربي والفارسي. أما قوة عمان فقد وجهت نحو التوسع خارج الخليج في هذه الفترة التاريخية التي شهدت حكم (سيف بن سلطان) من أسرة اليعاربة والذي امتد حكمه ما بين ١١٠٤هـ / ١٦٩٢م إلى سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م حيث بلغت أمامة عمان أوج عظمتها بفضل تكوينه أسطولاً بحرياً قوياً مد به نفوذ بلاده إلى الهند وشرقي إفريقيا، ونجح اليعاربة في إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين مما شغلهم عما يدور في الخليج، فوجد العتوب فرصتهم في ممارسة نشاطهم التجاري وصار لهم اسطولهم الذي يجوب الخليج.

سادساً ــ ضعف بلاد فارس: ساعد اضطراب أحوال بلاد فارس وعدم استقرارها، الكويت الناشئة على النمو والتطور دون أن تتعرض لخطر جشع حكام فارس واعتداءاتهم ودون أن تقع تحت تأثيرهم أو سيطرتهم، فحين استقر العتوب في الكويت في مطلع القرن

الثامن عشر كانت الامبراطورية الصفوية قد دب فيها الهرم نتيجة للفوضى والاضطراب التي سادتها[٦٠]، مما دفع الشعوب الواقعة تحت نفوذها إلى محاولة الاستقلال فقامت بحركات عسكرية للتخلص من سيطرة الفرس، وذلك في الوقت الذي تعرضت فيه فارس للغزو الأفغاني ثم العثماني ثم الروسي على التوالي مما أتاح الفرصة للدول الناشئة في الخليج العربي ومنها الكويت إلى التحرر من أي نفوذ فارسي قد يحاول حكام إيران فرضه عليها. وكان ذلك خلال حكم (سلطان حسين بن الشاه سليمان) ١٦٩٣ ــ ١٧١٢م[٦١]. وعندما آل الحكم لنادر شاه عام ١٧٢٦م سيطر على فارس وامتدت أطماعه إلى الخليج العربي وتبنى (سياسته البحرية) في الشمال والجنوب أي في بحر قزوين والخليج العربي، إلا أن هذه السياسة باءت بالفشل لعدم توفر البحارة الفرس اللازمين لمواكبة ذلك الطموح السياسي. وكان قوام اسطوله من الهنود والبرتغاليين[٦٢].

سابعاً ــ أوضاع العراق العثماني: عملت الأوضاع السياسية المهلهلة السائدة في العراق العثماني على أن تحتل الكويت مكاناً مرموقاً في عالم الخليج العربي، فقد شهدت البصرة منذ أواخر القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر الميلادي فترة اضطرابات وفتن استمرت حتى نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد صاحب هذه الاضطرابات انتشار وباء الطاعون الذي أفنى البصرة وخربها خراباً أدى إلى هجرة بعض أهليها، وبهذا لم تكن أوضاع العراق العثماني بأحسن حال من جيرانهم الفرس. لذا فلم يكن بمقدورهم بالتالي أن يلعبوا دوراً ذا بال في هذه الحقبة من الزمن، بالاضافة إلى أن قوتهم لم تكن قادرة على تحدي قوة بني خالد على السواحل الشرقية للخليج العربي. ويكفي أن نقول أن البصرة خلت من السكان بسبب الطاعون والمجاعة واضطهاد حكامها العثمانيين وتسلطهم[٦٣].

ثامناً ــ احتلال الفرس للبصرة (١٧٧٦ ــ ١٧٧٩): لما كان لاحتلال الفرس للبصرة تأثير سياسي وتأثير اقتصادي، لذا سنتكلم هنا عن التأثير السياسي تاركين التأثير الاقتصادي والأكثر أهمية إلى مجاله. فبالنسبة للتأثير السياسي نجد أن احتلال الفرس للبصرة دفع بكثير من أهلها ــ ولا سيما من كانوا من أصول نجدية وعربية ــ إلى الهجرة إلى الكويت، فزاد ذلك من سكان الكويت بشكل ملحوظ، مما زاد من مسؤولياتها السياسية تجاه القادمين الجدد وترتيب أمور استقرارهم، واتخاذ ترتيبات أمنية لمواجهة أي محاولة فارسية للامتداد إلى الكويت، في الوقت الذي أدى هذا الاحتلال إلى تلاشي أي محاولة من سلطات البصرة إلى تحويل سلطاتها الاسمية إلى سلطات فعلية بفرض تبعية الكويت للدولة العثمانية أو محاولة ضمها.

ومن ناحية أخرى فإن احتلال الفرس للبصرة حول الأنظار إلى الكويت مما دعم مركزها السياسي لدى القوى المحلية (العربية) والقوى الأجنبية المتمثلة بالشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية الهولندية وشركة الهند الشرقية الانكليزية. وهكذا سنحت الفرصة للكويت للظهور والبروز في المنطقة، كما أن الكويت لم تتأثر سلبياً بنتيجة الاحتلال، لأن حكامها عرفوا كيف يتصرفون أثناء الحصار، فاتبعوا سياسة ذات حدين في إرضاء الطرفين لأنهم كانوا يجهلون لمن ستكون الغلبة، فساعدوا (كريم خان) بأن أرسلوا له حوالي مئتي رجل لمساعدته، في حين استقبلوا السفن العثمانية لاصلاحها في ميناء الكويت[٦٤].

تاسعاً ــ النزاع بين القواسم ومسقط: كانت القوتان العربيتان الكبيرتان في الطرف الجنوبي من الخليج العربي وهما القواسم في صور وسلطان مسقط ــ في صراع مستمر وتنافس دائم فمنحت حالة النزاع والشك التي طبعت العلائق بين إمام عمان والقواسم فرصة إضافية للعتوب للنمو بدون الخوف من اعتداء الامام أو القواسم حتى عام ١٧٨٢[٦٥].

عاشراً ــ حرص الشركات الأوروبية على الأمن في الخليج: بعد أن عملت قوتان أوروبيتان متضامنتان على طرد البرتغاليين من الخليج العربي وإقصاء نفوذهم التجاري والسياسي عنه وهما الانكليز والهولنديون[٦٦] سعت كل من هاتين الدولتين إلى تأسيس وتثبيت مصالحها التجارية والسياسية في المنطقة من خلال شركتي

الهند الشرقية الهولندية والهند الشرقية الانكليزية. أما الفرنسيون فيبدو أن وجودهم في الخليج كان سياسياً أكثر منه تجاريا، إلا أنهم أسسوا أيضاً شركة تجارية تسمى شركة الهند الشرقية الفرنسية، وهي شركة بدأت في العمل منذ بداية القرن السابع عشر، غير أنها كانت تضعف ويقل نشاطها بين فترة وأخرى[٦٧]. ومهما يكن الأمر فقد كان يهم شركات الهند الشرقية الثلاث استتباب الأمن والسلام في المنطقة حتى تزدهر التجارة. وكان من الطبيعي أن ازدهار التجارة يشكل الركن الأساسي لنهضة الكويت، إلى جانب أن حرص القوى الأوروبية على الأمن والسلام ساعد الكويت على أن تنمو وتزدهر وهي في مأمن من تعديات الغزاة في المنطقة الذين واجهوا تصدي ومقاومة تلك القوى الأوروبية الثلاث التي كان أكثر ما يهمها هو الأمان والاستقرار في النصف الأول من القرن الثامن بحيث يمكن إغفال أي نفوذ لها في المنطقة في تلك الفترة التي لم تلعب فيها دوراً خطيراً لا في السياسة ولا في تجارة الخليج مما ترك المجال واسعاً للأمتين الأوروبيتين الأخريين اللتين احتلتا مركز الصدارة في تجارة وسياسة الخليج في تلك الفترة من الزمن وهما الهولنديون والانكليز.

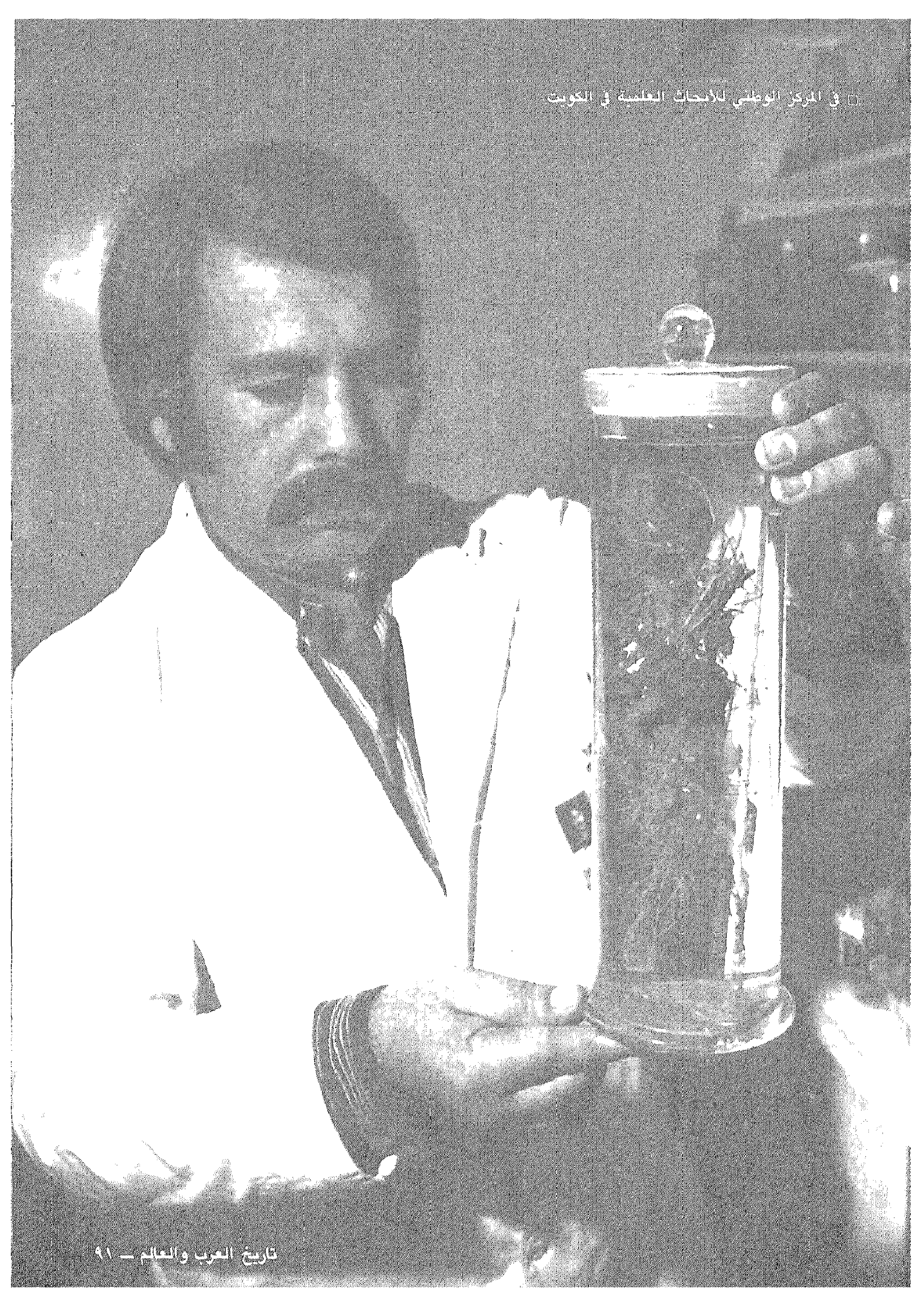
وبالرغم من مساهمة الهولنديين بدور كبير في طرد البرتغاليين من الخليج إلا أن الانكليز كانوا موقنين بأن خطر الهولنديين السياسي والتجاري يفوق الخطر البرتغالي، ومن هنا بدأ التنافس والتناحر بين كل من الأمتين، وقد وقعت عدة اشتباكات بين حليفي الأمس في ذلك القرن، مما شغل كلًا منهما عن محاولة فرض نفوذ سياسي له على مناطق الخليج التي لم تكن تابعة له، فعاشت الكويت وتطورت في تلك الفترة وهي مستقلة عن نفوذ أي منهما السياسي على الأقل.

الحادي عشر ــ عدم تعرض الكويت للخطر الوهابي: كانت مراكز الوهابيين[٦٨] في الدرعية وغيرها من بلاد نجد بعيدة عن الكويت، بالاضافة إلى أن قوتهم لم تكن قد ظهرت بعد، فقد تركزت السلطة السياسية في ساحل جزيرة العرب الشرقي بيد شيوخ بني خالد في أوائل القرن الثامن عشر حتى عندما بدأت قوة الدرعية في الظهور إلى حيز السياسة العامة عام ١٧٤٥م بعد أن لجأ لها (محمد بن عبدالوهاب) وتحالف مع محمد بن سعود على نشر دعوته وإقامة دولة الموحدين في نجد، إلا أن الوهابيين اتخذوا من بني خالد موقف المدافع لا المهاجم على مدى عشرين سنة منذ عام ١٧٤٥م وحتى ١٧٦٥م مما حفظ الكويت في تلك الفترة من تعديات الوهابيين وخطرهم حيث لم تكن هجماتهم قد استعرت بنيرانها شمالاً وشرقاً بعد، غير أن العتوب كان ولا بد أن يتأثروا بالهجوم الوهابي على الأحساء في وقت لاحق عندما غير الوهابيون موقفهم واتخذوا موقف المهاجم إذ توالت غزواتهم واشتدت على بني خالد في الفترة ما بين عامي ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م و ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م[٦٩]. حتى تم لهم القضاء على نفوذهم في الاحساء وشرقي الجزيرة العربية، فالتجأ شيوخ بني خالد إلى الكويت، غير أن كرم ضيافة الكويتيين لبني خالد زاد من عداوة الوهابيين لهم. وهكذا بقيت الكويت بعيدة عن متناول الوهابيين ما دام بنو خالد من القوة بحيث يمكنهم تحدي قوة الوهابيين. وعندما زالت تلك القوة تعرضت الكويت في أواخر القرن الثامن عشر لخطر الوهابيين مما أثر على أحوالها السياسية والاقتصادية.

الثاني عشر ــ عدم أهمية الكويت: بالرغم من اطراد نمو الكويت السياسي والاقتصادي بشكل سريع إلا أنها لم تكن غنية بشكل كاف حتى تلفت أنظار جيرانها الأقوياء[٧٠] كما أن قلة أهميتها السياسية وعدم بروزها بشكل واضح في ذلك الوقت ساعد في عدم اندفاع هؤلاء الجيران وبقية القوى في المنطقة إلى محاولة فرض نفوذهم وهيمنتهم عليها، مما تركها تنمو وتترعرع وتزدهر محافظة على استقلالها وعدم تبعيتها الفعلية إلى أي من هذه القوى والدول.

نظام الحكم في الكويت

بعد أن تتبعنا تاريخ الكويت منذ وصول العتوب إليها وتأسيس حكمهم فيها وقيام دولتهم على أرضها، ثم بحثنا العوامل والظروف التي ساعدت هذه الامارة الصغيرة على ذلك النمو والازدهار السريعين، ولما كانت طبيعة نظام



□ في المركز الوطني للأبحاث العلمية في الكويت

الحكم في الكويت من أكثر تلك العوامل التي ساعدت على نموها وازدهارها أهمية، لذا آثرنا أن نترك هذا العامل الأساسي والحيوي إلى النهاية لنفرد له جانباً نتعرف من خلاله على أهم ما اتصف به نظام الحكم في الكويت بصورة عامة وموجزة لنتبين طبيعة ذلك النظام ومدى مواءمته وملاءمته لشعبه وظروف بلاده وما يحيط بها. بحيث حقق لشعبه ما يصبو إليه من رفاهية ورخاء، وحفظ لبلاده استقلالها وحريتها، وسط ذلك الخضم المتصارع من القوى الكبرى التي أحاطت بالكويت من كل جانب منذ تأسيسها. ولنوضح قبول نظام الحكم لتلك التطورات التي حدثت ونؤكد استجابته لدواعي التقدم والنهوض على المدى الطويل، كما سيتضح في فترة لاحقة مثل الفترة التي نعيشها في تاريخنا المعاصر.

فقد تميز نظام الحكم في الكويت بكونه نظاماً ابويا، يعتمد على التشاور والتراحم والتعاون في كافة صوره. فلم تشهد الكويت منذ تأسيسها تعقيداً في أنظمة الحكم فيها. وذلك نتيجة للظروف التي كانت سائدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث كانت البساطة هي الطابع المميز للنظام في الكويت[٧١]. فإذا أخذنا في الاعتبار الحجم السكاني للكويت، والظروف التي تعيشها فإننا نستطيع القول بأن نظام الحكام كان أقرب ما يكون إلى نظام الشورى في الاسلام[٧٢].

وبصفة عامة فإن معاصري تأسيس الكويت ومتتبعي تاريخها الحديث يشيرون إلى أن نظام الحكم في الكويت يتصف بالشورى. ويدللون على ذلك بأن أول حاكم حكم الكويت في بداية نشأة كيانها (صباح الأول) كان قد تولى مسؤولياته في الحكم بطريقة الاختيار التي تماثل طريقة الانتخاب. ولا شك أن هذه الطريقة في الاختيار تعطي صورة واضحة لما كان عليه أسلوب الحكم والحياة في الكويت منذ البداية[٧٣].

هذا بالاضافة إلى ما يذكره المرحوم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه (صفحات من تاريخ الكويت) من «أن الشيخ عبدالله بن صباح الأول كان لا يبت في أمر مهم إلا بعد مشاورة جماعته ولا يخالفهم فيما يرونه صوابا»[٧٤]. كما يذكر نفس المصدر أن الشيخ صباح بن جابر تراجع عن قرار كان ينوي اتخاذه لأن أهل الرأي بين جماعته عارضوه فيه[٧٥]. ويذكر الأستاذ جاسم الصقر[٧٦] (عضو مجلس الأمة الكويتي) أن (المرحوم خليفة الشاهين الغانم) روى له روايات حدثت في عهد الشيخ (جابر العيش)[٧٧] تؤكد صحة ما أشرنا إليه من اتباع الكويت لنظام الشورى منذ تأسيسها، إلا أن تأكيدنا هذا لا يجعلنا نذهب بعيداً لنصف نظام الحكم في الكويت بصفة الشورى والديمقراطية في كافة مراحله، بل لا بد أن نعترف بأنه مرت على الكويت بعض الظروف والأحداث التي دعت القائمين على الحكم فيه ينصرفون عن الشورى، ويتجهون إلى النظام الفردي. وكان ذلك في عهد الشيخ مبارك مثلاً. ●

الهوامش

(١) الكويت: هي تصغير لكلمة «كوت» وهي القلعة. ويختلف المؤرخون حول أصل تسمية الكويت مثلما اختلفوا على تاريخ تأسيسها ووصول العتوب إليها وتاريخ اختيار صباح الأول، وتتراوح الآراء بين الاشتقاق اللغوي والمكان الجغرافي، وبين الأصل الأجنبي أو العربي. فبينما يؤكد الأب انستاس ماري الكرملي انها من الكلمات الدارجة لدى سكان جنوب العراق وشبه الجزيرة العربية وبعض أجزاء من فارس وانها تعني البيت الذي يشبه القلعة بحيث يمكن الدفاع عنه إذا تعرض لهجوم ولا يطلق عليه هذا الاسم إلا إذا كان محاطاً بماء سواء كان نهراً أو بحراً، يردها الشيخ محمود شكري الألوسي إلى النبطية، والنبطية وردت عند الناطقين بالضاد (العرب) وهذا يعزز ما ذهب إليه الأب الكرملي، غير أن البعض يذكر أنها برتغالية وانها تعني الحصن. إلا ان الأستاذ العزاوي (مؤرخ عراقي) في كتابه «علم الفلك في العراق» ينفي ذلك ويردها إلى الأصل الهندي حيث سميت كثير من المدن الهندية بهذا الاسم مثل (قال قوت). ومهما يكن أصل الكلمة فإن الجميع يجمعون على اشتقاقها من كلمة (كوت) بمعنى القلعة المربعة.

(٢) بالرغم من أن الدكتور أبو حاكمة يعتبر أول مؤرخ أكاديمي كتب تاريخ الكويت بصورة علمية شاملة معتمداً في ذلك على الوثائق التاريخية والمعلومات التي زودته بها لجنة تاريخ الكويت، إلا انه مع الأسف لم يفدنا بما يفك اللبس عن هذه الأشياء المذكورة ويؤكد ويحدد تاريخها بشكل قاطع. مما يجعلنا في حيرة من أمرنا.

(٣) عبدالعزيز الرشيد تاريخ الكويت، ص ٣١. (منشورات دار مكتبة الحياة ـــ بيروت ـــ ١٩٦٢م).
(٤) تنتمي أسرة آل سعود إلى نفس القبيلة (عنزة) وبذلك تكون ثلاث أسر حاكمة في الخليج (السعودية والكويت والبحرين) تعود في أصلها إلى هذه القبيلة. ولا شك أن هذا الأصل الواحد يعزز الترابط بين هذه الدول الثلاث.
(٥) عثمان بن سند المصري: سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، ص ١٨. (بومباي ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م).
(٦) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب (مجهول المؤلف) ص. ص. ٩٥ ـــ ١٠٧.
(٧) عن رواية المغفور له الأمير الأسبق الشيخ عبدالله السالم الصباح للكولونيل (ديكسون Dickson) المعتمد البريطاني في الكويت والذي جاء إلى الكويت عام ١٩٣٩م وظل فيها حتى وفاته عام ١٩٦٠ وله علاقات طيبة مع أهلها.
(٨) د. أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث (١٧٥٠ ـــ ١٩٦٥م)، ص ٢٣، (الكويت ـــ الطبعة الأولى ١٩٨٤).
M. Vonoppenheim Die Beduinen, Leipzig 1939. 1.62.
(٩) يقول بن سند: «والذي يظهر أن بني عتبة متباينو النسب، ولم تجمعهم شجرة أم وأب، ولكن تقاربوا فنسب بعضهم إلى بعض».
(١٠) الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة، مجلة الوثيقة، العدد الثالث، السنة الثانية ـــ رمضان ١٤٠٣هـ يوليو ١٩٨٢، ص ١٤.
(١١) تعليق الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة على مقالات (البحرين قديماً وحديثاً) بجريدة الوطن الكويتية المنشور في مجلة الوثيقة التي يصدرها مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ـــ العدد الثالث / السنة الثانية رمضان ١٤٠٣هـ ـــ يوليو ١٩٨٣م.
(١٢) وقد جددت دائرة الأوقاف العامة مسجد آل خليفة بتاريخ ٣/٨/١٣٧٤هـ الموافق ٢٧/٣/١٩٥٥م، وبلغت تكاليفه ١٤٥,٩٩٩ روبية، لذا فقد تكون المطالبة بهذا الوقف في ذلك التاريخ.
(١٣) الوثيقة، العدد الأول، السنة الأولى رمضان ١٤٠٢هـ ـــ يوليه ١٩٨٢م (مركز الوثائق التاريخية البحرين)، ص ٩٤.
(١٤) صورة الوثيقة الخاصة بوقف النخل في المبرز بالاحساء، وعن مجلة الوثيقة، العدد الأول، ص ٩٦.
(١٥) د. علي أبا حسين، مقال (دراسة في تاريخ العتوب) مجلة الوثيقة العدد الأول، ص. ص ٧٨ ـــ ١٠١.
(١٦) عبدالعزيز الرشيد، المصدر السابق، ص ٣٣.
(١٧) Bombay Seleckons, XXIV, 140.
(١٨) يمضي الأستاذ عبدالعزيز الرشيد في رواية أدبية محببة في سرد تفاصيل محاولة الظفير مهاجمة العتوب ذاكراً أن الظفير في طريقها لمهاجمة العتوب أمسكت برجل منهم ولم تفلته إلا بعد ان أخذت عليه العهد بالا يخبرهم إلا انه ما كاد يفلت حتى سار إلى قومه وشرع يخاطب أحد زعمائهم (دولة) بقوله:

عـمـر الغـليـون يـا دولة　　　ترس دنـيـاك مـعـلولة
انـي حـلفـت بـالله مـا أقـوله

ففهم الزعيم مما دفعهم من الظفير.
(١٩) سيف مرزوق الشملان، من تاريخ الكويت، ص ١١٣.
(٢٠) عبدالعزيز الرشيد، المصدر السابق، ص ٢٩.
(٢١) يوسف بن عيسى القناعي، صفحات من تاريخ الكويت ـــ الطبعة الثالثة ـــ الكويت ١٩٦٠، ص ٥٥.
(٢٢) نسخة هذا الكتاب (المخطوطة) موجودة عند الأستاذ عبدالعزيز حسين (وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء السابق).
(٢٣) Extracts from brief notes relative to the rise and progress of the Arab tribes of the (Persian) Gulf prepared in August 1819 by Mr. Francis Warden member of the Council at Bombay under Uttoabec Arabs (Behrein) I. S. BO. Vol. XXIV, pp. 362-372.
(٢٤) صورة وثيقة وقف نخل المبرز في الاحساء على مسجد آل خليفة، منشورة في مجلة الوثيقة (التاريخية البحرينية) العدد الأول، ص ٩٦.
(٢٥) صورة من مخطوطة لؤلؤة البحرين ليوسف بن أحمد والد الدرازي البحراني، نفس المصدر، ص ٩٧.
(٢٦) الخليفيات: فخذ من الأشاجعة من الحلف من الجلاس ـــ من المسلم ـــ من عنزه. والخليفيات ينتسبون إلى بني عبيدة في اليمن وهم مالكيون (مثل العتوب وليس كما تزعم الوثيقة بأنهم شافعيون وحنابلة) يسكنون البحرين وقطر ولا يزال بقاياهم في قطر والبحرين. وقد ترجم د. ساحلي كلمة (خليفيات) خطأ بـ (الخليعة) في ترجمته لدليل الخليج، ج ٣ ص ٢٩ (١٢٥١/٣).
(٢٧) فريحة: مدينة في قطر وترجمتها (دليمة) والأرجح (فريحة).
(٢٨) كونك: ميناء على الساحل الشرقي للخليج العربي. وكون: جزيرة عربية. و (كونك) تقع على بعد عشرة كيلومترات غرب رأس مسندم.
(٢٩) ترجمة الوثيقة المؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣ هجرية في ارشيف رئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول في دفتر المهمة رقم الدفتر ١١١ ورقم الصفحة ٧١٣. وهي كتاب من والي البصرة (علي باشا) إلى السلطان العثماني، وترجمها أحمد أغراقجة (جامعة اسطنبول) والسيدة زليخة. والترجمة في الأرشيف العثماني.

(٣٠) الوثيقة العثمانية في دفتر المهمة رقم ١١١، ص ٧١٣ ـــ كتاب من والي البصرة (علي باشا) إلى السلطان العثماني ـــ أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول بتاريخ ٢١ رجب ١١١٣هـ.

(٣١) أحمد بن يوسف الدرازي، (لؤلؤتي البحرين وقرتي العينين) مخطوط.

(٣٢) عبدالعزيز الرشيد، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٣٣) هذا عن اسم الكويت التي لم تعمر وتكون إمارة كما ذكرنا إلا بوصول العتوب، أما قبل ذلك فهي عبارة عن كوت أو قلعة، يلجأ إليها ابن عريعر في رحلاته للصيد، ويسكنها بعض صيادي الأسماك وبعض البدو الرحل. أما اسم القرين وهي الكويت الحالية فقد سبق ذكر الكويت بكثير، ومن ذلك ورودها عند الرحالين الأوروبيين بهذا الاسم وورودها في الوثائق العثمانية كذلك بهذا الاسم، وأقدم ذكر لها في تلك الوثائق جاء في وثيقة عثمانية مؤرخة في ٢٥ رجب ٩٨٥هـ ٩ اكتوبر ١٥٧٧م وقد أطلق على سفينة تعود لوزير من البحرين هذا الاسم تشبهاً باسم القرين واتجهت إلى البصرة. أما ذكر القرين كمدينة ذات أهمية تجارية فقد وردت في الخرائط الهولندية ١٦٦٠م وفي الوثائق الهولندية عام ١٧٥٠م. وغير ذلك.

(٣٤) رسالة جوابية من الدكتور علي أبا حسين رداً على رسالة لنا نستفسر فيها عن أمور تاريخية تتعلق بتاريخ الكويت. و د. أبا حسين هو مدير مركز الوثائق التاريخية في البحرين.

(٣٥) بالرغم مما يذكره بعض الجغرافيين من أن تلك الأفلاج كانت قد جفت وبالتالي فإن الظروف البيئية للمنطقة قد تغيرت عند هجرة العتوب من موطنهم الأصلي إلا أن وجود هذه الانهار والافلاج أصلاً في المنطقة يؤكد أن للعتوب أصولاً تاريخية في معرفة الطبيعة أو البيئة النهرية، وإن تلك المعرفة لا بد أن يكونوا قد توارثوها عن آبائهم وأجدادهم.

(٣٦) ميمونة الصباح، رسالة ماجستير عن علاقة الكويت بنجد ١٨٩٦ ـــ ١٩٣٩ (غير منشورة)، ص ١٢.

(٣٧) Extracts from brief notes felative to the rise and progress of the Arab tribes of the (Persian) Gulf, Prep.

(٣٨) الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة (مقالته السابقة) في مجلة «الوثيقة» التي تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد الثالث، ص ٢٠.

(٣٩) مجلة الوثيقة البحرينية، العدد الثالث، ص ١٤.

(٤٠) مقالة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة السابقة في مجلة الوثيقة البحرينية، نفس العدد.

(٤١) عثمان سند، سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، ص. ١٨ ـــ ١٩.

(٤٢) صورة نيفهاوزن مدير شركة الهند الشرقية الهولندية في (خرج) ومساعده (خان فان دورمولست) عام ١٧٥٦م ـــ ١١٧٠هـ إلى الحاكم العام لشركة الهند الشرقية (جيكوب) والصورة بالهولندية وترجمتها بالعربية (منشورة في مجلة الوثيقة البحرينية ـــ العدد الثالث ـــ ص ١٩).

(٤٣) خالد مسعود الزيد، الكويت في دليل الخليج العربي، ج ١ ص ٢٢.

(٤٤) خالد مسعود الزيد، الكويت في دليل الخليج (جمع المادة من كتاب دليل الخليج للوريمر)، ج ١، طبعة أولى (الكويت ١٩٨١)، ص ٢٣.

(٤٥) د. أبو حاكمة، تاريخ الكويت الحديث، الطبعة الأولى، ص ٢٨.

(٤٦) تقرير مدير شركة الهند الشرقية ومساعده (السابق) في جزيرة «خرج»، عن المنطقة الساحلية للخليج عام ١٧٥٦م.

(٤٧) جزيرة خرج من جزر فارس، واتخذتها الوكالة الهولندية مركزاً لنشاطها التجاري، وهي الآن المكان الذي يتجمع فيه النفط الايراني للتصدير إلى الخارج.

(٤٨) لم يذكر البارون من هو شيخ الكويت في ذلك الوقت.

(٤٩) Dr. Ives, Voyage from England to India, in the year 1753, pp. 207-216.

(٥٠) Niebhuhr, Voyages en Arabie, Description 288-295.

(٥١) الهولة: وهم من العرب الذين تحولوا إلى الساحل الشرقي من الخليج، وأصلهم حوله، ولكن الفرس يطلقون عليهم هولة شأنهم في نطق (الحاء) (هاء) فغلب عليهم الاسم.

(٥٢) الوثيقة العثمانية السابقة (رقم ١١١ في دفتر المهمة) برئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول.

(٥٣) مخطوطة يوسف الدرازي السابقة.

(٥٤) د. علي أبا حسين، مقال دراسة في تاريخ العتوب «الوثيقة» العدد الأول، ص. ص ٨٢ ـــ ٨٦.

(٥٥) د. أبو حاكمة، المصدر السابق، ص ٦٠.

(٥٦) د. بدرالدين الخصوصي، دراسة في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، الطبعة الثانية ـــ ذات السلاسل ـــ الكويت ١٩٨٣، ص ٢٨.

(٥٧) الوثيقة العثمانية رقم ١١١ في دفتر المهمة برئاسة الوزراء العثماني في اسطنبول.

(٥٨) د. علي أبا حسين، مقال تاريخ العتوب في مجلة الوثيقة العدد الأول، ص. ص ٧٨ ـــ ٨٤.

(٥٩) Report on the trade of Arabia etc., in Saldanha, Selections from State papers, pp. 403-409.

(٦٠) L. Lockart, Nadir Shah, A Critical Study, pp. 1-17.

(٦١) د. علي أبا حسين، المصدر السابق، ص ٨٤.
(٦٢) Sykes, A History of Persia, 271.
(٦٣) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص. ص ٤٨ ــ ٤٩.
(٦٤) الوثيقة (المجلة التاريخية البحرينية) العدد الأول السنة الأولى، رمضان ١٤٠٢هـ، يوليو ١٩٨٢.
(٦٥) د. حسن علي الابراهيم، الكويت: دراسة سياسية (الكويت ــ بيروت ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ص ٣٢ و ص ١٩٠.
(٦٦) Wilson, The Persian Gulf-161.
(٦٧) د. أبو حاكمة، نفس المصدر، ص. ص ٤٨ ــ ٤٩.
(٦٨) الوهابيون: جماعة إسلامية، أوجدها محمد بن عبدالوهاب (١١١٥ ــ ١٢٠١هـ/٧٠٣ ــ ١٧٨٧م) واطلق عليها خصومها اسم الوهابية (نسبة إلى مؤسسها) إلا ان الوهابيين يطلقون على أنفسهم اسم (الموحدين) وهم سنيون من اتباع مذهب حنبل كما شرحه ابن تيمية الذي هاجم عبادة الأولياء في كتاباته. ولم تكن فكرة محمد بن عبدالوهاب سوى حركة إصلاحية لانقاذ الاسلام مما دخل عليه من بدع وخرافات.
(٦٩) ابن غنام (حسين) روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام، ج ٢، ص. ص ١٨٥ ــ ١٩٢.
(٧٠) د. حسن الإبراهيم، نفس المصدر، ص ٣٧.
(٧١) رسالتي للدكتوراه بعنوان العلاقات الكويتية البريطانية في الفترة بين: ١٩٢٢ ــ ١٩٦١ (غير منشورة)، ص ٣١٢.
(٧٢) لم اقل هذا القول عن نظام الحكم في الكويت بحكم انتمائي لأسرة آل الصباح ــ على الرغم من كون هذه الصفة للحكم هي مصدر فخري واعتزازي ــ ولكني اعتمدت في استخلاص هذه الحقيقة من مصادر حية معاصرة وروايات ذكرها رواة غير مشكوك في صحة رواياتهم. فقد اشار إلى ذلك كل من الأستاذ المرحوم عبدالعزيز الرشيد في (تاريخ الكويت) والشيخ يوسف بن عيسى القناعي في (صفحات من تاريخ الكويت) كما رواها المرحوم أحمد البشر الرومي، والمرحوم خليفة شاهين الغانم، والأستاذ جاسم حمد الصقر وغيرهم.
(٧٣) الأستاذ جاسم حمد الصقر في المحاضرة التي القاها في رابطة الخريجين عن تطور الحركة الديمقراطية في الكويت بتاريخ ١٩٨٢/٢/٨.
(٧٤) الشيخ يوسف بن عيسى القناعي ــ صفحات من تاريخ الكويت ــ ص ١٠.
(٧٥) عن محاضرة الاستاذ جاسم الصقر في رابطة الخريجين بتاريخ ١٩٨٢/٢/٨.
(٧٦) الأستاذ جاسم الصقر هو عضو مجلس الامة للفترة الانتخابية الماضية وسابقتها. وهو رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الأمة. وقد تلقى تعليمه في بغداد، وتخرج من كلية الحقوق، وينتمي إلى أسرة عريقة جداً من الأسر الكويتية التي ساهمت بجهود كبيرة في تقدم الكويت وتطور الحركة الديمقراطية فيها، فقد كان لوالده الحاج حمد الصقر دور كبير في تشكيل مجلس الشورى ثم المجلس التشريعي عام ١٩٣٨ حيث تمت الانتخابات في ديوانيته، كما كان لشقيقه المرحوم عبدالله الصقر دور في حركة المجلس عام ١٩٣٨ وما اعقبها من حوادث، كما ان شقيقه الآخر الأستاذ عبدالعزيز الصقر له دور بارز في المجالات الوطنية والاقتصادية في الكويت فقد كان وزيراً للصحة ثم رئيساً لمجلس الأمة ثم رئيساً لغرفة تجارة وصناعة الكويت.
(٧٧) جابر العيش: هو الاسم الذي اشتهر به حاكم الكويت الثالث جابر بن عبدالله الصباح، وذلك لكرمه وكثرة ما يتصدق به على الفقراء. فكان العيش (الرز) المطبوخ يوزع يومياً من قصره على الفقراء. وقد سار خلفاؤه من بعده على سنته بتوزيع الرز المطبوخ.

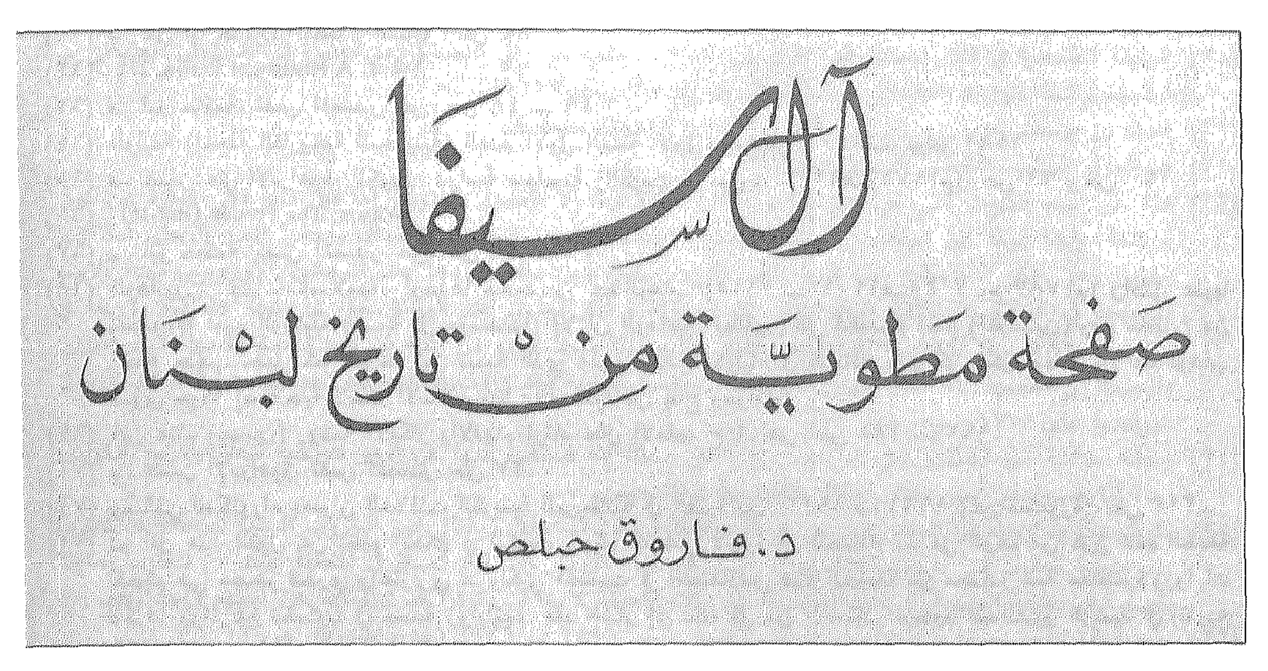


ابن طولون، أحمد (٨٣٥ ــ ٨٨٤)

● مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسوريا. تركي الأصل. ولد في سمراء، وجاء إلى مصر (٨٦٨م) والياً من قبل العباسيين فاستقل بحكم البلاد، ورحل إلى سوريا كارهاً. شيد مدينة القطائع (٨٧٠)، وجعلها قاعدة حكمه وبنى بوسطها جامعه الكبير سنة (٨٧٦).

● «أيها الناس إني والله لا أبعث عمالي إليكم، ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلـيَّ. فوالذي نفسي بيده لأمكّننه من القصاص».

(الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه)



آل سيفا من الأسر اللبنانية العريقة التي ساهمت في وضع تاريخ لبنان الحديث وسواحل بلاد الشام بصورة عامَّة. وهي واحدة من الأسر المغمورة، كبني فريج وحرفوش والصغير، وربّما غيرها الكثير من العائلات التي لم تلق اهتمام المؤرخين للبنان الحديث، رغم أنَّها لعبت أدواراً بارزة في تاريخ المنطقة. فقد تنازع بنو سيفا مع آل عساف والمعنيين بعدهم، على حكم الساحل الممتد من طرابلس إلى جونية، ونقلوا صراعاتهم إلى أماكن أخرى في البقاع والجبل وحصن الأكراد... ثم تنازع آل المرعبي خلفاء بني سيفا في حكم عكار، مع الشهابيين خلفاء المعنيين في حكم جبل الدروز[١]. ومع ذلك نجد كتب تاريخ لبنان الحديث، تتوسَّع في تاريخ العائلتين المعنية والشهابية، ولا تأتي على ذكر سواهما من العائلات، إلّا بإشارات مقتضبة حتَّمها إتمام السرد التاريخي للأحداث العسكرية آنذاك. وسنحاول في بحثنا هذا إعطاء فكرة مقتضبة عن آل سيفا وامتداد إمارتهم في المكان والزمان، ثم الحديث عن أصلهم وتسميتهم.

إمارة آل سيفا وسياستهم

في أوائل القرن الرابع عشر، وبعد محاولات صليبية متكرِّرة لاستعادة أجزاء من الساحل[٢]، لجأ المماليك إلى وضع حاميات على طول الساحل والتلال المشرفة على الشواطىء، لتوطيد حكمهم عليها من جهة[٣]، ومراقبة تحركات الصليبيين من جهة ثانية. وكان من بين هذه الحاميات، آل سيفا الذين نزلوا جبال عكار، بعد أن كُلِّفوا بمراقبة وحماية خليج وسهل عكار[٤]، وقد نزل هؤلاء في منطقة الجومة واتخذوا من قرية عكار العتيقة مركزاً لهم.

ومع بداية الحكم العثماني في بلاد الشام، دخل آل سيفا اللعبة الإقطاعية، وبدأوا يعملون على توسيع إقطاعهم؛ فاصطدموا بآل شعيب في عرقا، ثم تحالفوا مع بني عساف حكام جبيل وكسروان، والامير قرقماز المعني حاكم الشوف، وتمكَّنوا مجتمعين من طرد بني شعيب من عكار، واقتسام مقاطعتهم من بعدهم. فأخذ بنو سيفا سهل عكار، وآلت طرابلس إلى بني عساف[٥]. إلّا أنَّ تبدُّل موازين القوى الإقطاعية في المنطقة


□ مرتفع القموعة ـ عكار

على هذا النحو، استتبع تغيير التحالفات بصورة جذرية. فانقلب حلفاء الامس إلى أعداء اليوم، بعد أن امتدَّت مطامع يوسف باشا سيفا إلى طرابلس، ومطامع منصور عساف إلى عكار. وجاءت سياسة الدولة العثمانية إزاء تعاظم القوى الإقطاعية في بلاد الشام من جهة، وضعفها وإنهماكها في الحروب في فارس والولايات الأوروبية من جهة ثانية، لتؤجِّج نار العداء بين الإقطاعيين أملاً في إضعافهم والحدِّ من قوتهم الذاتية. فعزلت ابن عساف عن طرابلس وعهدت بها إلى خصمه يوسف باشا سيفا. ثم أعادتها إليه بعد أن عزلت عنها يوسف باشا سيفا، الأمر الذي عجَّل في وقوع الصدام بينهما. وقد انتهى هذا الصدام بانقراض آل عساف وانتقال إمارتهم إلى آل سيفا[٦] الذين باتوا أمراء الساحل من عكار شمالاً إلى نهر الكلب جنوبا.

بيد أن هذه الانتصارات الأولى التي أحرزها آل سيفا، كانت بمثابة طعم استدرجهم نحو الجنوب، وأدخلهم إلى حلبة الصراع مع الإقطاعيين اللبنانيين، بعد أن أصبحوا يسيطرون على أجزاء واسعة من الساحل اللبناني. وبذلك لم يعد باستطاعة أمراء آل سيف التخلّي عن مكتسباتهم الجديدة، والتراجع أمام قوة فتية ظهرت في الشوف وتمثلت بالأمير فخر الدين المعني الثاني، فخاضوا ضدها سلسلة من المعارك في جونية وطرابلس وغيرهما من الأماكن. وكان بنتيجة ذلك أن اتّسع نطاق التحالفات ليشمل دمشق وحلب. فتحالف الأمير فخر الدين مع علي باشا جانبولاد في حلب، وتحالف يوسف باشا سيفا مع الباب العالي الذي أعطاه ولاية دمشق[٧]. وقد تخلَّل الصراع بين الطرفين فترات من الهدوء، رافقتها محاولات سلمية قام بها كل من الطرفين لمدِّ نفوذه إلى إقطاع الطرف الآخر، وتمثلت بزواج الأمير علي بن يوسف باشا سيفا من ابنة المعني الكبير من جهة[٨]، وبالمصاهرة التي تمت من جهة ثانية بين علي باشا جانبولاد ويوسف باشا سيفا[٩]. وبعد وفاة يوسف باشا سيفا تمكن فخرالدين من مدِّ نفوذه إلى عكار[١٠]، ممّا أدى إلى تداخل مصالح أمراء آل سيفا مع مصالح أمراء جبل الدروز، وزج آل سيفا في النزاعات الحزبية في تلك المنطقة. فأيَّد الأمير علي بن محمد سيفا، آل علم الدين، في حين انحاز الأمير عساف بن يوسف باشا سيفا إلى حزب المعنيين. وقد نتج عن ذلك انقسام الصف الداخلي ضمن أسرة آل سيفا، واقتتالهم حتى ضعفت قوَّتهم وزالت إمارتهم سنة ١٦٣٧[١١]؛ فتهيَّأ السبيل لآل حمادة مشايخ بلاد جبيل وكسروان إلى مدِّ نفوذهم إلى عكار وبسط سيطرتهم عليها[١٢]، قبل أن يؤول أمرها إلى



□ هضبات عكار العالية.

بكوات آل المرعبي في القرنين الثاني عشر والتاسع عشر[١٣].

أصل آل سيفا

اختلف المؤرخون في تحديد نسب آل سيفا وأصلهم. فاعتبرهم البطريرك اسطفان الدويهي، أمراء تركمان، وذكرهم في معرض سرده أحداث عام ١٥٢٣م بقوله: «وكذلك في بلاد عكار كانت خصومة بين الشعيبية أهالي عرقا، وبين بيت سيفا أمراء تركمان...»[١٤]. في حين اعتبرهم طنوس الشدياق من الأكراد، وخصّصهم بفصل من كتابه أخبار الأعيان، وجعل عنوانه «في نسبة الأمراء بني سيفا الأكراد»، وسلسل نسبهم على الشكل التالي: «المقدم جمال الدين الملقب بسيفا وَلَدَ عبدالله. وعبدالله وَلَدَ أولاداً، فَوَلَدَ أحد أولادهم محمداً. ومحمد وَلَدَ ولدين يوسف وحسيناً. فيوسف وَلَدَ سبعة أولادهم: حسين وحسن وعمر وقاسم ومحمود وبلك وعساف. وحسين ولد سليمان. وسليمان ولد علياً. هؤلاء الأمراء ينتسبون إلى المقدم جمال الدين المذكور ابن احد مماليك الجراكسة وعمّالهم في طرابلس وعكار وحصن الأكراد»[١٥].

ثم نقل عنهما المؤرخون، فقسم أخذ برأي الدويهي واعتبرهم تركمانا، وآخر أخذ برأي الشدياق واعتبرهم أكراداً. أمّا الأب لمانس اليسوعي، فقد اكتفى بالقول أنهم إمّا أكراد أو تركمان[١٦]. وكذلك رأى جرجي يني أنّ آل سيفا ربما كانوا أكراداً أو تركماناً، ثم رجّح أنهم تركمان لأنهم يلتفّون حول زعيم عشيرتهم[١٧]، ثم نفى أن يكونوا من المماليك الجراكسة لأن السلطان سليم الأول العثماني أقرّهم على إقطاعهم في عكار وحصن الأكراد، في حين أنّه استأصل شأفة المماليك من سوريا[١٨]. إلّا أنّ هذه الحجج غير كافية لترجيح نسبة آل سيفا إلى التركمان ونفي أصلهم الجركسي. ذلك أنّ السلطان سليم ابقى على المماليك الذين انحازوا إليه في موقعة مرج دابق، وأقرّهم على مناصبهم أمثال جان برد الغزالي[١٩]. وليس بمستبعد أن يكون السلطان سليم على علم بالنفرة التي كانت بين المماليك في سوريا



□ حلبا وبساتينها.

والسلطان قانصوه الغوري، بسبب تقديمه مماليكه الخاصين عليهم[٢٠]، لذلك لم يجد مانعاً من استخدامهم في إدارة سوريا خاصة وأنّهم انحازوا إليه في مرج دابق. أمّا مقولة عدم تعصب المماليك لعشائرهم، فهي تنطبق على أجيال المماليك الذين تمَّ شراؤهم حديثاً، ذلك أنّهم مجهولو النسب ولا يعرفون أقاربهم: أمّا أبناؤهم وأحفادهم فليسوا بالضرورة كذلك، ولم يكن يوجد ما يحول دون تكاتفهم، خاصّة وأنهم عاشوا في بلاد الشام حيث كانت العائلة من أقدس مقدّسات الفرد. وبالتالي فلا يعتبر تكاتف بني سيفا والتفافهم حول أميرهم دليلاً على نفي تحدُّرهم من أحد المماليك.

يبدو أن اعتبار بني سيفا أكراداً أو تركماناً، يعود سببه إلى تزامن مجيء جدهم الأعلى إلى ساحل طرابلس، في بداية القرن الرابع عشر[٢١]. مع استقدام المماليك عائلات كردية وتركمانية وإسكانها في تلك المنطقة[٢٢]. إلّا أنّ التدقيق في لقب هذه العائلة المعروف بسيفا من جهة، وتاريخ مجيئها إلى عكار من جهة ثانية، يؤدي بنا إلى نتائج مختلفة، ويظهر أنها ليست كردية ولا تركمانية.

فمن خلال الوثائق والمخطوطات العائدة لهم، نجد أن كلمة سيفا هي تحريف لقب السيفي الذي توارثه أمراء هذه العائلة بصورة رسمية، ورضوا به وأطلقوه على أنفسهم حتى عهد يوسف باشا سيفا عام ١٠٢١هـ. ـــ ١٦١٢م، كما نلاحظ من النقش الكتابي المدوَّن على جدران جامع التوبة في طرابلس، وهذا بعض ما ورد فيه: «الحمد لله... جدّد هذا الجامع الشريف لوجه الله الكريم بعد هدم جداره ومنبره ومحرابه وسبيل مائه من الفيضة الكبرى... الواثق بالملك الباري أحمد بن محمد الشرابداري الأنصاري كتخداي حضرة حسين باشا بن يوسف باشا السيفي أمير الأمراء بطرابلس... سنة إحدى وعشرين وألف...»[٢٣]. كما وردت تسميتهم «بالسيفي» أو «السيفية» في سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس[٢٤]. وكلمة سيفي أو السيفية، هي لقب أُطلق على مماليك الأمراء، الذين نُقلت خدمتهم إلى السلطان الحاكم بعد أن

مات امراؤهم أو عزلوا عن مناصبهم[٢٥]. ومن جهة ثانية يتبيّن لنا من تسلسل نسب آل سيفا، كما أورده طنوس الشدياق، أنّهم يتحدرون من المقدم جمال الدين، أحد مماليك الجراكسة الملقب بسيفا. وبناء على ذلك يمكن القول أنّ آل سيفا هم من الجركس الذين يتحدّرون من المقدم جمال الدين أحد مماليك الجراكسة الذي توفي اميره، فعرف بالسيفي، وانتقلت خدمته إلى السلطان الذي أرسله بدوره إلى طرابلس حيث تولّى المقدميّة على عشرة من الجند في عكار التي كانت ملحقة بنيابة طرابلس في ذلك الزمان. ومما يؤيّد ذلك أن مقدمي الجند في نيابة طرابلس، إبّان الحكم المملوكي، كانوا بأغلبيتهم الساحقة من المماليك[٢٦].

وعلى عكس ذلك، ولو سلّمنا جدلاً أن هذه العائلة كردية أو تركمانية، فكيف باستطاعتنا تفسير نعتها بالسيفية أو السيفي أو سيفا، في عصر كانت فيه هذه التسمية ذات دلالة معينة تطلق على المملوك الذي توفي سيده، فانتقل إلى خدمة السلطان. ثم إننا نلاحظ من جهة ثانية أن الأكراد الذين عهد إليهم المماليك بحماية سواحل بلاد الشام، هم في الأساس من سكان سوريا الذين أتى بهم الأيوبيون: وكذلك التركمان من حلب، هبطوا إليها من وادي أرمينيا وآسيا الصغرى[٢٧]، ممّا يدلّ على أنّ الأكراد والتركمان لم يأتوا من مصر ولم يسبق لهم أن عملوا في خدمة أمراء المماليك هناك، فكيف لُقّبت إحدى عشائرهم بالسيفية أو سيفا؟! ●

الهوامش

(١) كانت هذه التسمية تطلق على الشوف والمتن حتى أواخر القرن الثامن عشر. وفي عام ١٨٦١ ألحقت بها مناطق الكورة والبترون وجبة بشري وبلاد جبيل وأصبحت تعرف بمتصرفية جبل لبنان (كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت ١٩٧٨، ص ١٢ ـــ ١٣).

(٢) السيد عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٣٤٤. وعمر عبدالسلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، الدار العربية، بيروت ١٩٨١، ج ٢، ص ١٦٠ ـــ ١٩٢.

(٣) كمال الصليبي: مرجع سابق، ص ١٨.

(٤) فؤاد قازان: لبنان في محيطه العربي، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٢، ج ١، ص ٢٤٠ و: H. Lammens: La Syrie, Beyrouth 1921, V. 2. p. 68.

(٥) طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، تحقيق فؤاد افرام البستاني، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠، ج ١، ص ٣٠٢.

(٦) المطران يوسف الدبس. تاريخ سوريا، المطبعة العمومية بيروت ١٩٠٣، م ٧، ج ٤، ص ٣٤. وطنوس الشدياق: مصدر سابق، ج ١ ص ٣٠٢.

(٧) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، دمشق ١٩٧٤، ص ١٥٧ ـــ ١٥٨.

(٨) طنوس الشدياق: مصدر سابق، ج ١ ص ٣٠٦.

(٩) عبدالكريم رافق: مرجع سابق، ص ١١٦١.

(١٠) يوسف الدبس: مرجع سابق، م ٧، ج ٤ ص ١٨٣ ـــ ١٨٤.

(١١) يوسف الدبس: نفس المرجع، م ٧، ج ٤، ص ١٨٥ ـــ ١٩٢.

(١٢) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس: سجل ١، ص ٦١.

(١٣) أطروحتي: تاريخ عكار الاداري والاجتماعي والاقتصادي، أطروحة دكتوراه، الجامعة اليسوعية، بيروت ١٩٨٤، ص ١٠.

(١٤) البطريرك اسطفان الدويهي تاريخ الأزمنة، تحقيق بطرس فهد، دار لحد خاطر ١٩٨٣، ص ٤٠٢.

(١٥) طنوس الشدياق: مصدر سابق، ج ١ ص ١٨٩.

(١٦) H. Lammens: La Syrie, V. 2. p. 68.

(١٧) جرجي يني: آل سيفا، مجلة المباحث، عدد ٢٠، السنة الأولى، ١٥ تشرين الأول ١٩٠٩، ص ٩١٧.

(١٨) جرجي يني: نفس المرجع، ص ٩١٦.

(١٩) عبدالكريم رافق: نفس المرجع، ص ٦٥.

(٢٠) عبدالكريم رافق: نفس المرجع، ص ٦١.

(٢١) جرجي يني: نفس المرجع، ص ٩١٨. وفؤاد قازان: نفس المرجع، ج ١ ص ٢٤٠.

(٢٢) كمال الصليبي: نفس المرجع، ص ١٨. وفؤاد قازان: نفس المرجع، ج ١ ص ٢٤٠.

(٢٣) نقش كتابي مثبت على الجدار الشرقي لصحن جامع التوبة في طرابلس.

(٢٤) سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس: سجل ١٠، ص ٨٣، وسجل ١١، ص ٢٢٩.

(٢٥) عبدالكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، دمشق ١٩٦٨، ص ١٦.

(٢٦) ينظر لائحة بأسماء آراء ومقدمي الجيش في طرابلس في كتاب: عمر عبدالسلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ج ٢، ص ٧٩ ـــ ٨٤.

(٢٧) H. Lammens: La Syrie, V. 2, p. 7. وجرجي يني: مرجع سابق، ص ٩١٧.

قطار الشرق

أورينت إكسبرس

من باريس الى استانبول في ٦٧ ساعة

قسم التوثيق والأبحاث



يوم ٤ أكتوبر عام ١٨٨٣ يوم مشهور في تاريخ السكك الحديدية. ففي ذلك اليوم غادر أول قطار «أورينت إكسبرس» محطة «الشرق» في باريس قاصداً استنبول ليصبح بذلك أشهر قطار في العالم. ولو تعمقنا في تاريخ هذا القطار الشهير لوجدنا أنه يبدأ قبل هذا اليوم بحوالي عشرين عاماً أي عندما غادر البلجيكي الشاب جورج لامبرت ناجلماكرز موطنه بلجيكا وسنه لم يتعد الثانية والعشرون قاصداً نيويورك. كان ناجلماكرز ينتمي إلى عائلة من أشهر عائلات بلجيكا وأكثرها ثراء، وقد غادر بلاده بناء على رغبة والده لينسى «حبه الطائش» لقريبة له. وينسى ناجلماكرز الشاب حبيبته فعلاً، ليس فقط بسبب الانطباعات الجديدة المستحوذة على فؤاده، وإنما لكثرة المهام الملقاة على عاتقه، ويحتل نظام السكك الحديدية الأمريكية مكاناً رئيسياً في تفكيره وبالذات اختراع بولكان الجديد وهو «عربات للنوم» تلحق بالقطارات العادية. وتحت تأثير هذا الاختراع تبلورت لدى ناجلماكرز فكرة تقسيم عربات القطار إلى مقصورات منفصلة يعرضها على المسؤولين حال عودته إلى أوروبا.

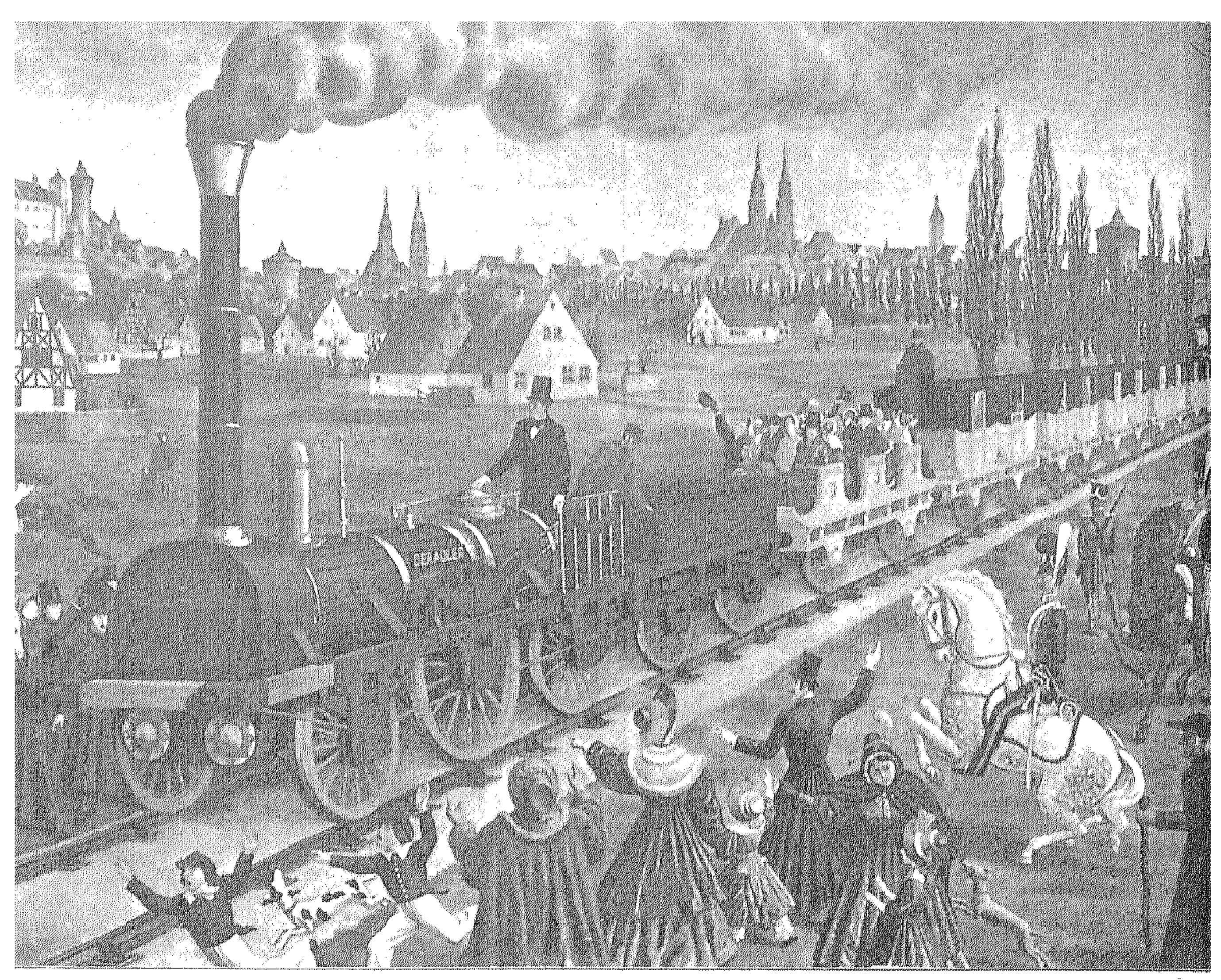
وإذا ما كان اختراع بولمان الرئيسي يسعى إلى راحة المسافرين، فإن ناجلماكرز يذهب في تفكيره إلى أبعد من ذلك مستهدفاً باختراعه في نهاية الأمر أغراضاً سياسية. فالقطار في تصوره يصلح كأداة لتوحيد أوروبا الممزقة سياسياً واقتصادياً. ذلك أنه مهما كانت رحلة القطار مريحة في بدايتها، فإننا نجد المسافر يعاني من متاعب شتى بمجرد وصوله إلى الحدود: فلكل بلد خطوطه وقضاياه الخاصة به والتي تختلف في نوعيتها عن البلد الآخر، بحيث يضطر المسافر إلى تغيير القطار عدة مرات ويمضي ساعات بطولها في انتظار القطار الجديد.

وكان هدف ناجلماكرز هو تصميم عربات من طراز موحد يمكن استخدامها في جميع البلدان الأوروبية التي تتواجد بها شبكة للسكك الحديدية، والجديد في هذه العربات هو إمكانية تركيبها على أنماط مختلفة من القطارات، ويستدعي ذلك أولاً وقبل كل شيء أن توافق الحكومات المختلفة على أن تعبر قطارات أجنبية حدودها. والصعوبة الأخرى التي واجهت ناجلماكرز هي عدم وجود إدارة مركزية للسكك الحديدية في البلدان المختلفة، إذ كانت تتولى تسيير القطارات شركات متعددة، وكان من الضروري أن يتفاوض مع كل منها على حدة في جميع البلدان التي سوف يقطعها القطار الجديد. وأخيراً وبعد مفاوضات طويلة تم توقيع الاتفاقية النهائية في ١٧ مايو ١٨٨٣ في مدينة ميونيخ. وبعدها بستة أشهر فقط انطلق أول قطار من طراز «أورينت إكسبرس» من باريس إلى استنبول. ولم يكن هذا القطار يصل إلى استنبول مباشرة وإنما كان يتحتم على المسافرين تغيير القطار مرتين ثم استكمال الرحلة بالباخرة. بعدها بست سنوات فقط غادر أول قطار مباشر باريس ــ قاطعاً مسافة ٣١٨٦ كم دون أن يضطر المسافرون إلى مغادرته. وهكذا انخفضت مدة السفر من ١١٤ ساعة إلى ٦٧ ساعة و٤٦ دقيقة. ومنذ ذلك اليوم والأورينت إكسبرس هو مثال للقطار الفاخر المزود بكل وسائل الراحة. وعلى غراره أنشئت قطارات أخرى تربط بين عواصم أوروبا وبين مدنها الكبرى.

كانت «للأورينت إكسبرس» مكانة هامة في الأدب، وقد داعب مخيلة العديد من الأدباء والكتاب ابتداءاً من تيوفيل جوتيه وبيرلوتي وحتى أجاتا كريستي في روايتها المشهورة «حادثة قتل في الأورينت إكسبرس».

ونقدم هنا إحدى الشواهد الأدبية التي تصف لنا أول رحلة «للأورينت إكسبرس» وهي بقلم مراسل جريدة الفيجارو العريقة. وقد نشرت بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٨٨٣:

«تعودنا أن نمضي فترات الإجازة القصيرة في غابات فونتنبلو أو في أحد موانيء قناة المانش القريبة. أما الآن فنستطيع السفر إلى استنبول.. في الرابع من أكتوبر غادرت محطة «الشرق» في تمام السابعة والنصف مساء وعدت إليها يوم ١٦ أكتوبر في السادسة مساء أيضاً، بعد أن أمضيت يوماً بأكمله في رومانيا وأربعة أيام ونصف في استنبول. واسم هذا القطار هو «أورينت إكسبرس» وقد كان مكوناً من عربتين لنقل البضائع، إحداهما للحقائب فقط. وكانت الشركة المسؤولة قد نقلت الحقائب من



□ أول رحلة لقطار ألماني على الخط الحديدي الرابط بين نورنبرغ وفورت ــ ٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٥

المنازل إلى القطار، ووجدناها في انتظارنا في الفندق في استنبول. أما عربة النقل الثانية فكانت مجهزة بصواوين للمخزون من المأكولات والمشروبات والثلاجات وغرف العاملين. يتبع ذلك عربتان للنوم تسعان ٤٠ مسافراً ومجهزتان بأسرّة فاخرة ودورات مياه مريحة، ثم نجد المطعم بأثاثه الفاخر وجدرانه المغطاة بالجلد والجوبلان والقطيفة، وتأتي بعد ذلك عربة هي بين مكتبة وغلافة للتدخين وملحق بها مقصورة تجميل للسيدات ومكتب، ثم المطبخ يرأسه طباخ من الدرجة الأولى...».

تأتي نهاية هذا القصر المتحرك في عام ١٩٧٧، ففي ١٩ مايو من ذلك العام تحرك آخر قطار مباشر من باريس إلى استنبول وكان على المسافرين أن يغيروا القطار (من جديد!) إما في البندقية أو في بلغراد. الخط المباشر الآن هو من باريس إلى بودابست ثم بوخارست، وهو نفس الخط الذي سلكه «الأورينت إكسبرس» في رحلته الأولى عام ١٨٨٣.

كلود سيمون
الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٥
(من روايته القصر)

... وفي تلك اللحظة خفّف القطار من سرعته، وأطلقت القاطرة ذلك الصفير المضحك والباكي والمحزن، صفير قطارات «الفار ــ وست» (Far-West) وتصادمت عربات التنوب (وفكر الطالب أنها ربما تكون هي نفسها التي أعدّت لصحاري الجبال الصخرية وربما أيضاً من طرف بكيّ أو فانباخ). ثم توقف القطار. صوت المطر على سقف العربة الرهيف، والنوافذ التي

يمكن إدراكها بالحواس من جديد. وأدار الطالب رأسه حتى يتمكن من أن يرى اسم المحطة، والتقى في البداية وجهه ووراءه وجه عازف البيانو الماهر وهو في بزّة ميكانيكي ومنكب دائماً على كنّشه، ثم (أنفه الآن على بلور النافذة) نفس العلم، نفس الخرقة المبللة، الحدادية التي تتدلى في جميع المحطات (معلقة على مظلة الباب أو على عمود كما هو الحال الآن) والذي يجب أن نعرف أن نصفه أحمر، ونصفه الآخر أسود، ذلك أن الأحمر بسبب البلل أصبح أكثر سواداً من الأسود، ثم رأى اسم المحطة (Banons de a أو Ai gues calentes) أو (A guas galdas) guas Buenas). وهو يستطيع أن يتخيّل عندئذ السيدات العجائز في لباسهن الداكن وهن يتجولن ببطء أو هن جالسات في ممرات حديثة تحت ظلال الدلب الخفيفة وسط رائحة المياه الكبريتية الشبيهة برائحة البيض المتعفن، وربما أيضاً مقهى صغيراً تعزف فيه الموسيقى المحلية، وعربات اللاندو، وعربات الخيول وهي تنتظر هي أيضاً تحت أشجار الدلب المرتعشة وضجيج الشلال الدائم، ورائحة الأوساخ الكريهة والدائمة، وعربات اللاندو عليها خيمة من قماش الخمل، وبنايات الحمامات القديمة ذات الحنفيات المصنوعة من النحاس والتي لها شكل رقبة التم حيث تطفو أجساد السيدات العجائز اليابسة فوق المياه المتعفنة تحت مآزر محتشمة [...] ومن جديد أطلقت القاطرة صفيرها الباكي والحزين في الليل ــ كما لو أنها تحاول أن تشتّت (أن تفتح لنفسها طريقاً في) قطيعاً مبهماً من الجواميس الوحشية، ثم تحرك القطار. ورفع الطالب رأسه للحظة ورأى من خلال الانعكاس المبهم للوجهين على النافذة المغشاة بالمطر الأضواء القليلة، والخرقة الحمراء والسوداء، والأشباح الغاضبة للسيدات العجائز المصابات بالروماتزم وهن يتكئن على عكاكيز من الابنوس، ثم وهن منتصبات على الرصيف غير عابئات بالمطر الذي لا يتوقف، وشرطيي «سوغيريداد» صاحب الثياب الرثة، وصاحب المشية القريبة إلى حد ما من مشية العسكريين (إلى حد أنه لم يكن من الممكن أن نعرف إذا ما كانا هناك ليراقبا شيئاً ما أم ليراقب كل واحد منها الآخر) وهما يتطلعان إلى القطار وهو يمرّ أمامهما وشيئاً فشيئاً يضاعف من سرعته وإلى العربات الأخيرة الفارغة التي كانت أضواءها تنزلق الواحدة بعد الأخرى فوق وجوههم.

ايطالو كالفينو

(من روايته:
إذا ما مسافر في ليلة من ليالي الشتاء)

تبدأ الرواية في محطة من محطات سكك الحديد.

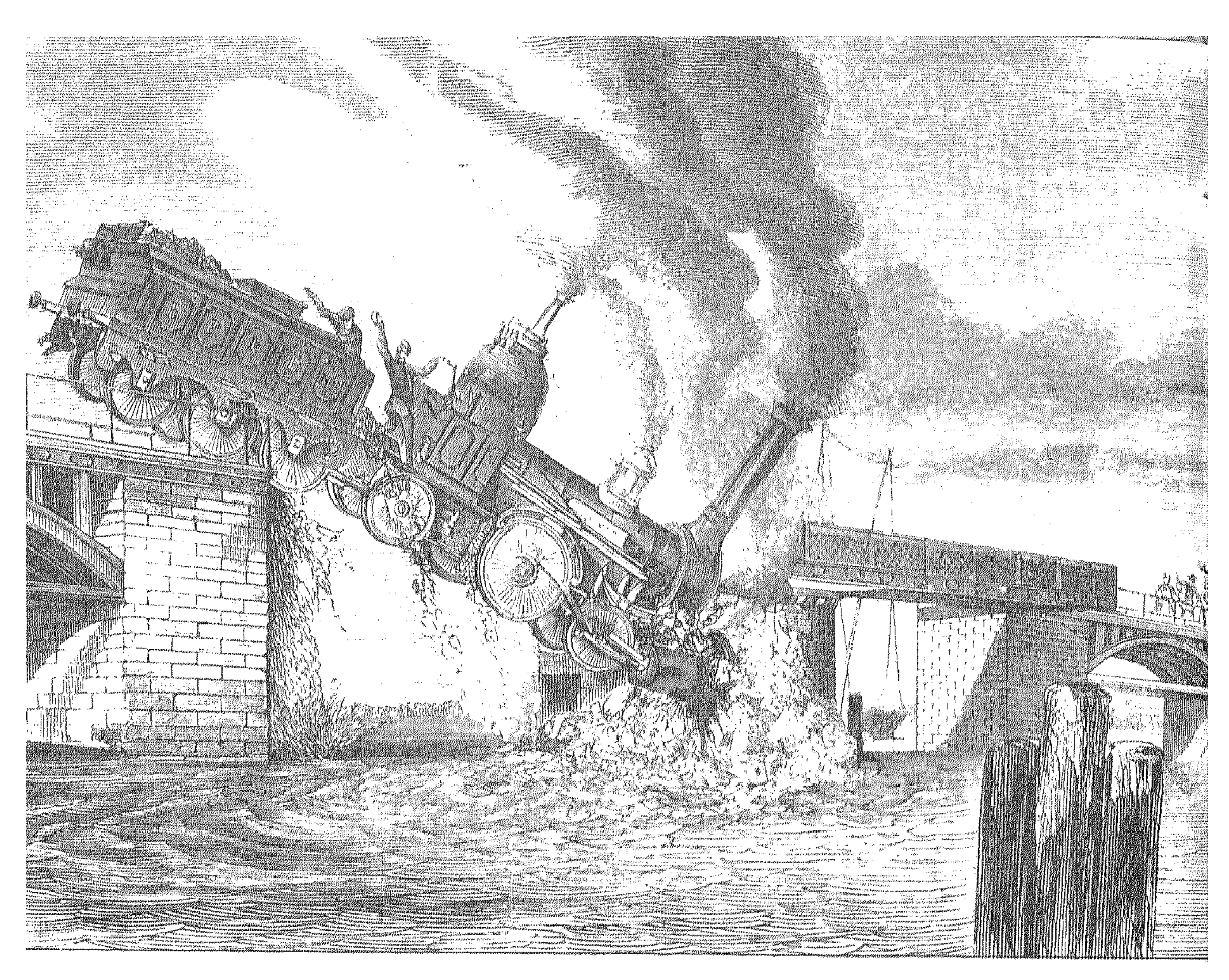
قاطرة تنفخ، صفير مكبس يغطي بداية الفصل.

سحاب من دخان يخفي إلى حدّ ما السطور الأولى من الفقرة، وداخل رائحة المحطة تمر نفحة من نفحات رائحة المشرب.

أحدهم ينظر من خلال بلور النافذة المغشى بالبخار، ثم يفتح باب الحانة البلوري. كل شيء غائم في الداخل كما لو أنه يشاهد من خلال عينين حسيرتين أو أن خبثات الفحم الحجري في حالة هيجان. إن صفحات الكتاب مغشاة بالبخار كما نوافذ القطار العتيق. وعلى الجمل يحط سحاب من دخان. مساء ممطر، سحاب من بخار يغشيه. رنين صفارة. يبتعد على امتداد الخطوط



□ فتاتان في عربة قطار.
أوجست ليوبولد ايج.



□ حادث قطار.

اللامعة تحت المطر، والممتدة على مد البصر. شيء ما شبيه بصفير قاطرة ودفق من بخار يخرجان من المصفاة التي يضعها العامل العجوز تحت الضغط كما لو أنه يطلق إشارة: وهذا على الأقل ما ينتج عن تتابع جمل الفقرة الثانية، حيث يضم اللاعبون الجالسون حول الطاولة أوراق اللعب إلى بطونهم ويلتفتون إلى القادم الجديد مديرين في الآن نفسه أعناقهم وأكتافهم وكراسيهم، في حين أن حرفاء آخرين واقفين أمام المبسط يرفعون فناجينهم الصغيرة وينفخون على سطح قهوتهم بينما عيونهم وشفافهم نصف مفتوحة. أو أنهم يشربون جعتهم بحذر شديد مخافة أن تندلق منها قطرة واحدة. والقط يستريح مقوّس الظهر، والصرافة تقفل الآلة الحاسبة التي تطلق رنّة. وكل هذه الإشارات تؤكد لكم أن المحطة المعينة محطة صغيرة من محطات الأقاليم تسهل فيها ملاحظة كل غريب وكل وجه غير مألوف.

المحطات تتشابه كلها. وليس مهماً أن لم تتمكن الفوانيس من إضاءة ما بعد تلك الدائرة الضوئية الغامضة: إنه مناخ تعرفه أنت عن ظهر قلب، برائحته رائحة القطار التي تتبقى إلى ما بعد انطلاق القطارات بوقت طويل، الرائحة الخاصة للمحطات بعد رحيل آخر قطار، أضواء المحطة والجمل التي أنت تقرأها تبدو كما أن مهمتها هي إذابة الأشياء وليس كشفها أو إظهارها: كل شيء يبرز من خلال غلالة من العتمة والضباب. هذه المحطة نزلت فيها هذا المساء لأول مرة. وأنا أشعر أما أني قضيت فيها حياة بأكملها. خارجاً من البار وداخلاً فيه متنقلاً بين رائحة المكنسة إلى رائحة نشارة بيوت النظافة المبللة وكل هذا ممزوج برائحة واحدة

هي رائحة الانتظار، ورائحة كابينات التلفون حين لا يبقى سوى استرجاع الفيشات لأن الرقم المطلوب لا يجيب. وهذا الرجل الذي يروح ويجيء بين البار وكابينة التلفون هو أنا. أو بالأحرى هو يسمى «أنا»، وأنت لا تعرف شيئاً آخر عنه تماماً مثلما أن هذه المحطة تسمى «محطة» فقط، وخارجها ليس هناك سوى إشارة دونما جواب لتلفون يرن في غرفة معتمة في مدينة بعيدة. أقطع المخابرة وأنتظر قرقعة الفيشة وهي تنزل خلال العنق المعدني، ثم أدفع الباب البلوري من جديد وأتجه نحو الكؤوس وهي تجف وسط سحاب من البخار.

صلاح عبدالصبور

(فصل من مسرحية «مسافر الليل»)

الراكب:

أنت الاسكندر...

عامل التذاكر:

ليس اسمي الاسكندر

اسمي زهوان.

الراكب:

بم تأمر يا مولاي الـ.. زهوان!

عامل التذاكر:

مذعور.. وغبي!

أولاً تدرك من ثوبي ما أطلب.

أطلب تذكرتك

هذا عملي.. عمل مرهق.

ينزعني من فرشي في بطن الليل.

يحرمني من نومي.. أشهى خبز في مائدة الله.

أحياناً لا تحوي القاطرة سوى حفنة ركاب.

ينتثرون كأجولة ملقاة في مخزن قطن مهجور.

بل أحياناً لا تحوي إلا رجلاً أو رجلين.

تبدو مظلمة باردة خافتة الأنفاس...

كبطن الحوت الميت.

أعرف ذلك حين تُقَعْقِعُ فوق رصيف البلدة.

أنوار مطفأة، وزجاج لا تلمع خلف غشاوته رأس.

لكني أتفقد كل العربات.

هذا واجب!.

أتحسس جلد مقاعدها وأحدق في الظلمة.

أحياناً أقلب ظهر المقعد.

بل إني أحياناً أقعى كي أنظر ما تحت المقعد.

بل إني أحياناً أستخرج مطواتي، وأشق المقعد.

ماذا؟ لا أغفر أن يركب أحد دون تذاكر.

ماذا؟ هل هدأت نفسك؟.

تذكرتك.

(الراكب يكاد أن ينسى موضع تذكرته، ويقلب جيوبه جيباً جيباً، حتى يجدها في كفه).

الراكب:

هذي تذكرتي.

عامل التذاكر:

شكراً، تذكرة خضراء...

ومربعة تقريباً...

وطريّة...

هذا يعني أنك رجل طيب.

هل تدري أني صليت المغرب ثم غفوت...

بكامل ثوبي.

استعداداً للنوم.

حتى دق الجرس برأسي، فتركت سريري.

لم آكل لقمة.

خضراء... شكراً لك.

إنك تحرجني إذ تؤثرني، وتفضلني عن نفسك.

كم يأسرني الخلق الطيب.. شكراً لك..

الراوي:

فلتنتبه الآن.

فسيحدث شيء من أغرب ما يخطر في بال.

العامل يفتح فمه، يمسح وجه التذكرة بكفه.

يتذوقها بلسانه...

يستطعمها، يقضم منها، يمضغها.

يبلعها، يتجشأ.

تتحسس كفاه معدته، وتدلك كفاه أحشاءه.

يشكر ربه.

ويقبل باطن يده في عرفان ومسرة.

أما الراكب.

فمن الدهشة لا يسعفه الفكر.

بل لا يعرف كيف يفكر.

بل لا يعرف كيف يكون الفكر.

عامل التذاكر:

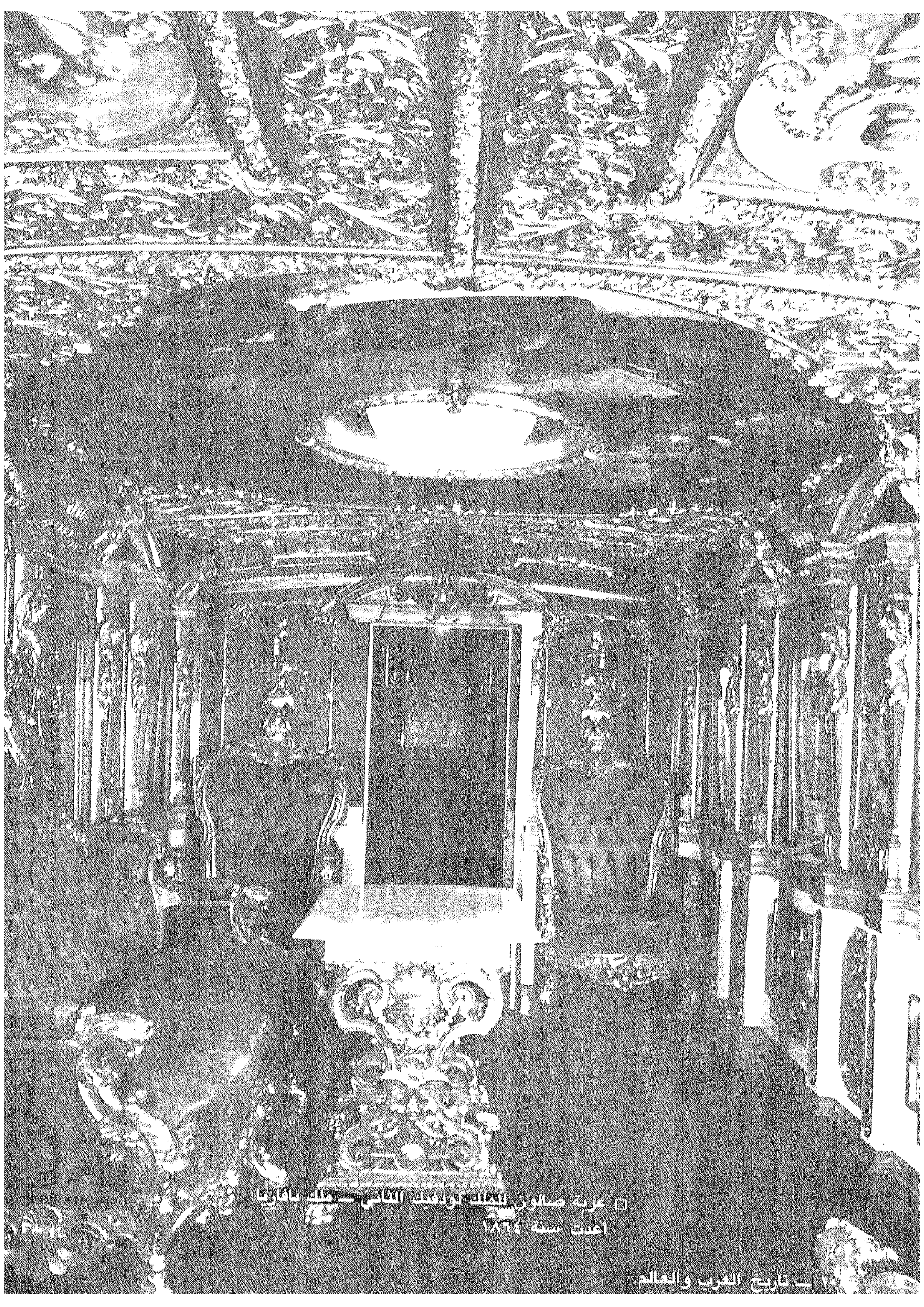
تذكرتك يا سيد!.



□ رحلة عبر الطبيعة الجميلة (١٨٩٢) ــ ادلف منتسال.



□ مسافرون.



□ عربة صالون للملك لودفيك الثاني ـ ملك بافاريا
اعدت سنة ١٨٦٤



□ العائدون من الحرب.

الراكـــب:

أعطيتك إياها يا سيد.

عامل التذاكر:

أين...؟

الراكـــب:

في بطنك يا سيد.

عامل التذاكر:

لا ترتفع الكلفة إلا بين صديقين.

فالزم حدك.

أقسم أنك رجل ساخر.

لكنك لن تجني من سخريتك إلا ما لا ترضاه.

حقاً، قد تأسرني خفة ظلك.

لكن بحدود.

فالواجب سيظل الواجب.

الراكـــب:

أقسم أني أعطيتك إياها يا سيد.

عامل التذاكر:

وأنا ألقيت بها من هذا الشباك...؟

الراكـــب:

لا، بل أنت أكلـ..

عامل التذاكر:

إيه.. أنا.. ماذا؟

علمني سني أن يتأخر غضبـي.

علمني سني أن يتأخر غضبـي.

أن يتقدم عقل سخطي.

لكني لا أسمح إطلاقاً أن يتقدم عقلي خطوات القانون.

اسمع يا...

عامل التذاكر:

اسمع يا عبده.

فلنتحدث في هذا الموضع الشائك كصديقين.

كرفيقي رحلة.

بدلاً من أن نتحدث خصمين كما يفرض هذا الوضع المؤسف.

(راكب وعامل تذاكر):

إيه.. أوسع لي جنبك.

وسأخلع سترتي الرسمية حتى لا تخشاني.

فلدى بعض النـاس حساسيـة ضد اللون الأصفر.

خذ نصحي كصديق.

لا تتحدث إلا فيما تبغى أن تتحدث فيه.

زن كلماتك بالميزان.

فكر مرات عشراً في كل سؤال.

عشرين لكل إجابة.

احذر أن يضطرب كلامك حتى لا يلتف حبالاً في عنقك.

لكن.. إيه.. ننتظر قليلاً حتى أخلع هذا الثوب الرسمي.

الناصرة

قسم التوثيق والأبحاث



مدينة عربية ومركز قضاء يحمل اسمها. وهي واحدة من أكبر وأجمل مدن فلسطين، ولها مكانة خاصة في نفوس المسيحيين في مختلف أنحاء العالم. فهم يحجون إليها كما يحجون إلى القدس وكنيسة المهد في بيت لحم. وقد نُسب السيد المسيح إليها فدعي بالناصري وعرف أتباعه بالمسيحيين تارة والنصارى تارة أخرى. وإذا كانت صفد عاصمة الجليل الأعلى فإن الناصرة عاصمة الجليل الأدنى. وهي قاعدة لقضاء الناصرة منذ أواخر العهد العثماني. وقد تعرضت الناصرة للاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ فهاجر عدد قليل من سكانها نتيجة لذلك، وصمد أكثرهم رغم قسوة الاحتلال وإهماله شؤون المدينة، وظلّت المدينة على حالها دون تطور رغم مرور أكثر من ثلاثين عاماً على الاحتلال فتراجعت المشروعات فيها وحدث عجز متصاعد في موازنة بلديتها. ولم تتعرض الناصرة العربية للتخلف والاهمال فحسب بل أخذت تعاني الاختناق والتسلط على يد سلطات الاحتلال التي أنشأت مدينة «نزاريت عليت» أي الناصرة العليا، على مرتفع جبلي بالقرب منها للتحكم في رقاب سكانها.

(أ) **الموقع الجغرافي**: تقوم الناصرة في قلب الجليل الأدنى وتطل على سهل مرج ابن عامر من الشمال. فهي لذلك نقطة انتقالية بين منطقة مرج ابن عامر السهلية ومنطقة الجليل الأعلى الجبلية. وقد كان لموقعها الجغرافي أهمية منذ القديم فكانت طرق فرعية تصلها بالطرق الرئيسية التي تربط بين سورية ومصر من جهة والأردن وفلسطين من جهة ثانية. وكانت بعض القوافل التجارية تعرّج عليها أثناء مرورها في سهل مرج ابن عامر (ر: الطرق).

وقد ضمّن الفاتحون خططهم العسكرية السيطرة على الناصرة للتحكم في سهل مرج ابن عامر منفذ الجيوش الطبيعي، ولاتخاذ المدينة قاعدة انطلاق للسيطرة على المناطق المجاورة، جبلية كانت أم سهلية أم غورية.

ولا يزال لموقع الناصرة أهميته التجارية والسياحية والعسكرية. فموقعها الجغرافي في بقعة تتوسط بيئات متنوعة حولها جعلها مركز التبادل التجاري لمنتجات هذه البيئات. ووقوع الناصرة في بقعة مقدسة عند المسيحيين جعلها محط أنظار السياح الذين يفدون إليها لزيارة الأماكن التي ارتادها السيد المسيح ومشاهدة المواقع الأثرية المحيطة بالمدينة والتمتع بالمناظر الجميلة.

ويضاعف من أهمية موقع الناصرة أنها عقدة مواصلات تتفرع منها طرق برية إلى المدن والقرى المجاورة. فهناك طرق معبدة تربطها بسهل مرج ابن عامر مسافة ٥ كم، وبمدينة العفولة مسافة ١٣ كم، وبجنين ونابلس والقدس والخليل جنوباً؛ وطرق معبدة أخرى تربطها بطبرية شرقاً، وبصفد شمالاً بشرق، وبشفا عمرو شمالاً بغرب، وبحيفا غرباً، وباللجون جنوباً بغرب، وببيسان جنوباً بشرق، وبذلك تتصل الناصرة بمدن المرتفعات الجبلية الفلسطينية وقراها، وبالسهول الساحلية والداخلية، وبغور الأردن، وبطرق الأقطار العربية المجاورة في لبنان وسورية والأردن ومصر.

(ب) **طبيعة الأرض**: تقوم الناصرة فوق رقعة متوسطة الارتفاع داخل الجليل الأدنى، ترتفع نحو ٤٠٠م عن سطح البحر، و٣٠٠م عن مستوى مرج ابن عامر، وتحيط بالناصرة جبال مرتفعة هي جزء من جبال الجليل الأدنى التي



تمتد بصفة عامة من الغرب إلى الشرق وتنحدر تدريجياً نحو سهل مرج ابن عامر. وتحصر السلاسل الجبلية في الجليل الأدنى أودية مستعرضة بينها لها محور الجبال نفسه. ولذا فإن انفتاح الناصرة على المناطق المجاورة في الاتجاه الشرقي الغربي أكثر يسراً منه في الاتجاه الجنوبي الشمالي. وأهم الجبال المجاورة للناصرة جبل طابور (الطور) وجبل صرطبة شرقي الناصرة، وجبل القفزة وتل عداشيم وجبل الدحي جنوبيها الشرقي، وجبل السِّيخ شماليها الشرقي، وجبل الرّينة شماليها.

وتعدّ منطقة الناصرة خط لتقسيم المياه بين وادي الأردن شرقاً والبحر المتوسط غرباً، إذ ينحدر منها وادي البيرة وروافده نحو نهر الأردن، ونهر المقطّع وروافده نحو البحر المتوسط. ونظراً لوجود بعض الصدوع (الانكسارات) التي تمتد على الأغلب في اتجاه شرقي غربي تتخذ الأودية والمنخفضات المنتشرة في المنطقة الاتجاه نفسه. وقد هبطت هذه الأودية بفعل حركات تكوينية على طول الصدوع وأصبحت فتحات طبيعية بين السلاسل الجبلية من جهة ومصادر طبيعية للمياه الجوفية من جهة أخرى. وأهم الينابيع المحيطة بالناصرة عين العذراء وعين القناة وعين أبو راس وعين القسطل وعين موسى وغيرها من الينابيع والآبار.

(ج) **المناخ**: مناخ الناصرة هو مناخ البحر المتوسط المتميز بحرارته وجفافه صيفاً، ودفئه وهطول أمطاره شتاء. ويبلغ المتوسط السنوي للحرارة ١٧°، ولا يزيد متوسطها اليومي من كانون الأول إلى آذار على ١١°. ويعدّ شهر كانون الثاني من أكثر شهور السنة برودة، إذ يبلغ متوسط الحرارة فيه ٩°، وشهر آب من أكثر

الشهور حرارة بمتوسط مقداره ٢٤°. وتتعرض الناصرة في الشتاء إلى هبوب رياح شمالية باردة أحياناً. وتؤدي هذه الموجات الباردة إلى حدوث الصقيع فتسقط الثلوج على الجبال خلال فصل الشتاء. ويراوح معدل الرطوبة النسبية بين ٤٠ ٪ في شهر أيار و٧٣ ٪ في شهر كانون الثاني.

متوسط كمية الأمطار السنوية ٦٣٩ مم. ويتركز هطولها في الفترة من أيلول إلى أيار. ويعدّ كانون الثاني من أكثر الشهور أمطاراً (١٧٢,٢ مم). ونظراً لارتفاع كمية الأمطار التي تهطل على الناصرة وانخفاض درجات الحرارة شتاء، وبالتالي انخفاض قيم البخر والنتح، فإن الموازنة المائية لفصل النمو تتسم بفائض مائي يظهر أثره في كثرة الينابيع والمسيلات المائية في المنطقة.

(د) **النشأة والتطور**: دلّت الحفريات الأثرية على أن الناصرة كانت مسكونة في العصر البرونزي المتوسط وفي العصر الحديدي: وقد وجدت فيها قبور أثرية منقورة في الصخور أو في الكهوف (ر: العصور القديمة).

ويبدو أن المدينة لم تكن ذات شأن في العصور القديمة السابقة للميلاد. فلم يرد لها ذكر في العهد القديم أو في أي مصدر من المصادر الأدبية السابقة للإنجيل الذي ورد فيه اسم المدينة ٢٨ مرة.

وفي القرن الثاني بعد الميلاد ازداد الوجود اليهودي في المدينة وفي منطقة الجليل كلها بعد أن دمّر هادريانوس امبراطور روما مدينة القدس وطرد اليهود منها.

١ ــ **مدينة المسيح**: استمدت الناصرة مكانتها في التاريخ لأنها مدينة السيد المسيح ومريم العذراء. ففي الناصرة استوطنت مريم العذراء ويوسف النجار، وفيها بشّر جبرائيل مريم العذراء في السنة الخامسة قبل الميلاد، كما ورد في الإنجيل ــ بميلاد المسيح، وفيها قضى المسيح ٣٠ سنة من عمره، وفيها حاول اليهود من سكانها طرحه من جبل القفزة للتخلص منه (ر: المسيحية).

وقد منع اليهودُ المسيحيين من الدخول إلى الناصرة في القرنين الثاني والثالث. ومنذ القرن الرابع بدأ تاريخ الناصرة يتحوّل بعد تنصرّ الامبراطور الروماني قسطنطين ٣٠٦ ــ ٣٣٧م.

وذكر في رواية ضعيفة أن الملكة هيلانة والدة قسطنطين شيّدت كنيسة البشارة في الناصرة في القرن الرابع. ولكن الحفريات الأثرية الأخيرة ١٩٥٥ ــ ١٩٦٦ تشير إلى أن أول كنيسة بنيت في الناصرة، وهي كنيسة البشارة، تمّ بناؤها حوالي سنة ٤٥٠م. بيد أن اعتناق قسطنطين للمسيحية مكّن المسيحيين من زيارة الناصرة والتبرّك بالأماكن المرتبطة باسم السيد المسيح ووالدته العذراء.

وفي سنة ٦١٤ انضم يهود الناصرة إلى الفرس في حربهم مع البيزنطيين.

٢ ــ **في عهد الأمويين والعبّاسيين**: دخلت الناصرة في حوزة العرب المسلمين على يد شرحبيل بن حسنة فاتح شمال فلسطين في السنة الثالثة عشرة للهجرة (٦٣٤م)، وكانت تابعة آنذاك لجند الأردن الذي كانت قاعدته طبرية. وفي سنة ١٠٤هـ /٧٢٢م، أي في زمن الخليفة الأموي يزيد الثاني، زار السائح الإنكليزي وليبلد الناصرة وذكر كنيسة البشارة. ويستدل من تقرير عن المعاهد الدينية المسيحية يرجع تاريخه إلى سنة ١٩٣هـ /٨٠٨م (زمن هارون الرشيد) أنه كان في الناصرة دير فيه ١٢ راهباً، ودير آخر على جبل القفزة.

ويتحدث برنارد الحكيم عن جو الحرية الدينية في المدينة عند زيارته لها زمن العباسيين في سنة ٨٦٩م فيقول:

«يوجد سلام تام بين المسيحيين والمسلمين. ولو كنت مسافراً ومات جملي أو حماري الذي يحمل أمتعتي أترك كل شيء في مكانه بلا حارس وأذهب إلى أقرب مدينة فأستأجر دابّة وأعود فأجد عند رجوعي كل شيء كما تركته».

٣ ــ **في عهد الصليبيين**: يظهر أن الناصرة حلّ بها خراب كبير في القرن الحادي عشر. فالمصادر تشير إلى أن الصليبيين وجدوا المدينة خراباً عندما احتلوها سنة ٤٩٤هـ /١١٠٠م. وقد عمّر تنكريد مدينة الناصرة وزيّنها وبنى فيها الكنائس بعد أن كان قد دخلها فاتحاً على رأس القوة الصليبية. ونقل الصليبيون أسقفية سكيتوبوليس(بيسان) إلى الناصرة فصارت مركزاً

لها لأول مرة في تاريخها (ر: الناصرة، كنائس).

وفي سنة ١١٤٠م انعقد فيها مجمع لفضّ الخلاف بين البابا فكتور الرابع والبابا إسكندر الثالث اللذين كان كل منهما يدّعي كرسي البابوية لنفسه.

وفي سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م، أي بعد معركة حطين، استولى مظفرالدين كوكوبوري أحد قادة صلاح الدين على مدينة الناصرة قسراً وملكها. وأظهر صلاح الدين ــ كما فعل في القدس وغيرها ــ عطفاً على أهل الناصرة ولم يمس كنائسها بأذى. وبموجب اتفاقية الصلح التي عقدها مع ريشارد ملك الإنكليز سنة ٥٨٧هـ /١١٩٢م بقيت الناصرة في عهدة صلاح الدين. غير أن الملك الكامل الأيوبي سلّمها لفردريك الثاني امبراطور ألمانيا بعد عقد الصلح بينهما سنة ٦٢٧هـ /١٢٢٩م. وبقيت المدينة في حوزة الفرنجة إلى أن استردّها الخوارزمية سنة ٦٤٢هـ /١٢٤٤م. ثم احتل الصليبيون الناصرة بقيادة لويس التاسع سنة ٦٤٨هـ /١٢٥٠م لفترة قصيرة، وزارها الملك لويس في سنة ٦٤٩هـ /١٢٥١م.

٤ ــ **هدم الناصرة**: نزلت بالناصرة ضربة شديدة سنة ٦٦٢هـ /١٢٦٣م عندما هدم الظاهر بيبرس المدينة وأديرتها وكنائسها وقتل كثيراً من سكانها النصارى. وفي سنة ٦٧٠هـ /١٢٧١م احتلها الأمير إدوارد الإنكليزي (الملك إدوارد فيما بعد) في الحملة الصليبية التاسعة والأخيرة لفترة وجيزة أيضاً. ولكن احتلال الناصرة المتبادل هذا انتهى سنة ٦٩١هـ /١٢٩١م عندما أخرج السلطان خليل بن قلاوون بقية الصليبيين من عكا وأجهز عليهم في الناصرة وهدم كنائسها. وظلّت الناصرة في حالة من الانحطاط أكثر من ثلاثمائة سنة بعد هذا التاريخ.

وقد استوطن المسلمون المدينة بعد طرد الفرنجة، ولكن ظلّ الرهبان والحجاج المسيحيون يزورونها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وكانت المدينة هذا الوقت قرية صغيرة من أعمال صفد.

٥ ــ **في العهد العثماني**: في سنة ٩٢٣هـ /١٥١٧م دخلت الناصرة في حوزة العثمانيين. ويقول الرحّالون الأوروبيون أنه لم يكن في الناصرة رهبان في أواسط القرن السادس عشر الميلادي. وكان عدد المسيحيين فيها لا يتجاوز بضع مئات. وفي سنة ١٠١٥هـ /١٦٠٦م عقدت معاهدة بين السلطان أحمد الأول العثماني وهنري الرابع ملك فرنسا فُوّض الأخير بموجبها أن يقيم قناصل في المدن. وأخذت حالة الرهبان تتحسن. وفي سنة ١٠٣٠هـ /١٦٢٠م سلّم الأمير فخرالدين بن قرقماز المعني الثاني مغارة البشارة إلى الرهبان الفرانسيسكان. ومنذ ذلك الوقت أخذ المسيحيون يتوافدون إلى المدينة بأعداد متزايدة. وقد وفد إليها أولاً مسيحيون موارنة ثم مسيحيون من الروم الأرثوذكس. وكانت المدينة تتعرض في القرن السابع عشر باستمرار لهجمات الأعراب. وكان الحكّام يتعرضون للرهبان أحياناً ويبعدونهم، ولكن هؤلاء كانوا يعودون دائماً.

وفي سنة ١١٤٣هـ /١٧٣٠م بنى اللاتين كنيسة في الناصرة. وكان جوّ التسامح الديني يسود المنطقة منذ عهد الأمير فخرالدين المعني الثاني، ثم في عهد ظاهر العمر الذي استولى على عكا سنة ١١٦٣هـ /١٧٤٩م وجعلها عاصمة ملكه وأطلق الحرية الدينية ومدّ رواق الأمن ووسّع التجارة. وقد كان له فضل كبير في عمران الناصرة. وبعد مقتل ظاهر العمر سنة ١١٩٠هـ /١٧٧٦م تلاه أحمد باشا الجزّار الذي حكم البلاد حكم إرهاب.

وتميّز القرن الثامن عشر بمشاحنات بين طائفتي الروم واللاتين خاصة. وفي أواخر هذا القرن قال الرحالة الفرنسي فولني عن الناصرة: «سكّانها ثلثهم مسلمون والثلثان مسيحيون. وللآباء الفرنسيسيين فيها نزل ومعابد، وهم عادة ملتزمو البلدة».

في نيسان ١٢١٤هـ /١٧٩٩م احتل نابليون الناصرة وزار المدينة ثم ما لبث أن انسحب منها بعد هزيمته عند أسوار عكا (ر: الحملة الفرنسية).

وفي سنة ١٢٤٢هـ /١٨٢٦م رخّص السلطان محمود العثماني لرهبان الفرانسيسكان بتجديد بعض المقامات وأقطعهم الناصرة وبعض القرى على أن يؤدّوا خراجها للدولة.

وتحدث الرحالة بوركهارت عن الناصرة، وكان

قد نزلها سنة ١٢٢٧هـ /١٨١٢م، فقال: «يتمتع مسيحيو الناصرة بحريّة كبيرة. فالرهبان يذهبون للصيد وحدهم حسب عوائدهم مسافة تبعد عن الدير عدة ساعات دون أن يتعرضوا لأية إهانة من المسلمين».

وشهدت الناصرة والبلاد كلها عهداً من التسامح في فترة حكم إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا المصري ١٨٣١ ــ ١٨٤١م وكان حكمه بداية عصر جديد من الإدارة الحديثة (ر: الحكم المصري).

وفي القرن التاسع عشر بدأت الدولة العثمانية عصر التنظيمات وأخذت تحاول تحسين أوضاع الرعية فيها بصورة عامة. ومنذ بداية هذا القرن أخذت تفد إلى الناصرة أعداد متزايدة من الإرساليات الأجنبية والتبشيرية وتقيم فيها منشآت مختلفة من كنائس وأديرة ومعاهد تعليم لجميع الطوائف.

عانت الناصرة كما عانت سائر المدن الجبلية في فلسطين من زلزال عام ١٨٣٧م الذي دمرّ ٤٢٤ بيتاً فيها وأعطب ٣٧٣ بيتاً آخر وقتل من سكانها ١٢٦ فرداً (ر: الزلازل).

وكانت الناصرة تقوم قبل الحرب العالمية الأولى على أربعة تلال يشكل مجموعها دائرة. ولم تكن المباني تغطي جميع هذه التلال، بل كانت تتلاصق أحياناً وتتباعد مختفية بين تلك التلال أحياناً أخرى. وقد غطيت سطوح معظم مبانيها بالأجر الأحمر (القرميد) وأحاطت بها الأشجار المثمرة، ولا سيما أشجار الزيتون. ولم يكن عدد مبانيها يتجاوز ١,٥٠٠ بناء في ذلك الوقت، وكان نموها العمراني يمتد بخطى واسعة نحو الشرق والغرب.

قدر عدد سكان الناصرة في عام ١٨٥٢ بنحو ٣,٠٠٠ نسمة، وقدّر عددهم في عام ١٨٨١ بنحو ٥,٩٣٩ نسمة. وفي عام ١٩٠٤ بلغ العدد ٦,٤٥٨ نسمة، ثم ارتفع إلى ٧,٩٨٨ في عام ١٩١٢، وإلى ٨,٥٨٤ إبّان الحرب العالمية الأولى. وكان سكانها يعملون في الزراعة والصناعة والتجارة.

وفي الحرب العالمية الأولى كانت الناصرة مقراً لقيادة الجيش الألماني ــ التركي.

٦ ــ **في عهد الانتداب البريطاني**: في أوائل عهد الانتداب البريطاني انخفض عدد سكان الناصرة قليلاً عمّا كان عليه في بداية الحرب العالمية. وقدّر العدد بنحو ٧,٤٢٤ نسمة عام ١٩٢٢. ويعزى هذا الانخفاض إلى أحداث الحرب والأمراض والمجاعات التي أتت على عدد من السكان، بالإضافة إلى عامل الهجرة من الناصرة إلى خارج فلسطين. وفي تعداد عام ١٩٣١ ارتفع عدد سكان الناصرة إلى ٨,٧٥٦ نسمة كانوا يقيمون في ١,٨٣٤ بيتاً داخل المدينة، علاوة على ١٣٨ نسمة كانوا يقيمون في ٢٨ بيتاً بضواحي الناصرة.

شهدت الناصرة، بعدئذ تطوراً ملموساً في سكانها وعمرانها فزاد عدد السكان وجميعهم من العرب، إلى ١٤,٢٠٠ نسمة عام ١٩٤٥. وكان عددهم في نهاية فترة الانتداب البريطاني نحو ١٧,٠٠٠ نسمة. وقد أثرت الزيادة العددية للسكان في الزيادة العددية للمساكن والمنشآت والمرافق العامة. وظهر ذلك في النمو العمراني للمدينة وتوسّعها وامتدادها فوق رقعة تجاوزت مساحتها ٥,٠٠٠ دونم. واتخذ هذا الامتداد شكل المحاور على طول الطرق المتفرعة من الناصرة إلى المدن والقرى المجاورة. ولم يقتصر الأمر على عدد البيوت بل أصاب التطور نوعها وأساليب عمارتها، فبدت الناصرة بيضاء ببيوتها الفخمة التي تضم التجهيزات العصرية، وبشوارعها النظيفة وحدائقها الغنّاء.

ساهمت بلدية الناصرة في تنظيم المدينة والإشراف على إدارتها وشؤونها منذ عام ١٨٧٥ عندما تأسس أول مجلس بلدي في المدينة. ففي عام ١٩٢٢ بلغ مجموع واردات البلدية نحو ٤,٣٠٨ جنيهات، والنفقات مثلها. وفي عام ١٩٤٤ كانت وارداتها نحو ١٨,٠٠٠ جنيه ونفقاتها نحو ١٧,٠٠٠ جنيه. وقد أعطت البلدية عام ١٩٣٥ وحده نحو ١٥٠ رخصة بناء بقيمة ١٧,٠٠٠ جنيه.

٧ ــ **في ظل الاحتلال الإسرائيلي**: ظلت بلدية الناصرة تدير شؤون المدينة بعد عام ١٩٤٨ رغم قسوة الاحتلال الإسرائيلي. فقد أقامت (إسرائيل) مدينة الناصرة العليا الصهيونية «نزاريت عليت» لتكوّن كمّاشة من الأبنية الحديثة على الجبال والهضاب المطلة على

المدينة من جهتي الشرق والشمال. وتسكن هذه المدينة مجموعات من المستوطنين الصهيونيين خصصت لهم الأحياء الشرقية. وأما المنطقة الشمالية فقد خصصت لإقامة عائلات الجنود الصهيونيين المتزوجين.

بلغ مجموع سكان الناصرة العربية أواخر عام ١٩٧٨ قرابة ٤٥,٠٠٠ نسمة، مجموع سكان الناصرة العليا الصهيونية ١٦,٠٠٠ نسمة. ولكن موازنة الأولى كانت ١٧ مليون ليرة إسرائيلية في حين كانت موازنة الثانية ٣٠ مليون ليرة إسرائيلية، أي أن موازنة بلدية الناصرة العليا التي يبلغ عدد سكانها ثلث عدد سكان الناصرة العربية تقريباً وصلت إلى ما يقرب ضعفي موازنة بلدية الناصرة العربية بل إلى أكثر من ذلك إذا أضيف إليها الدعم المقنّع الذي تقدمه الحكومة باسم صندوق مشاريع التطوير. وبذلك تبلغ مخصّصات الفرد الصهيوني من الخدمات البلدية في الناصرة العليا ٥,٠٠٠ ليرة في العام مقابل ١,٥٠٠ ليرة للفرد العربي في الناصرة.

(هـ) **التركيب الوظيفي للناصرة**: تتنوع الوظائف التي تمارسها الناصرة منذ الماضي بسبب مكانتها الدينية المرموقة وموقعها الجغرافي الهام. فقد جذبت إليها السكان للإقامة والاستيطان، وأخذ هؤلاء يمارسون حرفاً متنوعة تناسب ظروف مدينتهم.

١ ــ **الوظيفة الدينية**: للناصرة أهمية دينية خاصة كما لغيرها من مدن فلسطين المقدسة كالقدس وبيت لحم والخليل. ففيها ٢٤ كنيسة وديراً وعدد من المتاحف الدينية. وتضم كذلك بعض المساجد وأضرحة الشهداء والصالحين من المسلمين. وأبرز معالم المدينة المدنية التاريخية كنيسة البشارة التي تقوم على الموضع الذي بشّرت فيه مريم بأنها ستلد المسيح. وتقع الكنيسة على مقربة من حافة الجبل المطل على مرج ابن عامر وكان اليهود قد حاولوا أن يلقوا بالسيد المسيح من فوقه إلى أسفل. وهناك كذلك كنيسة القديس يوسف التي أقيمت مكان بيت يوسف النجار وحانوته وكنيسة البلاطة أو مائدة المسيح، وكنيسة سيدة الرحمة، وكنيسة المجمع، وعين العذراء.

جذبت أهمية الناصرة الدينية أنظار العالم المسيحي فأخذ يؤمها آلاف الحجّاج المسيحيين والسيّاح سنوياً لزيارة البقاع المقدسة والتاريخية، الأمر الذي يبعث الحياة ويزيد من الحركة والنشاط فيها.

٢ ــ **الوظيفة الزراعية**: تبلغ مساحة الأراضي التابعة للناصرة ١٠,٢٢٦ دونماً منها ١٥٠ دونماً للطرق والأودية. ولم يكن الصهيونيون يملكون من أراضيها شيئاً. ولكنهم وضعوا أيديهم بعد الاحتلال على مساحة من الأرض الجبلية المرتفعة فأقاموا عليها مدينة صهيونية تمهيداً لتهويد الناصرة.

ويقع كثير من الأراضي الزراعية المحيطة بالناصرة فوق سطوح الجبال والهضاب، وعلى سفوحها ومنحدراتها، وفي بطون الأودية والسهول. وتعدّ الأرض الزراعية التي تشغل جزءاً من سهل مرج ابن عامر أخصب أراضي الناصرة. وتستخدم الأراضي حول الناصرة في زراعة الأشجار المثمرة كالعنب والزيتون والتفاح والمشمش والتين والرمان واللوز وغيرها. وهناك مساحة كبيرة منها في السفوح الجبلية الشديدة الانحدار تكسوها الغابات الحرجية. وقد زرع الصهيونيون غابة بلفور جنوبي غرب الناصرة تخليداً لذكرى بلفور صاحب الوعد المشؤوم. وتمتد الأشجار الحرجية على جانبي طريق العفولة ــ الناصرة وتضفي على الطريق منظراً بهيجاً.

وتزرع في أراضي الناصرة المحاصيل الحقلية من قمح وشعير وعدس وفول وحمص وغيرها، علاوة على الخضر على اختلاف أنواعها المعروفة. وتعتمد الزراعة على مياه الأمطار والمياه الجوفية من الينابيع والآبار لريّ مساحات من الأراضي المنبسطة والأخرى الواقعة في بطون الأودية. وبالرغم من أهمية مدينة الناصرة الزراعية فإنها لا تزال تعتمد على المناطق الريفية المجاورة في إمدادها بالخضر والفواكه. وأهم القرى الزراعية المجاورة للناصرة كفركنا والرينة ودبّورية ويافا الجليل وإكسال.

٣ ــ **الوظيفة التجارية**: كانت الناصرة منذ مطلع هذا القرن مدينة زاهرة تعجّ بالحركة

التجارية ويؤمّها القرويون فيجدون ما يطلبون. ولكن الوضع التجاري ركد بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة عندما حلّت مجموعة من المستعمرات الصهيونية محلّ بعض القرى العربية التي كانت تتبع الناصرة في سهل مرج ابن عامر، لأن أهالي تلك المستعمرات لم يعودوا يعتمدون على الناصرة في تجارتهم. وبالرغم من ذلك فإن الناصرة ظلّت سوقاً لأهالي القرى العربية الباقية يعرضون فيها منتجاتهم الزراعية والحيوانية ويشترون منها جميع لوازمهم وحاجاتهم المنزلية.

وتأتي السياحة على رأس العوامل التي جعلت حركة التجارة رائجة في الناصرة. فالمدينة مركز سياحي مرموق يستقبل عدداً كبيراً من السيّاح والحجّاج المسيحيين كل عام. ويشتري هؤلاء أصنافاً متعددة من الهدايا التذكارية ويعودون بها إلى بلادهم. ويأتي الموقع الجغرافي للناصرة ووجود شبكة طرق كثيرة تربطها بجهات مختلفة من فلسطين والأقطار العربية عاملاً هاماً في ترويج الحركة التجارية. وتعدّ منطقة الناصرة ظهيراً جغرافياً غنيّاً لميناءي حيفا وعكا.

٤ ـ **الوظيفة الصناعية**: اشتهرت الناصرة في القديم بصناعة النسيج. فقد كانت فيها أنوال كثيرة لحياكة أنواع المفارش والجوارب. وتصنع في المدينة المناجل والمحاريث. وتعدّ التجارة والمصنوعات الخشبية أقدم ما عرفته الناصرة من الصناعات. ومن صناعات الناصرة كذلك دباغة الجلود وتفصيلها، وخياطة الفراء، وصناعة الفخار والهدايا التذكارية من سجاد ونحاس وخشب محفور. واشتهرت نساء الناصرة بصنع المطرزات الحريرية. وفي الناصرة معاصر الزيتون والسمسم لاستخراج الزيت والسيرج والطحينة. وفيها أيضاً مصانع للصابون (ر: الصابون، صناعة) والبسط والحلويات وغيرها.

٥ ـ **الوظيفة الإدارية**: أصبحت الناصرة مركزاً لمقاطعة الناصرة منذ الاحتلال الصهيوني لها. وكانت في العهد العثماني قضاء تابعاً لمتصرفية عكا. ثم أصبحت في عهد الانتداب البريطاني مركز لواء الجليل الذي كان يتألف من خمسة أقضية هي: الناصرة وعكا وبيسان وصفد وطبرية (ر: الإدارة).

اشتمل قضاء الناصرة عام ١٩٠٤ على ٢٥ قرية، زاد عددها إلى ٣٨ قرية ومزرعة عام ١٩١٠، وفي أواخر الحكم البريطاني ضم قضاء الناصرة ٢٣ قرية وعشيرة واحدة.

بلغت مساحة قضاء الناصرة في عام ١٩٤٥ نحو ٤٩٧ كم٢ منها ٨ كم٢ للطرق والأودية والسكك الحديدية. وبلغ عدد سكانه ٤٦,١٠٠ نسمة في العام نفسه، أي أن كثافة السكان بلغت ٩٢,٤ ن/ كم٢. وتضم مدينة الناصرة الدوائر والمصالح الحكومية والمؤسسات العامة والخاصة التي تؤدي خدماتها لأهاليها وأهالي القضاء.

٦ ـ **الوظيفة التعليمية**: اشتملت الناصرة في أوائل عهد الانتداب البريطاني على عدد من المدارس منها اثنتان للحكومة ومدرسة للكاثوليك وعدة مدارس للأجانب. وكانت فيها دار المعلمين الروسية، وهي من أهم المدارس الفنية. وفي العام الدراسي ١٩٤٢/١٩٤٣ ضمّت الناصرة ثلاث مدارس حكومية، اثنتان للبنين وواحدة للبنات. وقد أصبحت إحدى مدرستي البنين ثانوية كاملة في عام ١٩٤٨، أما المدرستان الأخريان للبنين والبنات فهما ابتدائيتان كاملتان. وقد بلغ مجموع المدارس غير الحكومية ١١ مدرسة في عام ١٩٤٣. وفي العام نفسه بلغ مجموع الطلاب في مدارس الناصرة ١,٧٣٥ تلميذاً ومجموع التلميذات ١,٢٢٤ تلميذة. وتدل هذه الأرقام على أن حياة الناصرة العلمية راقية ظهر أثرها في مستويات الأهالي الثقافية العالية، فقد ساهمت الناصرة في تخريج جيل مشهور من المتعلمين والمثقفين والأدباء.

٧ ـ **الوظيفة الصحية**: يتلّقى المواطنون في الناصرة خدمات صحية جيدة، ففيها مستشفيان: الأول إنكليزي كان يضم في عام ١٩٤٤ نحو ٧٢ سريراً، ومجموع المرضى الذين تلقوا معالجة فيه خلال ذلك العام ١,٧٣١ مريضاً. والثاني فرنسي كان يضم ٨٨ سريراً وعولج فيه ١,٢٧٨ مريضاً في العام نفسه (ر: المستشفيات).

● **الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.**

نبذة عن المكتبات الاسلامية في الهند

تقرير كتبه الأستاذ عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي عن مكتبات الهند. ويذكر أن معهد المخطوطات العربية في الكويت قد أرسل بعثة إلى الهند في عام ١٤٠٤هـ وقد شملت زيارة البعثة على خمس مدن وقدم تقريراً عن ١٧ مكتبة مخطوطات وقد سبق معهد المخطوطات جامعتا الامام محمد بن سعود الاسلامية والجامعة الاسلامية في المدينة المنورة عندما ذهبت بعثتان وصورتا مجموعة من المخطوطات المهمة هناك. وتتميماً للفائدة العلمية المرجوة نرفق إلى جانب تقارير تلك البعثات هذا التقرير الموجز عن بعض مكتبات المخطوطات في الهند المعروفة وغير المعروفة.

تقرير عن اهم مكتبات الهند التي تشتهر من حيث المخطوطات او المطبوعات القديمة في التفسير والحديث والفقه والعربية، مع الاشارة إلى أن هناك مكتبات قيمة في كل مركز من مراكز التعليم والتربية المنتشرة في أنحاء الهند:

١ ــ **مكتبة رضا الشعبية**، رام فور (شمال الهند): وهي من أقدم مكتبات الهند الشهيرة للمخطوطات النادرة، أنشأها النواب السيد فيض الله خان بهادر والي رامفور في ١٧٩٤م / ١٢٠٨هـ، وطار صيتها في الآفاق في النصف الآخر من القرن التاسع عشر الميلادي بفضل جهود الأمير السيد كلب علي خان بهادر، وازدهرت المكتبة في عصر النواب محمد رضا علي خان بهادر الذي تولى عرش الولاية سنة ١٩٣٠م، وعين الأستاذ امتياز على عرشي أميناً للمكتبة، وبعد استقلال الهند ادارتها الحكومة، ويبلغ عدد المخطوطات فيها ١٤٠٠٠ مخطوطة، معظمها باللغة العربية والأردية والفارسية. ونشر فهرس المخطوطات العربية في ست مجلدات، وعدد مخطوطات علوم القرآن والحديث وأسماء الرجال ١٤٢٠ مخطوطة.

٢ ــ **مكتبة خدا بخش للعلوم الشرقية**، بانكي فور بتنة، (ولاية بهار): وهي مكتبة عظيمة تمتاز بين مكتبات الهند بمخطوطاتها النادرة في علوم القرآن والحديث، وضع حجرها الأساسي والد خدا بخش الشيخ محمد بخش (ف ١٨٧٦م) الذي كان مولعاً باقتناء الكتب النادرة، وترك لابنه خدا بخش ١٤٠٠ مخطوطة حين وفاته، واستطاع خدا بخش بجهوده الفردية أن يقدم للأمة الاسلامية أروع مكتبة طار صيتها في الآفاق، وسار إليها الركبان، ويبلغ عدد المخطوطات والمطبوعات فيها ٤٦٢٩٨ نسخة، وعدد المخطوطات العربية: ٤١٠٦ نسخة، وقد ظهر إلى الآن ٣٢ جزءاً من فهارسها، منها جزءان للحديث وجزءان للقرآن وعلومه، ويقدر عدد مخطوطات التفسير والحديث ألفي مخطوطة، ومن نفائس المخطوطات: مصحف بخط النسخ بقلم ياقوت (٦٦٨هـ)، والأمالي لأبي القاسم عبدالمالك بن محمد بن عبدالله، وتاريخ دمشق، وهي نسخة وحيدة كاملة في العالم.

٣ ــ **مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكتا**: هي أيضاً من المكتبات الشهيرة في الهند لمخطوطاتها الكثيرة ولمطبوعاتها، ويقدر فيها عدد المخطوطات أكثر من ألفي مخطوطة، وتديرها حكومة البنغال.

٤ ــ **مكتبة الحكومة الشرقية**: مدراس في جامعة مدراس: هي مكتبة قيمة عظيمة في جنوب الهند، وصدرت فهارسها المشروحة في اللغة الانجليزية، وعدد المخطوطات العربية فيها حوالي ١٥٠٠ مخطوطة، معظمها في الحديث والتفسير والأدب والكلام.

٥ ــ **مكتبة أسرة القاضي بدر الدولة**، بمدراس: أسرة بدر الدولة من الأسر العلمية التي لعبت دوراً مهماً في نشر الثقافة الاسلامية في الهند، وهاجر بعض أصحابها إلى حيدر آباد واشتهر من هذه الأسرة الأستاذ الدكتور حميد الله (فرنسا)، وتوجد في هذه المكتبة ٧٠٠٠ مخطوطة، غالبها في علوم القرآن والسنة والفقه والكلام والعربية، كما روى الشيخ عبدالغني في حيدر آباد وهو من أفراد الأسرة، واشتهرت مكتبة مدراس «بمكتبة أمانتي».

٦ ــ **المكتبة السعيدية**، بحيدر آباد: هي مكتبة صانية لأسرة القاضي بدر الدولة، وفيها ثلاثة آلاف مخطوطة في الحديث والقرآن والفقه والكلام، ومديرها الحالي الشيخ عبدالغني حفظه الله وكلتا المكتبتين لأسرة القاضي بدر الدولة تملكها السيدة خير النساء زوجة الشيخ محمد غوث، وهي خالة الشيخ عبدالغني المذكور، وكلتا المكتبتين في حالة كئيبة، تحتاج إلى نظام وإدارة وتنسيق ومعونة مادية، وإلا يخشى التلف والفساد عليها.

٧ ــ **المكتبة الآصفية**: هي مكتبة أنشأها الأمراء المسلمون في حيدر آباد، والآن تديرها الحكومة، وهي كبرى المكتبات في حيدر آباد، وفيها مخطوطات جيدة، ومطبوعات قديمة.

٨ ــ **مكتبة متحف سالار جنك**: أنشأها نواب مير يوسف علي خان سالار جنك (الثالث)، وهي من المكتبات الشهيرة في الهند، تحتوي على مئتي ألف كتاب من مطبوع ومخطوط، وعدد المخطوطات فيها ٧٦٥٠ مخطوطة، والعربية فيها: ٢٤٥٩، ومخطوطات علوم القرآن والحديث وأسماء الرجال والفتاوي لأهل السنة تبلغ ٢٩٨ مخطوطة. وكتب السنة والتفسير والفقه والفتاوي للشيعة تبلغ ٢٧٤ مخطوطة، ولها فهرس منشور من دائرة المعارف بحيد آباد.

وفي حيدر آباد مكتبات أخرى مثل المكتبة العثمانية ومكتبة آزاد.

وزرنا بعض أسر النواب ورأينا هنا مئات من المخطوطات يعرضونها على المشترين ليبيعوها بثمن بخس.

٩ ــ **مكتبة المعهد الهندي**، للدراسات الاسلامية (تابعة لمؤسسة همدرد بدهلي): هي مكتبة حديثة أنشأها الحكيم عبدالحميد الدهلوي، وصارت المكتبة من كبرى مكتبات الهند من حيث المخطوطات فتوجد فيها خمسة آلاف مخطوطة معظمها بالعربية. وجدير بالذكر أن فيها مخطوطات كثيرة مصورة من مكتبات روسيا، وهي من أبدع المكتبات في تنسيقها ونظمها وإدارتها.

١٠ ــ ١١ ــ **مكتبة الجامعة الملية ــ بدهلي، ومكتبة أبي الكلام**، آزاد بدهلي: مكتبتان قيمتان، وفيهما عدد غير قليل من المخطوطات، والجدير بالذكر أن ما في مكتبة الجامعة الملية أهديت إليها من مكتبة دار الحديث الرحمانية وقت استقلال الهند سنة ١٩٤٧م التي كانت من أهم مكتبات الهند.

١٢ ــ **مكتبة آزاد**، بالجامعة الاسلامية بعلي كره: وهي مكتبة عامة للجامعة ومن كبرى مكتبات العالم وفيها عدد غير واحد من المخطوطات العربية من الكتاب والسنة والفقه والأدب.

١٣ ــ **مكتبة دار العلوم ديوبند**: هي مكتبة عظيمة شهيرة في الهند، تحتوي على آلاف من الكتب القيمة، وفيها عدد كبير من المخطوطات، إلا أن شهرة المكتبة من حيث كثرة الكتب المطبوعة القديمة.

١٤ ــ **مكتبة ندوة العلماء**، بلكناؤ: هي مكتبة لدار العلوم، وكبيرة جداً، يرجع تاريخها إلى وقت تأسيسها قبل ست وثمانين سنة، وأهديت إليها مكتبة العلامة عبدالحي الحسني ومكتبة النواب نجم الحسن ومكتبة النواب علي حسن خان بن النواب صديق حسن خان. وعدد المخطوطات فيها: التفسير ٧١ مخطوطة، وعلوم الحديث والمصطلح وأسماء الرجال ٢٢٠ مخطوطة، والفقه وأصوله ١٥٠ مخطوطة.

١٥ ــ **المكتبة الناصرية**، في

لكناؤ: وهي مكتبة مشهورة بكتبها القيمة النادرة، وفيها مخطوطات جيدة.

١٦ ــ مكتبة دار المصنفين، اعظم كره: دار المصنفين تعتبر اكاديمية، علمية، إسلامية، كبيرة، اسسها العلامة شبلي النعماني بعد انعزاله عن دار العلوم ندوة العلماء، ثم خلفه تلميذه البار العلامة السيد / سليمان الندوي، ثم اجتمع في هذه الأكاديمية نخبة ممتازة من المؤلفين، وبجهودهم صارت مكتبتها من نفائس المكتبات، في الهند، ويوجد فيها عدد غير واحد من المخطوطات العربية، وهي أكبر مكتبة في شمال الهند للكتب الدينية والاسلامية.

١٧ ــ مكتبة طوك: وقد أخبرني بعض الاخوة أن في طوك عدداً كبيراً من المخطوطات الجيدة في مختلف العلوم والفنون إلا أن مكتبة طوك غير معروفة، ولذلك لا نستطيع القول فيها أكثر من ذلك.

١٨ ــ مكتبة بومباي: وهي مكتبة شهيرة تحتوي على كتب قيمة وفيها بعض المخطوطات، وقد سمعت من بعض الاخوة عنها كثيراً، ولكن ليس لدي معلومات عن المكتبة.

١٩ ــ مكتبة الجامعة السلفية، بنارس: مكتبة حديثة انشئت سنة ١٩٦٦م، وقد أهديت إلى المكتبة بعض المكتبات الأهلية كمكتبة العلامة محمد أبو القاسم المحدث البنارسي التي يبلغ عددها قرابة خمسة آلاف كتاباً من نفائس كتب التفسير والحديث والأدب.

٢٠ ــ مكتبة بومباي: مكتبة شهيرة تحتوي على كتب قيمة وفيها بعض المخطوطات وقد سمعت من بعض الاخوة عنها كثيراً، ولكن ليس لدي معلومات كثيرة.

ومكتبة العلامة الأديب عبدالمجيد الحريري البنارسي التي تحتوي على أكثر من الفي كتاب في علوم الأدب واللغة، والحديث والتفسير ومكتبة عبدالرحمن بقا الغاز يفوري، وبعض مكتبات ميرته وغيرها. وبهذه المكتبات الأهلية صارت هذه المكتبة من انفس المكتبات للكتب القديمة. هذه هي نبذة عن المكتبات الاسلامية التي نالت شهرة عظيمة في بلاد الهند، وطار صيتها في الآفاق، ومعظم هذه المكتبات تحتاج إلى مساعدة مادية وتشجيع أدبي، فإن قلة وجود الخبراء في مكتبات الهند بلغت إلى حد كبير، وقد لاحظنا في بعض المكتبات سوء التنظيم والتنسيق، وهذا لقلة إمكانياتهم المادية والادبية، حتى رأينا في بعض المكتبات القيمة أن بعض المخطوطات النادرة قد اكلتها الديدان، وتحتاج الكتب إلى تجليد جديد، ونظراً إلى أهمية المخطوطات أصدرت الحكومة الهندية قراراً بمنع إخراج المخطوطات من الهند إلى البلاد الأخرى، ومن المعلوم أن هناك مكتبات أهلية، يعض عليها اصحابها بالنواجذ مع عدم إمكانياتهم ليحتفظوا بها فنلفت انظار ــ محبي العلم والتراث الاسلامي إلى أن مكتبات الهند تحتاج إلى عناية كبيرة من مساعدات مادية وتشجيع أدبي، ويجب على علماء الهند ومدراء الجامعات أن يلفتوا انظارهم الكريمة إلى هذا الأمر وإلا يُخشى أن تضيع بعض المكتبات الأهلية ــ لا قدر الله ــ ونسأل الله أن يوفقنا للاحتفاظ بتراثنا الاسلامي والعربي، ويوفقنا لما يحب ويرضاه، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.



الليث بن سعد



ولد الليث في قلقشندة، وهي بلدة من أعمال القليوبية. وهي بلدة صاحب صبح الأعشى.

وندع لهذا المؤلّف الجليل التعريف بها، فهو يقول: «قلقشندة[1] بلدتنا، وهي بلدة حسنة المنظر غزيرة الفواكه، وهي هكذا باللام كما هي مكتوبة في دواوين الديار المصرية، كما هي هكذا في ابن خلكان. وأبدل ياقوت في معجم البلدان اللام راء، وهو الجاري على السنة العامّة، وعليه جرى القضاعيّ في خططه».

والليث مما سلف نراه مصرياً، نشأ في أرض مصر وبزغ مجده فيها. وقد كان يعرف بالمصريّ، ويعتزّ بهذا اللقب الرفيع. حكى[2] كاتبه أبو صالح أنه كان مع الليث في بغداد، فقال له: سل عن منزل هُشَيم الواسطيّ فقل له: أخوك ليث المصريُّ يقرأ عليك السلام وكانت ولادة الليث في سنة ٩٤هـ في خلافة الوليد بن عبدالملك، وكان الوالي على مصر قُرّة بن شَريك. فتراه أدرك شطراً من دولة بني اميّة التي انقرضت سنة ١٣٢، ثمّ اظلّه عصر بني العبّاس.

أسرته

يحكى الليث أن أهله من اصبهان في بلاد فارس. وكان ولاء هذه الأسرة إلى فَهْم من بطون قيس عَيْلان إحدى القبائل العربيّة الكثيرة العدد والانتشار في بلاد الفتح الإسلاميّ. والليث لهذا يعدّ من الموالي، ولم يكن من صميم العرب. وقد كان ولاء الليث إلى عبدالرحمن بن خالد الفهميّ الذي ولي مصر. وبعد الجزم بأن أهله ليسوا من العرب لا يوقن الباحثون بأصل لهم معيّن. وكان أهله يقولون: نحن من الفرس. وكأنّ هذا جاءهم من قِبَل أنّهم كانوا في أصبهان. ويقول ابن[3] يونس: وليس لما قالوه من ذلك عندنا صِحَّة ــ يعني كونهم من الفرس.

نشأته

وقد نشأ الليث في قلقشندة. ولا بد انه تعلّم مبادىء القراءة والكتابة في مكتبها، ثم أخذ في سبيل العلم ورواية الحديث والآثار، كما هو سبيل المتعلّم في عصره. فأخذ عن علماء مصر ومحدّثيها، ومنهم عمرو بن الحارث (توفي سنة ١٤٨) وعبدالرحمن بن خالد الفهميّ مولاه. وقد استوعب ما عند المصريين من علم ورواية، حتى قال ابو[4] إسحاق الشيرازيّ في طبقات الفقهاء: تناهى علم التابعين من أهل مصر إلى الليث. وقد أخذ عن علماء الحجاز، فروى عن عطاء ابن أبي رَباح، وابن أبي مُلَيكة، ونافع مولى ابن عُمر. ويبدو أن ذلك حين حجّ سنة ١١٣. ولقي حين ذهب للحجاز مالكاً بالمدينة. ويروي أن مالكاً بعث إليه بطبق رُطب، فجعل الليث على الطبق ألف دينار، وردّه إليه. وحمل عن الزهريّ علماً كثيراً، وكان يجلّه ويعظمه. ولقد رئى الليث آخذاً بركاب الزهريّ، وما فعل ذلك إلّا لما يكنّه له من الإعظام والإجلال. وأخذ عن علماء العراق حين وفد إليها سنة ١٦١.

سيادة الليث وفضله

ولقد ساد الليث وظهرت نجابته وفَوْقه في سنّ مبكرة. حدّث بعض الرواة قال: أدركت الناس أيّام هشام (١٠٥ ــ ١٢٥هـ) وكان الليث بن سعد حَدَث السنّ، وكان بمصر عبدالله بن جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يزيد، ويزيد ابن أبي حبيب، وإنّهم ليعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه، على حداثة سنّه. وروى بعض الرواة قال: رأيت الليث بن سعد عند ربيعة يناظرهم في المسائل وقد فاق أهل الحَلْقة. وربيعة هذا هو ربيعة الرأي شيخ مالك وفقيه أهل المدينة. وكانت وفاة ربيعة سنة ١٣٦. والظاهر أن هذا حين حجّ الليث سنة ١١٣هـ اي كان ذلك وهو لم يتجاوز العشرين من سنيه.

نزعته في الفقه ومذهبه

يعدّ الليث من أصحاب الحديث. فهو من طبقة الإمام مالك ـ رضي الله عنهما ـ ممّن لا يأخذ بالرأي. ويقول الشافعيّ[٥]: الليث بن سعد أتبع للأثر من مالك. ويقول[٦] ابن حجر: ولقد تتبعت كتب الخلاف كثيراً، فلم أقف فيها على مسألة واحدة تفرّد بها الليث عن الأئمة من الصحابة والتابعين، إلا مسألة واحدة. ومما لا يُرتاب فيه أنه لم يتقيّد في الفقه بمذهب إمام قبله. ويقول ابن النديم في الفهرست[٧]: إنه من أصحاب مالك، ثم اختار لنفسه. والذي يبدو أن هذا وهم من ابن النديم؛ فقد كان الليث قِرْناً لمالك، وكانا يتكاتبان في المسائل، فيرد أحدهما على الآخر، ولم يكن بينهما ما بين المتّبِع والمتَّبَع. ويقول ابن خلكان:

«ورأيت في بعض المجاميع أنه كان حنفيّ المذهب، وأنه ولي القضاء بمصر». ومما يردّ هذا الزعم قصّته مع إسماعيل بن اليسع الكندي، وكان من خير قضاة مصر وأقضاهم بالحق، ولكنه كان حنفيّ المذهب، وكان يذهب مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في بطلان الوقف، وكان هذا لا يرضي الليث، فكتب إلى الخليفة بعزله، فعُزل. ومما عرف عنه أن المنصور عرض عليه ولاية مصر فأبى عزوفاً عن السلطان، أفبعد هذا ينسب إليه أنه تولى القضاء!.

ولقد قدّر لليث أن يكون مفتي مصر وفقيهها. ويقول ابن سعد في الطبقات[٨] الكبرى:

استقلّ بالفتوى في مصر، في زمانه، وكان كذلك كثير الحديث صحيحه. وقد كان له مجلس يعقده للحديث والفقه، ومجلس آخر لأصحاب المسائل والفتاوي.

الليث والرشيد

كان قد وقع بين الرشيد وزوجه زُبيدة مناظرة وملاحاة في بعض الأشياء، فقال هارون في عُرض كلامه: أنتُ طالق إن لم أكن من أهل الجنّة. ثمّ ندم على ما فرط منه، واغتما جميعاً. وجمع الرشيد الفقهاء وسألهم، فلم يجد من يمينه مخرجاً. ثم كتب إلى سائر البلدان من عمله أن يحمل إليه الفقهاء. فلما اجتمعوا ـ وكان فيهم الليث ـ سألهم عن يمينه، وهل له منها مخرج. فأجابه الفقهاء بإجابات مختلفة، وسكت الليث. فقيل له: مالك لا تتكلم؟! فقال: يخلي أمير المؤمنين مجلسه إن أراد أن يسمع كلامي في ذلك.

فانصرف من كان بمجلس أمير المؤمنين من الفقهاء والناس. ثم قال له الخليفة: تكلّم. فقال: يا أمير المؤمنين، أتكلم على الأمان وعلى طرح التعمل والهيبة، والطاعة لي من أمير المؤمنين في جميع ما آمر به. قال: لك ذلك. قال: يدعو أمير المؤمنين بمصحف. فأمر به، فأحضر. قال: يأخذه أمير المؤمنين، فيتصفحّه حتى يصل إلى سورة الرحمن. فأخذه وتصفّحه، حتى وصل إلى سورة الرحمن. فقال: يقرأ أمير المؤمنين. فقرأ، فلمّا بلغ قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ قال: قِف يا أمير المؤمنين هـا هنا. فوقف. فقال: يقول أمير المؤمنين: والله.. فاشتدّ ذلك على الرشيد. فقال له هارون: ما هذا! قال: يا أمير المؤمنين: على هذا وقع الشرط. فنكس هارون رأسه ثم قال: والله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ـ إلى آخر اليمين ـ ثم قال له الليث: قل يا أمير المؤمنين: إنك تخاف مقام الله. فقال هارون بعد القسم: إني أخاف مقام الله. فقال: يا أمير المؤمنين، فهما جنّتان، وليست بجنّة واحدة، كما ذكر الله في كتابه. فسمع التصفيق ومظاهر الفرح من وراء الستر ـ وكان وراءه زبيدة ـ وأجازه الرشيد الجوائز السنيَّة، وكذا زُبَيدة.

آثاره

كان الليث من الأئمة المجتهدين. ولكن لم يرزق من الأصحاب والتلاميذ من ينشر مذهبه ويدّون آراءه، كما رزق غيره من معاصرين من الأئمة على أنه قد جمع من مسائله الشيء اليسير. فقد كانت له مسائل في الفقه، تقرأ على عبدالله بن وهب. ويقول ابن النديم: إنَّه خَلَّف كتاباً في التاريخ. ونرى الكندي «في تاريخ الولاة والقضاة» يروي بعض حوادث التاريخ عن الليث بسنده إليه. ويظهر أن ذلك عن كتابه هذا الذي ينّوه به ابن النديم. ومن آثاره الباقية لدينا رسالته إلى الإمام مالك. ناقشه فيها في بعض المسائل. وقد حفظها لنا ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين.

موقفه من البدع

كان أهل مصر يتنقصّون عثمان رضي الله عنه، حتى نشأ فيهم الليث، فحدّثهم بفضائل عثمان فكفوا. وهذه يد يشكرها الله وصالحو المؤمنين لليث.

رأي الليث في صلاح مصر

لما قدم الليث على الرشيد في رحلته قال له الرشيد: يا ليث، ما صلاح بلدكم؟ فقال الليث: صلاح بلدنا بإجراء النيل وإصلاح أمرها، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي. قال: صدقت يا أبا الحارث. وكأنه يريد برأس

العين الخليفة في سياسة الأمور. ينصحه برفق أن يسير على الطريقة المثلى، ويلتزم جادّة العدل والإصلاح، والنيل ومنابعه في الصلاح المادّي للبلاد. ويذكّرنا نظره إلى النيل وإجلاله له بمقال هيرودوت: مصر هبة النيل. وفي سوق هذه القصّة تذكير للمصريين أن يرعوا أمر النيل، ويقوموا على وسائل جريه والانتفاع به.

ثراء الليث وسخاؤه

كان الليث واسع الغنى، له ضياع غنيّة تدرّ عليه مالاً كثيراً. وكان ينفق النفقة الكثيرة على نفسه وعياله وضيفه. حكى قتيبة بن سعيد قال: قفلنا مع الليث من الاسكندريّة، وكان معه ثلاث سفائن: فسفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه. وقال كاتب الليث عبدالله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة لا يتغدّى ولا يتعشّى إلا مع الناس. وروى بعضهم أنه كان لا يتغدّى كل يوم حتى يطعم ثلاثمائة وستين مسكيناً. وكان له مجلس كل يوم يجلس فيه لأصحاب الحوائج. وكان كثير الفضل على أهل العلم. وصل منصور بن عمار بألف دينار، واحترق بيت ابن لَهيعة فوصله بألف دينار. ووصل مالك بن أنس بألف دينار. وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويجعل فيه الدنانير ليحصل لمن أكل كثيراً من الدنانير أكثر من صاحبه. وكان يصل مالكاً كل سنة بألف دينار. وكتب إليه مالك: بلغني أنك تأكل الرُقاق، وتلبس الرقاق، وتمشي في الأسواق. فكتب إليه الليث: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ.

الهوامش

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٣.
(٢) تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤.
(٣) من الرحمة الغيثية لابن حجر ص ٢.
(٤) المصدر السابق ص ٩.
(٥) من الحلية ٧ ص ٣١٩.
(٦) من الرحمة الغيثية ص ٩.
(٧) ص ٢٨١.
(٨) ج ٧ قسم ثان ص ٢٠٤.

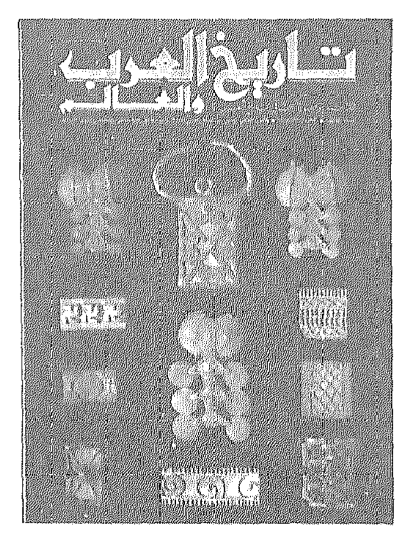


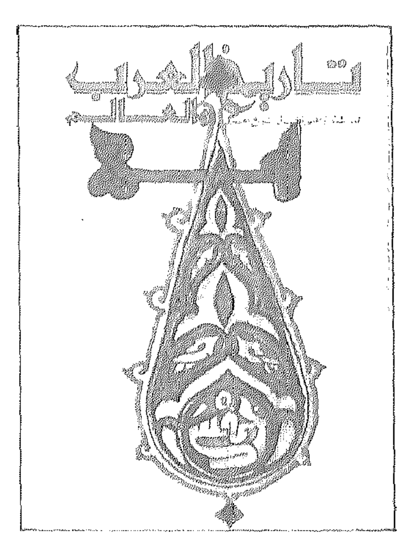
ابن رشد (١١٢٦ ــ ١١٩٨)

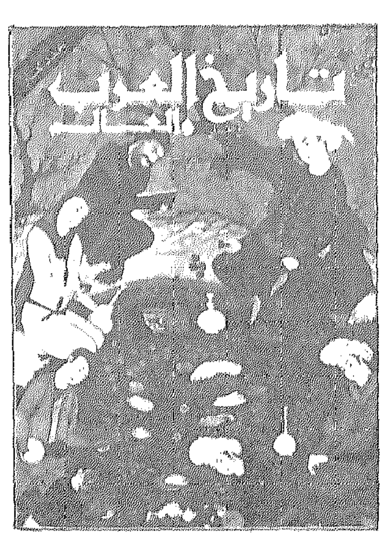
● فيلسوف وطبيب وفقيه ومفكر. عربي وأندلسي. ولد بقرطبة وتولى القضاء في أشبيلية ثم قرطبة. شرح كتب أرسطو بتكليف من أبي يعقوب يوسف أمير الموحدين. نفي بسبب أفكاره إلى البيسان قرب قرطبة، وعاد إلى مراكش بعد العفو عنه. من أشهر كتبه شروح أفكار أرسطو «الطبيعيات» و «السماء» و «العالم» و «الكون والفساد» و «الآثار العلوية» و «النفس» وأهم شروحه «تفسير ما بعد الطبيعة لأرسطو». وأهم مؤلفاته «تهافت التهافت» الذي رد فيه على كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة».

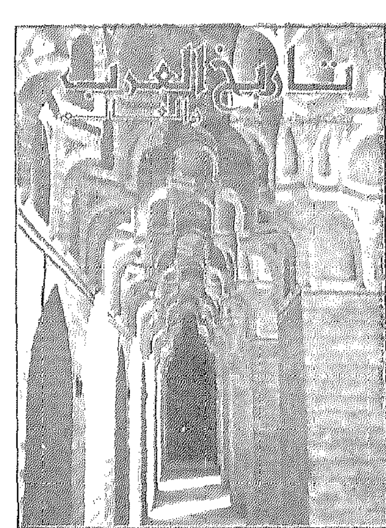
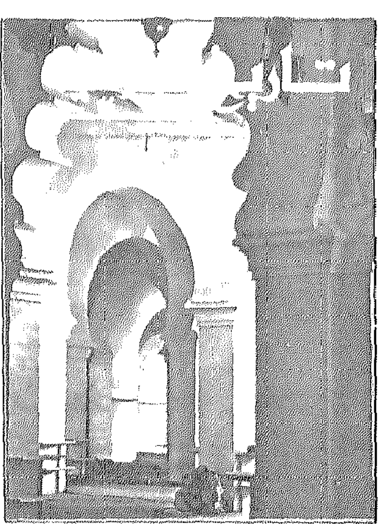
يعتبر ابن رشد من أقوى المدافعين عن النزعة العقلانية في الفكر الإسلامي. ومن أوائل المدافعين عن كرامة المرأة «وأن تقوم المرأة بخدمة المجتمع والدولة كما يقوم الرجل» وكان له أكبر الأثر في تفكير سان توماس المنادي أيضاً بالعقلانية مما أثار غضب الكنيسة (١٢٧٠ ــ ١٢٧٧). ظلت أعماله تؤثر على الفكر الغربي حتى القرن السادس عشر وخاصة في شمال ايطاليا مما مهد لعصر النهضة. ويعبر ابن رشد خير تعبير عن الروح الانتقائية للفكر الاسلامي حين انتقت من الفلسفة الأغريقية أرسطو ورفضت أفلاطون لأن أرسطو ينادي بالعقل والمنطق والعقلانية. ولابن رشد صورة من مخطوط في متحف بودابست الوطني في وصف بلاد المجر مما يدل على اهتمامه أيضاً بالجغرافيا والسياسة والاجتماع إلى جوار قدرته الفكرية والفلسفية.

وتطلق «الابن رشدية» (Averroism) ــ في الغرب ــ على التيار الفكري المتأثر بأفكار ابن رشد.





الفهرس العام للسنة الثامنة

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
تاريخ لبنان			
□ سلسلة تاريخ طرابلس، الاسكلة مدينة الميناء التاريخية	د. انطوانيت أديب باسيلي	٨٨/٨٧	٥٦
□ رسائل تاريخية من إبراهيم باشا إلى مصطفى آغا بربر..........	د. عمر عبدالسلام تدمري	٩٠/٨٩	٢



□ تاجر عربي من مدينة بيت لحم (عام ١٨٩٠).

لاراسان وعدد ايامه تسعة وعشرون وليس فيه عيد وصوم اليوم السابع عشر
منه وفيه كسر موسى الالواح وفيه ابتدا حصن بيت المقدس في الانهدام ايام بختنصر
اياهم وفيه اتخذ صنم بيت المقدس ووضع في المحراب جرأة على الله وطغيانا وفيه
احرقت التورية وفيه بطلت القرابين

آب

لا راس ولحد وعدد ايامه ثلثون وصوم اليوم الاول منه وهو الذي مات فيه
هرون بن عمران ورفع الغمام الذي جعل كرامة له وفي اليوم التاسع صوم وفيه
اخبروا في التيه بانهم غير داخلين بيت المقدس فاغتموا وفيه فتح بيت المقدس ودخله بختنصر
وخربه بالحريق وفيه خرب البيت خرابه الثاني وحرث ارضه وفي اليوم الخامس
عشر صوم زوال النار عن البيت وهو خروج بختنصر عنه ورفع الحريق عن خزائنه وهياكله
وفي اليوم الثامن عشر منه صوم سببه انطفاء سراج الهيكل ببيت المقدس في ايام اسون النبي وكان
ذلك علامة لغضب الله عليهم

ايلول

لا راس ان وعدد ايامه تسعة وعشرون وليس فيه عيد وفي اليوم السابع منه صوم الخواميس
وهو اليوم الذي رجع فيه الطلائع الى موسى واخبروه للجبارين فاغتم بنو اسرائيل
وكذبهم يوشع بن نون فاثبت لذلك ومنهم من يجعل صوم هذا الشهر يوم الاثنين او الخميس

□ صفحة من كتاب «الآثار الباقية» للبيروني، تصف تهديم مدينة القدس على يد بختنصر. من كتاب: عبقرية الحضارة العربية.